الإنجيل الخامس

قصة أخطر تحريف في تاريخ الديانات

عصام القيسي

الطبعة الأولى

اسطنبول ٢٠٢٠

حقوق الطبع للمؤلف

هذا الكتاب

كان ذلك في منتصف عقد التسعينيات من القرن الماضي، في أحد مساجد العاصمة صنعاء بحي الصافية، عقب صلاة العشاء في شهر رمضان، حين وقف أمام المصلين رجل طويل القامة عريض المنكبين، بملامح أجنبية، يلبس ثوبا أبيض نظيفا، ويتحدث المصرية. قال كلاماً طويلاً خلاصته إنه كان قسيسا مسيحياً مرموقاً في الكنيسة المصرية، قبل أن يعلن إسلامه ويتعرض للتنكيل الشديد من قبل طائفته، وإنه الآن بحاجة لدعم مالي من إخوانه المسلمين، بعد أن خسر جميع ممتلكاته. لقد روى ذلك بطريقة مؤثرة بالنسبة لشاب مثلي كان حينها متقداً بالحماس الديني. لم أتمالك نفسي من شدة التأثر فإذا بي أهتف من بين الصفوف لأول مرة في حياتي بعبارة «الله أكبر ولله الحمد»، والناس في المسجد يرددون ورائي!.

كان هذا الموقف بمثابة عود الثقاب الذي أشعل رغبتي في التعرف على المسيحية. إلا أن هذه الرغبة ما لبثت أن فترت لسببين على الأقل. أولهما عدم وجود طائفة مسيحية في اليمن آنذاك يمكن أن تحفزني على النقاش والمحاجة، كما هو الحال مع الجماعات المذهبية الإسلامية. والآخر هو عدم وفرة الكتب المبسطة لمبتدئ مثلي في هذا المجال. إلا أن حسن الحظ كان قد جمعني بصديق يحب جمع الكتب وإن لم يقرأها. عرفت أن لديه عدداً من أشرطة الكاست لمناظرات الأستاذ أحمد ديدات مع بعض القساوسة، مترجمة صوتياً

بصورة احترافية. فاستعرتها منه، واستمعتها بعناية وشغف كبيرين لمرات ومرات. وفي زيارة أخرى لمكتبته وجدت ما كنت أفتش عنه: الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ترجمة الفندايك.

أخذت الكتاب وطالعته مدة من الزمن، وعدت من مطالعته بعشرات الأسئلة والملاحظات التي لم أجد حينها مرجعاً موثوقاً يفسر ما يحتاج منها إلى تفسير ويسد هذه الثغرة المعرفية لدي. ويشاء القدر مرة أخرى أن يأتي الحل على يد هذا الصديق الذي يحب الكتب ولا يحب القراءة!. عندما جاءني ذات يوم وطرح علي مقترحاً طريفاً. قال إنه يفكر في مراسلة مجلة الفيصل السعودية لطلب حزمة من كتب الوقف التي كانت توزعها مجاناً. والمطلوب من العبد لله أن يحرر رسالة مناسبة للمجلة باسم مكتبة المسجد المجاور وسيتكفل هو بالمتابعة!. وما هي إلا أسابيع حتى كانت شحنة الكتب في الباب. طردان كبيران مليئان بالكتب المطبوعة طباعة فاخرة. كان من بينها مجلدات أنيقة لكتاب عرفت في ما بعد أنه أشهر مرجع في مجال نقد الكتاب المقدس من وجهة نظر إسلامية. الكتاب الذي على يديه تعلم أحمد ديدات نفسه. أعني كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي. وبجواره مجموعة من كتب اللواء أحمد عبد الوهاب، المعروف بكتاباته الشيقة في مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم.

وقد اكتفى العبد لله من الغنيمة باستعارة بعض هذه الكتب لقراءتها بشغف. واستمرت المطالعات على مدى السنوات التالية في مجال القضايا الكتابية الشائكة، مثل قضايا الصلب والتثليث،

وتحريف الكتاب المقدس وتاريخه. بدافع الرغبة في معرفة الأسرار التاريخية للديانتين المسيحية واليهودية. ولاحقاً بدافع الرغبة في معرفة المصادر الدينية التي حرضت المحافظين الجدد في البيت الأبيض على غزو العراق والهيمنة على الشرق الإسلامي. ثم بدافع ثالث هو معرفة المنابع الأولى لبعض الأوهام الإسلامية، مثل وهم المهدي المنتظر والمسيح الدجال والمجيء الثاني للمسيح، بعد أن شك الباحث بأصالتها في الوحي الإسلامي، وخطورتها في تزويد مقاتلي الجماعات الدينية المتطرفة - الشيعية على وجه الخصوص - بالكثير من الأمل والتصميم على تخريب أوطاننا وحياتنا السياسية والاجتماعية.

وليس أدل على هذا الأثر من قصة هذا الكتاب نفسه. فلولا وجود هذه الجماعات الدينية الضالة، بعقائدها المزيفة، لكان هذا الكتاب قد رأى النور - بصورة أفضل مما هي عليه الآن - قبل سنوات ست من تاريخ طباعته. إذ تعود المخطوطة الأولى منه إلى العام ٢٠١٤م. قبل أن يتوقف المؤلف مضطراً عن إتمامه، بسبب مغادرته لوطنه (اليمن) على إثر الاجتياح البربري للعاصمة صنعاء من قبل المليشيا الطائفية (الحوثي) وحليفها صاحب النظام السابق علي عبد الله صالح. وما تلى ذلك من حرب طاحنة، لم تترك لليمنيين فرصة لالتقاط أنفاسهم فضلا عن الاهتمام بقضايا الفكر والتنظير والبحث العلمي.

لقد احتاج الكاتب إلى سنوات ست بعد ذلك لاستعادة لياقته الذهنية والنفسية ومعاودة النظر في دراساته التي لم يتمها منذ ذلك

التاريخ. ولم يكن الأمر سهلاً بالطبع كما كان في بدايته. فلا وقت الكاتب في المهجر متسع لتجويد عمله، ولا ذاكرته العلمية بكفاءتها التي كانت عليها، ولا المراجع التي اعتمد عليها قبل السفر متوفرة بين يديه الآن. وبعضها مراجع نادرة لم يجدها في المكتبات العربية باسطنبول - حيث يقيم - ولا في مواقع الإنترنت. والأنكى من ذلك أن الانقطاع عن الدراسة لسنوات قد أنسى كاتبها مصادر بعض البيانات المذكورة في الدراسة. فاضطر لإثباتها دون ذكر المرجع. لكنها لحسن الحظ حالات معدودة وهامشية.

تتناول هذه الدراسة موضوعاً قديماً لا يخلو من الجدة. أما القديم فيه فهو الحديث عن بشارات الكتب المقدسة بالنبي محمد. وأما الجديد الذي قد لا يعرفه عموم القراء المسلمين فيتجسد في فرضيات ثلاث حاولت الدراسة إثباتها: الأولى، أن هذه الكتب المقدسة وذلك التراث المسيحي اليهودي يشيران إلى النبي محمد بعنوان آخر ملتبس هو «المسيح الموعود». فنبوءات العهدين القديم والجديد عن المسيح المنتظر لم تكن تشير إلى المسيح عيسى بن مريم كما توهم المسيحيون - ومعهم عامة المسلمين - بل كانت تشير إلى النبي محمد!. وهو الرأي الذي صادفه الباحث لأول مرة في مقدمة الدكتور خليل سعادة لترجمة إنجيل برنابا ثم في دراسة أخرى بعد ذلك سيرد ذكرها في متن هذه الدراسة. والفرضية الثانية هي أن ما عرف في التاريخ الإسلامي باسم المهدي المنتظر، ليس إلا شخصية مخترعة من وحي أخبار المسيح الموعود في الكتب المقدسة. تسربت إلى مذاهب الشيعة من التراث الإسرائيلي، ومنها إلى المجال الإسلامي العام بمذاهبه المختلفة، وتلك هي الفرضية الثالثة!.

لم يشأ الباحث أن يتقيد في هذه الدراسة بغير الشروط المنهجية للبحث العلمي. أما دعوى الموضوعية فهي عنوان فضفاض قليل الجدوى في مثل هذه الدراسات ذات الطابع الأيديولوجي!. إذ أن كل قراءة أيديولوجية متحيزة بطبعها. ومن حق كل صاحب أيدولوجيا أن يترافع عن ما يؤمن به في ساحة المعرفة والعلم، على قاعدة: إيماني صواب يحتمل الخطأ وإيمان غيري خطأ يحتمل الصواب. والجدل المعرفي هو خير وسيلة لترقي العلم. وقد تحيز الباحث في هذه الدراسة للمنظور القرآني على حساب المنظورات الكتابية (اليهودية والمسيحية) والمنظورات المذهبية في الإسلام (تحديدا: الشيعية والسنية)!. إنها في أسوأ الأحوال قراءة مختلفة لنصوص الكتب المقدسة، في حلبة القراءات التي قد تمتع القارئ إذا لم تفده. وكل قراءة جادة تثري العقل والحياة العلمية مهما كانت مواقفنا منها، ومهما كانت متواضعة.

المؤلف

مدينة اسطنبول

مايو - ٢٠٢٠م

اختصارات الكتب المقدسة

يشار في الدراسة إلى كتب العهدين القديم والجديد بين الأقواس بحروف مختصرة على النحو الآتي:

التكوين : تك
التثنية: تث
الملوك الثاني: ٢ مل
أخبار الأيام الأول: ١ اخ
المزامير: مز
إشعيا: اش
إرميا: ار
دانيال: دا
عاموس: عا
حجي: حج
زكريا: زك
ملاخي: مل
متى: مت
مرقس: مر
لوقا: لو
يوحنا: يو
أعمال الرسل: اع
رومة: رو
رؤيا يوحنا: رؤ

تمهيد

هناك اليوم ثلاث أمم دينية تنتظر مسيحاً مخلصاً يظهر في منطقة الشرق الأوسط هي على التوالي: اليهود، المسيحيون، المسلمون. أما اليهود فينتظرون مجيء المسيح المخلص الذي بشر به موسى في برية سيناء، ولم يظهر بعد منذ ذلك الحين[1]!. وأما المسيحيون فينتظرون المسيح نفسه الذي بشر به موسى لكن على اعتقاد منهم بأنه عيسى بن مريم الذي ظهر في بني إسرائيل قبل حوالي ألفي عام ثم صعد إلى السماء، واعدا تلاميذه بعودة أخرى إلى الدنيا في آخر الزمان حسب فهم البروتستانت منهم. وأما المسلمون فينتظرون ثلاث شخصيات ملحمية مختلفة ذات طابع مسيحاني هي على التوالي: المهدي المنتظر، المسيح الدجال، والعودة الثانية للمسيح عيسى بن مريم!. ينتظرونهم ضمن قائمة أخرى طويلة من علامات الساعة الصغرى والكبرى، دون أن يكون لدى عامتهم، وأكثر خاصتهم، أدنى فكرة عن نبوءة موسى بالمسيح الموعود التي شغلت بني إسرائيل والمسيحيين طوال التاريخ!.

وإذا كانت الأغلبية المؤمنة من هذه الأمم قد اكتفت بالانتظار، فإن أقلية منها تعمل بإخلاص للتعجيل بمجيء المنتظر. وذلك بتهيئة مسرح الأحداث التي ستعجل بظهوره. ومن سوء حظ البشرية أن هذه الأمم «المؤمنة» بفكرة المخلص المنتظر متفقة على

(١) مر من زمن نبوءة موسى حتى الآن قرابة ٣٢٥٠ سنة!.

شرط واحد لظهوره هو شرط «الخراب». إذ لا بد أن يسبق ظهور المخلص المنتظر خراب عظيم لهذا العالم. وفي كل عصر تقريباً يظهر من يقول إن أوان المخلص قد آن. وعلى الأمة أن تهيأ نفسها لاستقباله، أو تمهد الطريق لظهوره. وبين التهيئة والاستقبال فرق كبير: في حالة الاستقبال ستكتفي الأمة بمهمة الانتظار وحدها، أما في حالة التهيئة فعليها أن تقوم ببعض المهام اللوجستية، مثل إشعال الحروب، وإشاعة الفوضى والفتن، لعل ذلك يحقق شرط الظهور المتفق عليه!. وهذا هو الهاجس الذي يحرك بعض المنتسبين للمذهب الشيعي من المسلمين[1]، والمحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية، لتحويل الشرق الأوسط إلى ساحة حرب مستمرة لا تهدأ. لأن الشرق الأوسط - لسوء حظه - هو مسرح عمليات الظهور المسيحاني القادم كما يعتقد أصحاب هذه العقيدة في الديانات الثلاث المذكورة.

تقول الصحفية الأمريكية جريس هالسل[2]: «في الستينيات كنت أعمل كاتبة في البيت الأبيض، عندما انفجرت إحدى حروب الشرق الأوسط (حرب يونيو ١٩٦٧). لم أكن أعرف الكثير عن الشرق الأوسط خارج قصص العهد القديم. ومع وصول الرئيسين جيمي كارتر ورونالد ريجان إلى سدة الرئاسة أصبح يتردد

(١) تلقت عقيدة المهدوية ضربة قاسية في العقود الثلاثة الماضية على يد الباحث العراقي الشيعي أحمد الكاتب، عبر سلسلة مؤلفاته النقدية لعقائد الشيعة الاثني عشرية تحديدا. وأشهر دراساته النقدية في هذا المجال كتاب «تطور الفكر السياسي الشيعي» وكتاب «الإمام المهدي حقيقة تاريخية أم فرضية فلسفية؟».

(٢) يد الله، لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل؟: جريس هالسل، ترجمة محمد السماك دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

على مسامعي مزيد من الكلام عن هرمجيدون وعن الولادة الثانية، وبمزيد من التأكيد عن أولئك الذين يمكن أن يجربوا «السعادة المطلقة» أو النشوة الدينية»[1].

ومعركة هرمجيدون التي يتحدث عنها الرئيسان كارتر وريجان هي المعركة التي يعتقد المسيحيون الصهاينة أنها ستنشب بين أبناء النور بقيادة المسيح وأبناء الظلام بقيادة المسيح الدجال والشيطان، وستفنى على إثرها البشرية، لأن السلاح الذي سيستخدم فيها يشبه السلاح النووي. وقد بلغ عدد المؤمنين بهذه الأسطورة عشرات الملايين من المسيحيين الإنجيليين في أمريكا والعالم. ويقوم على التبشير بها عشرات الكهنة والعديد من المنظمات والمؤسسات المؤثرة سياسيا واجتماعياً في أمريكا[2].

وتنقل هالسل كلاما مشابهاً لعدد من الكتاب والمشاهير الغربيين، أمثال جون هاجي في كتابه «الفجر الأخير» الذي يقول: إن نهاية العالم كما نعرفه تقترب منا، «وإن أمريكا رمز لتيتانك حديثة.. إننا الآن في سباق نحو الكارثة»[3]. والقس كين بوغ (الذي حقق مع الرئيس الأمريكي بيل كلنتون في فضيحة مونيكا لوينسكي) يقول: «إن النهاية قادمة.. وأعتقد أنه يمكن كثيراً أن تحدث في أيامنا»[4]. ويحذر بوغ من أن حروبا أخرى سوف تنفجر قبيل هرمجدون، «وأن واحداً من كل اثنين من الناس سوف يقتل، أي أن ثلاثة مليارات

(١) المرجع السابق: ص١١.
(٢) انظر: المرجع السابق: ص ١٣.
(٣) المرجع السابق: ص ١٣.
(٤) المرجع السابق: ص ١٣.

شخص سوف يقتلون»[1]. والإنجيلي الشهير جيري فولويل الذي يقول «إن هرمجدون حقيقة. وهي حقيقة مرعبة. وإننا جزء من جيل النهاية، من الجيل الأخير. فالتاريخ سيصل إلى ذروته .. في خلال هرمجيدون ستكون هناك مناوشة واحدة وأخيرة، ثم إن الله سوف يتخلص من هذا الكون، سوف يدمر هذه السماوات والأرض.. وينتهي قائلا: إن المليارات من البشر سوف يموتون في محرقة هرمجيدون»[2]. أو ينبغي أن يموتوا لكي تتحقق النبوءة!. وتؤكد الاستطلاعات أن المؤمنين بهذه العقيدة بين الأمريكان في ازدياد، فقد أوردت مجلة تايم (كبرى المجلات الأسبوعية الأمريكية) أن أكثر من نصف الأمريكيين يعتقدون أن كارثة من صنع الإنسان سوف تمحق الحضارة في غضون القرن الواحد والعشرين[3]. وقد انتقلت عدوى هذه العقيدة إلى بعض الكتاب المسلمين المعاصرين، فذهبوا يؤلفون الكتب ويقيمون المحاضرات في التحذير من معركة هرمجدون القادمة، بل إن بعضهم قد ذهب يتنبأ بموعد محدد لنهاية العالم وعمر أمة الإسلام![4]. وعمل أصحاب هذه العقيدة على التوفيق بين أخبار الفتن والملاحم في مدونات التراث الإسلامي

(١) المرجع السابق: ص ١٤.
(٢) المرجع السابق: ص ١٤.
(٣) المرجع السابق: ص ١٥.
(٤) صدرت في تسعينيات القرن الماضي سلسلة كتب عربية تهتم بقضايا آخر الزمان وظهور المهدي، منها كتاب بعنوان «عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي»، تأليف: أمين محمد جمال الدين. يقدم فيه سيناريوهات مختلفة لظهور المهدي على ضوء دراسته لأحاديث الفتن والملاحم في التراث الإسلامي، إلا أن أبرز مقولات الكتاب هي تحديده لعمر أمة المسلمين بين ١٤٠٠ - ١٥٠٠ سنة، على ضوء قرائن استخرجها المؤلف من أحاديث الفتن والملاحم!.

مـع أخبـار الفتـن والملاحـم في الكتـاب المقـدس (التـوراة والأناجيـل). بحيـث تبـدو وكأنهـا سرديـة واحـدة ذات مصـدر واحـد، تعـرض للتشـويش عنـد الطـرف الآخـر في جوانـب عديـدة منـه، وبقيـت حقيقتـه الأصليـة في تراثنـا الإسـلامي!.

لكن من أين جاءت عقيدة هرمجدون هذه يا ترى؟.

وردت كلمـة هرمجيـدون في الكتـاب المقـدس للمسـيحيين مـرة واحـدة فقـط في سـفر «رؤيـا يوحنـا»، آخـر أسـفار العهـد الجديـد (٢٠ : ٧). والسـفر نفسـه عبـارة عـن رؤيـا حلميـة لشـخص مجهـول يدعـى يوحنـا اللاهـوتي. وهـو - كـما يرجـح بعـض المحققـين[1] - أحـد الكهنـة اليهـود مـن طائفـة العرافـين، عـاش في زمـن الامبراطـور الرومـاني دوميتيـان (٨١- ٩٦م). أي بعـد وفـاة المسـيح بأكثـر مـن نصـف قـرن.

ويعتقـد المسـيحيون الإنجيليـون أن الله قـد اسـتخدم يوحنـا اللاهـوتي ليمرر مـن خلالـه وصفـاً لأحـداث آخـر وأكـبر معركـة في تاريـخ البشريـة، سـتقع في سـهل «مجيـدو» بفلسـطين. حيـث سـيزحف عـلى المنطقـة جيـش أسـيوي رهيـب مكـون مـن مئتـي مليـون محـارب، يمتطـون جيـاداً تنفـث النـار والدخـان والكبريـت (يفسرهـا بعـض المعاصريـن بالدبابـات والمركبـات الحربيـة الحديثة). سـيجتاز هـذا الجيـش نهـري دجلـة والفـرات متجهـاً إلى فلسـطين، بعـد أن يكـون قـد دمـر معظـم المـدن المأهولـة في العـالم قبـل وصولـه إلى نهـر الفـرات. وفي فلسـطين سـيلقى هـذا الجيـش الضخـم حتفـه عـلى يـد المسـيح الـذي سـيدمر الأرض بضربـة نوويـة، تذيـب الجلـود وتخـرج العيـون مـن محاجرهـا،

(١) أنظـر: المسـيحية والتـوراة، بحـث في الجـذور الدينيـة لـصراع الـشرق الأوسـط: شـفيق مقـار، ريـاض الريـس للكتـب والنـشر، لنـدن ‖ قـبرص، الطبعـة الأولى أغسـطس ١٩٩٢، ص ٢٢٨.

وتنهي قصة الإنسان على الأرض[1]. ويرجح المفسرون الإنجيليون أن يكون هذا الجيش الآسيوي هو نفسه جيش يأجوج ومأجوج المذكور في سفر حزقيال من العهد القديم. وأن بعض تفاصيل الرؤيا قد وردت من قبل في سفري دانيال وزكريا من العهد القديم. ويعتقد بعض مفسريهم أن روسيا والمسلمين هم قوم يأجوج ومأجوج المقصودون في الرؤيا!. ولعلهم قد عدلوا عن هذا التفسير في الآونة الأخيرة بعد ظهور التنين الصيني الذي أصبح العدو رقم واحد لأمريكا كما صرح بعض مسئوليها!. وبناء على التفسير الحرفي لهذه الرؤيا تأسست الصهيونية المسيحية وتهيأت السبل لاحتلال فلسطين موطن المسيح العائد إلى وطنه![2].

وعلى الضفة الأخرى تميل الغالبية الشعبية من المسلمين وفيها بعض الوعاظ والتراثيين إلى الاعتقاد بأن العصر الحديث هو عصر الظهورات[3] وتحقق النبوءات والعلامات الصغرى للساعة التي تحدث بها النبي، والأئمة المعصومون عند الشيعة. وما داعش وحروب الشام والاضطرابات التي أعقبت الربيع العربي - في نظرهم - إلا علامات على قرب ظهور الدجال والمهدي والمسيح على التوالي![4]. وزمان الظهور عندهم هو زمان حروب ودمار وخراب أيضاً. ولهذا دونوا الروايات الخاصة بهذه الأحداث تحت عنوان «الملاحم والفتن»[5].

(١) أنظر كتاب : يد الله، لجريس هالسل.
(٢) أنظر: المسيحية والتوراة: ص ٢٢٥.
(٣) أعني ظهور المهدي المنتظر والدجال والمسيح.
(٤) كتبت هذه الفقرة في العام ٢٠١٤ قبل ظهور وباء كورونا وحريق غابات استراليا، وما شابه ذلك من الحوادث التي من المتوقع أن يضمها المترقبون لعودة المسيح إلى علامات الظهور.
(٥) من ذلك أن «تنظيم قاعدة الجهاد في جزيرة العرب» قد أطلق على موقعه في

ومن المعلوم لدارسي التاريخ الإسلامي أن فكرة المهدي المنتظر قد أسهمت بشكل قوي في تشكيل هذا التاريخ. يقول الأستاذ أحمد أمين: «فكرة المهدي والمهدوية لعبت دوراً كبيراً في الإسلام من القرن الأول إلى اليوم. وسبب نجاحها يرجع إلى شيئين: الأول أن نفسية الناس تكره الظلم وتحب العدل، سنتهم في جميع الأزمنة والأمكنة، فإذا لم يتحقق العدل في زمنهم لأي سبب من الأسباب اشرأبت نفوسهم لحاكم عدل تتحقق فيه العدالة]...[والثاني أن الدنيا في الشرق والغرب مملوءة ظلماً، وذلك في كل العصور، وقد حاول الناس كثيراً أن يزيلوا الظلم عنهم، ويعيشوا عيشة سعيدة في جو مليء بالعدل فلم يفلحوا، فلما لم يفلحوا أملوا فكان من أملهم إمام عادل، إن لم يأت اليوم فسيأتي غداً»[1]. وهذا التفسير الفلسفي لظاهرة المهدوية يبدو منطقياً فقط في غياب التفسير التاريخي لها كما سيتضح معنا في هذه الدراسة.

لسبب ما - سنتعرف عليه في ثنايا هذه الدراسة - وجِدت بعض نقاط التشابه بين نبوءات الإنجيليين الصهاينة وبعض نبوءات التراث الإسلامي في هذه المسألة. ولهذا وجَدت عقيدة هرمجدون قبولا عند بعض الإسلاميين المعاصرين. مع اختلاف في زاوية الرؤية وبعض التفاصيل بالطبع[2]. وإذا كانت أكثرية المسلمين السنة قد اكتفت بالحديث عن قرب ظهور الدجال والمهدي وعصر الملاحم الكبرى، فإن متعصبوا الشيعة قد ذهبوا خطوة أخرى هي

الشبكة الإلكترونية اسم «شبكة الملاحم».

(١) المهدي والمهدوية: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، المقدمة.

(٢) أنظر على سبيل المثال كتاب: عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي لأمين محمد جمال الدين.

الإعداد العملي لظهور مهديهم الخاص. يبدأ هذا الإعداد بتشكيل جيوش خاصة تنتسب إلى المهدي[1]- صراحة أو ضمناً - وينتهي بإشعال الفوضى والحروب في جزيرة العرب والشرق الأوسط. وهي الفوضى التي يعتقد الشيعة أنها ستنتهي بإحدى الحسنين: إما ظهور مهديهم المنتظر، وإما هيمنة إيران وعصاباتها الطائفية على دول المنطقة. يساعدهم في ذلك تخبط بعض حكام الخليج العربي وانحراف أجندتهم السياسية. بالإضافة إلى التسهيلات التي تقدمها بعض الدول الغربية لإيران - بطرق مباشرة وغير مباشرة - لتحقيق أجندة خاصة لهذه الدول منها ضمان أمن إسرائيل، وضمان سيطرة هذه الدول على المنطقة عبر تقسيمها طائفياً وعرقياً.

وعودا على بدء فإن عقيدة المخلص المنتظر عند الأمم الثلاث هي عبارة عن بشارة بالحروب التي ستدفع ثمنها غالباً المجتمعات القريبة من مسرح العمليات (دول ومجتمعات شبه الجزيرة العربية). ويا لها من خسارة لو أن هذا الثمن سيدفع في سبيل أوهام لا أساس لها من وحي أو حقيقة[2]!.

إن خطورة هذه العقيدة على مجتمعاتنا العربية، وعلى السلام الدولي، تقتضي من الباحثين أن يقفوا أمامها وقفة فاحصة مدققة، لعلهم يهتدون إلى حقيقتها، أو يكشفون زيفها للناس إن كانت وهماً من الأوهام. وهو ما تحاول الإسهام به هذه الدراسة،

(١) جيش المهدي: هو تنظيم عراقي شيعي مسلح، أسسه مقتدى الصدر في أواخر عام ٢٠٠٣م.

(٢) أنظر على سبيل المثال الدراسة المهمة التي قدمها الكاتب الشيعي أحمد الكاتب بعنوان «تطور الفكر السياسي الشيعي» وقدم فيها أدلة قوية على زيف فكرة المهدي المنتظر لدى الطائفة الاثنى عشرية.

التي قد تمكن القارئ من وضع يده على أكبر عملية تزوير في التاريخ الديني، وتضع في يده مفتاحاً سرياً يفتح مغاليق الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. هذا المفتاح (الكود) سيقدم خدمة مزدوجة لأتباع الملتين الإسلامية والمسيحية معاً. لأنه من جهة سيمنح الكتاب المقدس مزيداً من المصداقية لدى المسلمين، ويفسر لهم معنى قول الله تعالى في القرآن الكريم: « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» (المائدة ٤٨). ومن جهة أخرى سيمنح المسيحيين مفتاحاً حقيقياً لفك مغاليق كتابهم المقدس الذي لا يخلو من الأصالة وكلام الوحي.

لقد صادق القرآن إجمالاً على ما ورد في التوراة والإنجيل كما صرحت آية المائدة السابقة. وكذب بعض المعطيات التي وردت فيهما في مثل قوله تعالى: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ». (البقرة ٧٩). وسكت عن تفاصيل أخرى وردت فيهما. ثم جعل نفسه مهيمناً على هذه الكتب، أي حاكما وقاضيا على ما فيها حتى لا ترد جملة أو تقبل جملة. وهذا يعني أن ما يسمى بكتب العهدين الجديد والقديم المنسوبة إلى أنبياء بني إسرائيل هي – من حيث المبدأ – كتب إسلامية وإن شابها التحريف. وما دامت كذلك فقد تمدنا بضوء كثير لبعض ما أبهم في القرآن الكريم نفسه، مما جاء في سياق الجدل مع أهل الكتاب وتاريخ الأنبياء. نعم الكتاب المقدس يمكن أن يكون نصا شارحاً للقرآن الكريم بمعنى من المعاني. والأمر الذي لم يستوعبه المسلمون بصورة واضحة هو أن القرآن قد دخل في جدل معرفي

واسع مع مضامين العهدين القديم والجديد. ووضع في يدي قارئه بعض مفاتيح أسرارهما. وهذا معنى من معاني قوله تعالى: «إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (النمل ٧٦). وهو - بالطبع - لا يقص عليهم ليخبرهم بما يعلمون، وإنما ليقدم الدليل على صحة مصدره، وليذكرهم ببعض ما نسوا، وليضع بين أيديهم ما يجهلون من أسرار هذا القصص والتعاليم أو ما حاول كهنتهم إخفاءه، قال تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ» (المائدة ١٥). ولا شك أن أخطر قضية اختلف فيها بنو إسرائيل (يهوداً ومسيحيين) طوال تاريخهم هي قضية المسيح الموعود (المنتظر).

ولعل من المناسب هنا أن أضع بين يدي القارئ مثالاً نموذجياً لحقيقة أن القرآن قد يحتاج للكتاب المقدس[1] في إضاءة بعض مبهماته، تماماً كما يحتاج الكتاب المقدس إلى أنوار القرآن في تصحيح ما تحرف منه وكشف ما أخفاه الكهنة والكتبة. وهو مثال استعرناه من كتاب «تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد»، لمؤلفه د. نصر عبد الرحمن أبو طالب[2]. فقد أورد المؤلف تفسيراً طريفاً ومقنعاً لقوله تعالى: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن

(١) عبارة الكتاب المقدس تطلق عند المسيحيين على العهدين القديم (أسفار التوراة وكتب الأنبياء والكتب التاريخية لليهود) والعهد الجديد (الأناجيل القانونية الأربعة وأعمال الرسل ورسائل بولس ورؤيا يوحنا)..

(٢) تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد: د. نصر الله أبو طالب، دار الذخائر للنشر والتوزيع، توزيع مؤسسة الريان ناشرون، الطبعة الرابعة ٢٠١٠، ص ٧١.

بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (الروم ١ - ٥). وهي من الآيات التي أشكلت على المفسرين المسلمين أنفسهم من قبل. إذ ما قيمة أن يذكر القرآن - في تلك الظروف - خبر هزيمة الروم من قبل الفرس؟! ولماذا سيفرح المؤمنون بنصر الروم الذي سيحدث في بضع سنين، مع أن المسلمين أنفسهم سيخوضون حرباً طويلة مع هؤلاء الرومان بعد ذلك بسنوات قليلة؟!.

ولم يخطر ببال أحد أن تكون الإجابة هناك، في سفر دانيال من أسفار العهد القديم!. فقد تضمن هذا السفر المنسوب إلى نبي الله دانيال، نبوءة عجيبة هي عبارة عن رؤيا للملك البابلي نبوخذ نصر، فسرها له النبي دانيال في قصة مثيرة[1]، تتحدث هذه النبوءة عن تعاقب أربع امبراطوريات في المنطقة، تبدأ بالامبراطورية البابلية نفسها. وتكون نهاية الامبراطورية الرابعة على يد الأمة الصالحة التي ستخلف الأمم المتكبرة. والمقصود بالأمة الصالحة هنا أمة المسيح المنتظر كما يفسرها أهل الكتاب أنفسهم. أي أن ظهور الامبراطورية الرابعة هو العلامة الحاسمة على اقتراب ظهور النبي الخاتم (المسيح الموعود) وأمته الصالحة التي يباركها الرب!.

ظل أهل الكتاب - وغيرهم من المهتمين - من حينها يترقبون مجيء الامبراطورية الرابعة والأخيرة في الشرق الوسط الكبير، التي تعد علامة واضحة على قرب ظهور المسيح المنتظر. ويبدو أن هذه النبوءة وتفسيرها قد شاعا في مجتمعات شبه الجزيرة العربية وما

(١) أحد أنبياء بني إسرائيل في السبي البابلي.

حولها في أواخر عصر الدولة الرومانية. وهذا النوع من النبوءات لا بد أن يشيع وينتشر. وهو ما دفع المتعطشين للحقيقة - أمثال سلمان الفارسي - للبحث عن موطن هذا المسيح المنتظر. وكانت أسفار العهد القديم قد ألمحت إلى مكان ظهوره ومكان هجرته. مثل تلك الإشارة التي وردت في سفر إشعيا تحت عنوان «وحي على بلاد العرب» وجاء فيها: «وحي على بلاد العرب: بيتوا في صحراء العرب، يا قوافل الدادانيين! هاتوا ماء للعطشان يا سكان تيماء! استقبلوا الهارب الجائع بالخبز. هم هاربون من أمام السيف المسلول والقوس المشدودة وويلات الحرب. وهذا ما قاله لي الرب: بعد سنة بلا زيادة ولا نقصان يفنى كل مجد قيدار ولا يبقى من أصحاب القسي من جبابرة بني قيدار غير القليل». (اش ٢١ : ١٣ - ١٧)[1].

فظاهر هذا النص يبدو وكأنه يتحدث عن هجرة النبي من مكة إلى المدينة هاربا من قريش، ثم عن انتصار المسلمين على المشركين بعد سنة واحدة في معركة يزول فيها مجد قريش. وعلى الرغم من الإشكالات التي يضعها بعض المفسرين المسيحيين على هذا التفسير إلا أن العلامات النصية الواردة فيه تجعله التفسير الأرجح، وتضع تفسيراتهم الأخرى في الزاوية الحرجة[2]. أعني بالعلامات النصية العبارات الآتية: وحي على بلاد العرب، قوافل الدانيين، سكان تيماء، بني قيدار. إذ من المعلوم أن تيماء منطقة تقع في وسط شبه الجزيرة العربية. وقيدار هو أحد أبناء إسماعيل. والدانيين

(١) الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان، ص ٩٣٤.
(٢) راجع حديث الباحث محمد التاعب عن الموضوع في صفحته على يوتيوب : «إشعياء ٢١ – وحي من جهة باد العرب – قناة الدعوة الإسامية .

كذلك من العرب القاطنين في شبه الجزيرة العربية. ووجود بعض الإشكالات على هذا التفسير لا تلغيه وإنما تفتح الباب لمزيد من النقاش حول حقيقته، لأن عبارات العهد القديم لم تحفظ بنصها كما هو حال القرآن. ومن المتوقع أن تتعرض مثل هذه النبوءات لبعض التحريفات المقصودة أو غير المقصودة.

لنأخذ على سبيل المثال عبارة «سكان تيماء» التي أثارت الإشكال الأكبر. ويحتج بها بعض الشراح المسيحيين في نفي مطابقة النص لحالة النبي محمد. إذ يقولون إن محمداً قد هاجر إلى يثرب لا إلى تيماء التي تبعد بحوالي ٤٢٠ كم إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة. وهو اعتراض معقول لولا أنه محاط باحتمالات فساده. إذ من المحتمل أن كتبة النص قد استبدلوا تيماء بيثرب لغرض التمويه على العامة وبقاء الحقيقة سراً عند الكهنة كما دلت القرائن وشهد الشهود في حالات أخرى شبيهة؟[1]!. ثم إذا سلمنا بأن النبوءة قد ذكرت تيماء بالفعل، فإن هذا لن يغير من الحقيقة شيئاً، بل إنه يعززها. إذا ما علمنا أن تيماء كانت إحدى المناطق التي سكنها بنو إسرائيل بعد السبي البابلي. وكان من أعلام هذه الجالية المشاهير بحيرى الراهب الذي ورد اسمه في سيرة النبي محمد بوصفه أول من تنبأ للنبي بالنبوة عندما التقاه طفلا مع عمه أبي طالب في رحلة تجارية إلى الشام. وقد شك الرواة هل كان بحيرى هذا

(١) منها شهادة الحبر اليهودي السموأل بن يحيى المغربي، الذي أسلم في القرن الثاني عشر للميلاد، وصنف كتاباً في الرد على اليهود بعنوان «بذل المجهود في إفحام اليهود» ذكر فيه أن الكتبة اليهود قد أخفوا اسم النبي محمد في أسفارهم المقدسة تحت عبارات مشفرة رقمياً وفق حساب الجمل. مثل عبارة «بماد ماد» التي يساوي مجموع حروفها بالجمل مجموع حروف «محمد»!.

حبراً يهودياً أم راهباً نصرانياً[1]. وهو شك مفهوم ومتوقع إذا ما فهمنا أن الرجل كان من اليهود الذين آمنوا بعيسى نبيا. وأتباع عيسى الأوائل لم يكونوا مسيحيين بالطبع، بل كانوا يهودا على ملة موسى (نصارى). فمن المتوقع إذن أن النص في إشعيا كان يخاطب بني إسرائيل الذين سكنوا تيماء لأمر غير مفهوم!. كان يوجههم لاستقبال رسالة الرسول الهارب من اضطهاد قريش، ويمنحهم العلامات الدالة عليه. ويبدو لي أن أجداد بحيرى الراهب قد نزحوا إلى تيماء إما من العراق أو من فلسطين تحت تأثير هذه النبوءة!.

ويبدو أن سلمان الفارسي قد قطع كل تلك الأميال من فارس إلى المدينة المنورة تحت تأثير هذه النبوءة وعلاماتها أيضاً، بعد أن لاحظ المترقبون آنذاك أن الامبراطورية الرابعة في حالة ضعف تنبئ بقرب زوالها؟. ومن المتوقع أيضا أن النبوءة المتعلقة بزوال الدولة الرابعة وظهور النبي الخاتم قد شاعت في أوساط قريش أيضا قبل البعثة النبوية بمدة بوصفها المدينة المعنية ببعثة الرسول الأخير!. ولعل المسلمين في مكة كانوا يستشهدون بهذه النبوءة المشتهرة على صدق النبي محمد. فلما تعرض الروم لهزيمة منكرة من قبل الفرس، انتكست آمال المسلمين، وربما فرح بذلك المشركون!. فإذا بالوحي يضع نفسه في موقف جريء قابل للتكذيب، عندما أطلق نبوءة انتصار الرومان في بضع سنين، ليعيد الآمال إلى أصحابها ويفرح المؤمنون بنصر الله لهم!. وسيجد القارئ تفصيل هذه النبوءة

(١) انظر: هامش سيرة ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (٢١٣هـ)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ج ١، ص ١٦٥.

في سطور لاحقة من هذه الدراسة. والتحدي الوحيد أمام هذا التفسير للآية هو غياب الدليل التاريخي على معرفة القرشيين بها قبل الإسلام. لكن ماذا لو كان هذا التفسير نفسه هو الدليل على غياب التاريخ الإسلامي نفسه؟!.

إذن فالسطور القادمة ستحاول تتبع المنابع الأولى لفكرة المخلص في الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. وتحاول الكشف عن العلاقة السرية بين مقولات المسيح المنتظر والنبي المنتظر والمهدي المنتظر!. وتضع القارئ - كما أسلفت - أمام أكبر عملية تحريف في التاريخ الديني. وهو جهد نحاول به استكمال جهود سابقة لباحثين كثر في هذا الميدان قدمت الأحجار اللازمة للبناء. لكن قبل ذلك من المناسب أن نجيب على سؤال قد يتردد في نفس القارئ يقول: إلى أي مدى يمكن الوثوق بالنبوءات في مجال العقيدة والدين؟. والحقيقة أن الجواب على هذا السؤال يحتاج لدراسة مستقلة عن فلسفة النبوءة في الخطاب الديني. ولا بأس من استباق ذلك باجتهاد أولي يقرب الصورة ويقترب من السور.

وخلاصة الأمر أن النبوءة تعد جزءا مهما من وظائف الأنبياء والرسالات السماوية. لأنها تدخل في مضمون التبشير والإنذار اللذين كلف بهما الأنبياء، قال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (البقرة

٢١٣). ولو لم يهتم الوحي بهذا البعد لترك فجوة فيه تحسب عليه. فللنبوءة وظائف مهمة من بينها اتصال سلسلة السند بين الأنبياء، بحيث لا يأتي دعيٌّ كذاب ويضع نفسه في فجوة من السلسلة النبوية ليخدع الناس، كما فعل بولس في المسيحية على سبيل المثال. لذلك فالرسول السابق يبشر بالرسول اللاحق، بالوصف حيناً وبالوصف والاسم حيناً آخر. وهذا ما يكشف عنه التحقيق في الكتب السماوية الموجودة بين أيدينا، بالرغم من تعرض بعضها للتزوير المتعمد، في جانب النبوءات على وجه الخصوص كما سنبين في هذه الدراسة.

كما أن النبوءة تمنح المؤمنين أملا مستقبلياً هم بأمس الحاجة إليه في الظروف القاسية التي قد يمرون بها، وما أكثر هذه الظروف في حياتهم. أخيراً فإن الكاتب لا يجد مفراً من الإيمان ببعض هذه النبوءات التي فرضت نفسها عليه بقوة قرائنها وتماسك منطقها، مثل تلك النبوءة التي ذكرت في سورة الإسراء بخصوص وعد الآخرة لبني إسرائيل. بتلك القراءة التأويلية التاريخية والرقمية المدهشة التي قدمها باحث فلسطيني معاصر عن زوال دولة إسرائيل في العام ٢٠٢٢م[1].

فما قصة المسيح المنتظر في الديانات الثلاث يا ترى؟ وما الملابسات التي أدت إلى تحريف النبوءة الأصلية لهذه العقيدة؟.

(١) أنظر كتاب : زوال إسرائيل عام ٢٠٢٢م: د. بسام نهاد جرار.

الفصل الأول

من هنا جاء المسيح!

ظهرت البذرة الأولى لفكرة المسيح الموعود على الأرجح في صحراء سيناء، قبل وفاة النبي موسى بمدة غير معلومة. هناك حيث انتهى فصل من حياة بني إسرائيل وبدأ فصل جديد، وقف موسى يبين لقومه معالم المستقبل الذي ينتظرهم[1]. وقف يحدثهم عن مصير المهمة التي أوكلت إليهم من قبل الله. مهمة حمل رسالة «التوحيد» في المنطقة، كما حملها من قبل أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (البقرة ١٣٣).

لم يكن في وسع بني إسرائيل آنذاك، استيعاب الفلسفة التي تقف وراء اختيار أجدادهم لهذه المهمة من دون الناس. وراء هذه العناية الإلهية التي رافقتهم منذ ظهور موسى. وكل ما يستطيع عقل بسيط كالعقل البدوي آنذاك أن يستوعبه هو أن شيئاً ما مميزاً في جيناتهم هو الذي جعلهم أهلاً لهذا الشرف، فلا بد أنهم عرق خاص بين الأعراق، له - بالضرورة - أقداره الخاصة. ولو

(١) الإصحاحات من ٢٩ إلى ٣١ في سفر التثنية تتحدث عن جمع موسى لبني إسرائيل في جبل حوريب بهدف إسماعهم وصية الرب لهم. وقد تضمنت الوصايا تذكيرا لهم بماضيهم وإخباراً لهم بمستقبلهم بالإضافة إلى فقرات الوعد والوعيد التي تضمنها. وهذه الإصحاحات تذكر بآيات سورة الإسراء في القرآن عن ما قضاه الله لهم في الكتاب من علوين وإفسادتين. ولعل نبوءة موسى عن المسيح الموعود في سفر التثنية قد جاءت في هذه الحادثة.

أن موسى كان أستاذاً في الفلسفة الحديثة لحدثهم عن الخصائص التاريخية والموضوعية التي جعلت نسل آزر الكلداني[1] محل اختيار الله لهذه المهمة. الخصائص التي كان من السهل أن تتوفر في شعب آخر سواهم لو أنه مر بالظروف نفسها والملابسات التي مروا بها. لأخبرهم - مثلاً - بأن حكمة الله قد اقتضت أن يصطفي من بين مناطق الجغرافيا منطقة محددة لبعث الأنبياء والرسل هي منطقة الشرق الأوسط،، لسبب يتعلق بخصوصية هذه المنطقة ووسطيتها. الوسطية الجغرافية والأخلاقية والحضارية. وأن يصطفي من أبناء هذه المنطقة أفضل من يمثل هذه الخصائص من الناحية الوظيفية: سلالة آزر الكلداني والد إبراهيم النبي وصانع الأصنام المعروف. وليس لأن سلالة إبراهيم ذات خصوصية جينية، كما تصور العقل البدوي الساذج، والضمير الشيطاني[2].

لم يكن غريبا أن يظهر جميع الرسل - وليس جميع الأنبياء - من منطقة الشرق الأوسط. بل الغريب حقاً أن لا يحدث ذلك!. إذا ما أخضعنا الأمر لمنطق العقل نفسه فإن منطقة الشرق الأوسط هي أكثر مناطق العالم القديم أهلية لبعث الرسل والرسالات السماوية، وذلك لسببين على الأقل: الأول لكونها موطن الحضارات الإنسانية الأولى، كما هو معلوم من التاريخ بالضرورة. والآخر لكونها واقعة في مركز العالم من الناحية الجغرافية. وهذه ليست مجرد معطيات تاريخية وجغرافية فحسب. إنها بالإضافة إلى ذلك معطيات ثقافية

(١) والد النبي إبراهيم الذي عاش في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ويقال إنه من أصول حرانية لا كلدانية.

(٢) ناقش الكاتب فلسفة الاصطفاء في القرآن، في كتاب آخر بعنوان «أوهام في طريق الإسلام»، يرجو أن يرى النور قريباً.

ونفسية وأخلاقية، رشحت هذه المنطقة وتلك القبيلة لحمل مهمة التبشير بالشرائع السماوية من مركز العالم إلى أطرافه. في عملية تشبه انبعاث شعاع النور من المركز إلى الأطراف. وقبل أن نذهب لشرح هذه الفرضية من المناسب أن نتوقف بالتفسير والتحليل قليلا عند العبارة الاحترازية التي وردت في بداية هذه الفقرة. أعني عبارة «جميع الرسل وليس جميع الأنبياء». فما الفرق بين الرسل والأنبياء يا ترى؟ ولماذا اختص الله الشرق الأوسط بالرسل كما نعتقد؟!.

يستشف مفسرو القرآن الكريم وجود فرق دلالي بين مفهومي النبي والرسول من قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (الحج ٥٢). حيث ميزت الآية بين الرسول والنبي بحرف الواو الدال على المغايرة. وقد ذهب جمع من المفسرين إلى القول بأن الفرق بين المفهومين كامن في جانب الشريعة لا في جانب العقيدة. إذ أن النبوة هي مقام تلقي الوحي بالعقيدة فقط، أما الرسولية فهي مقام تلقي الوحي بالعقيدة والشريعة. ومن ثم فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول. جاء في التحرير والتنوير لابن عاشور: «وعطف نبي على رسول دال على أن للنبي معنى غير معنى الرسول: فالرسول هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة. والنبي من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة. أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها، فالنبي أعم من الرسول، وهو التحقيق»[1].

(١) التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير

والحديث عن الشريعة هو حديث عن النظام الأخلاقي والشعائري والقانوني للدين. وهي مفاهيم ثلاثة لا يمكن الحديث عنها إلا في المجتمعات المترقية التي فارقت الطور البدائي من حياتها الاجتماعية. ومن المعلوم تاريخياً إن أقدم المجتمعات تحضراً هي تلك التي نشأت في منطقة الشرق الأوسط، على ضفاف الأنهار وبقربها. وبميزة الأقدمية والريادة هذه استحقت هذه المنطقة رتبة الأمومة بالنسبة لبقية المجتمعات القديمة. والأم هي المرجع ومركز الأسرة!. وإذا كانت النبوة عملا يمكن أن يقوم به أفراد في مختلف الأمم حسب قوله: وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر ٢٤)، فإن الرسالة لا تثمر إلا ضمن شروط بيئية وتاريخية وثقافية خاصة!.

ويبدو أن العلاقة بين المركز (الأم) ومقام «المرجعية» هي المقصودة في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» (القصص٥٩). إذ يفهم من الآية أن لكل تجمع ثقافي بشري مدينة مرجعية هي بمثابة «الأم» له، مثلما كانت مكة أُمّا للتجمع العربي في وسط الجزيرة العربية، وهو ما تشير إليه الآية في سورة الشورى: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧). وقياساً عليه يمكن القول إن الشرق الأوسط كان بمثابة الأم للتجمعات الحضارية القديمة، بوصفه مهد الحضارات.

الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ، ص ٣٣٨.

لكن ما الذي تعنيه عبارة «مهد الحضارات الأولى» بالنسبة لموضوعنا؟. إنها تعني أنه مصدر المعرفة والإلهام وبيت الخبرة الإنسانية. ففي هذه المنطقة عرف الإنسان كيف يقيم مجتمعاً زراعياً لأول مرة. وكيف ينشئ المدن، ويبني الهياكل العظيمة، وكيف يخترع الكتابة، وكيف ينحت الصخور بيوتا، وكيف يقول الشعر ويطور اللغة، ويعزف على الآلات الموسيقية، وكيف يقيم الدولة ويوطن القانون. فهل يناسب بعد هذا أن تنطلق الرسالات من مكان آخر غير هذه المحطة؟!. خاصة وأن الأمر لن يستمر أبد الدهر، فللرسالات حد زمني تنتهي عنده ليبدأ دور العقل الإنساني. وفكرة ختم النبوات في القرن السابع الميلادي بالنبي محمد هي بمثابة إعلان بأن منطقة الشرق الأوسط قد أدت ما عليها تجاه الإنسانية إلى تلك اللحظة![1].

أما العامل الآخر في ترشيح منطقة الشرق الأوسط لتكون مسرحا لعمليات الرب فيعود إلى كلمة «الأوسط» نفسها. إنها الوسطية الجغرافية التي ترجمت إلى وسطيات ثقافية وأخلاقية ونفسية، تؤهل الشخصية الشرق أوسطية أكثر من غيرها لحمل مسئولية التبشير بالرسالات السماوية. ولعل هذه الوسطية هي المقصودة في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة ١٤٣). وكان الأستاذ عباس العقاد قد تنبه لهذا المعنى وهو يحاول الإجابة عن الأسئلة الملحة الآتية: لم اختص الله الأمم السامية بالرسالات

(١) هذا يحيلنا بالطبع على فلسفة إسلامية عميقة حول الرؤية الديناميكية الكامنة في الظاهرة الدينية، لم تلق عناية كافية من الدارسين حتى الآن.

النبوية؟ لِمَ لم تظهر هذه الرسالات في الهند أو في الصين أو في القارة الأوروبية؟ لِمَ كانت هذه الرسالات هي الدور الذي تهيأت له أمة واحدة في وسط العالم: أمة وسطا كما نعتها القرآن؟»[1].

ودعنا نستبق كلام العقاد بالقول إن قبيلة آزر الكلداني (والد النبي إبراهيم وجد النبي لوط) كانت تحمل خصائص الشخصية الشرق أوسطية بصورة مثالية. لأنها اتصلت بمواطن الحضارة ومواطن البداوة معاً، عبر ترحالها الطويل من جنوب العراق إلى شمال تركيا ثم الشام وفلسطين ومصر ووسط الجزيرة العربية. ومن هذا الترحال - على الأرجح - اكتسبت لقب العبرانيين، أي العابرين الرحل. وما سيقال عن الشخصية الشرق أوسطية ينطبق على هذه القبيلة بصورة مثالية. بالإضافة إلى كونها تمثل امتداداً عرقياً لأبي الأنبياء نوح عليه السلام حسبما تؤكد الآية القرآنية: إ»نَّ اللهَّ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». (آل عمران ٣٣-٣٤). وهو بالطبع اصطفاء وظيفي - لا عرقي - لأداء مهمة زمنية مؤقتة تنتهي في القرن السابع الميلادي. ليبدأ بعدها اصطفاء آخر لأمم أخرى تبعث العقل والعلم والحضارة الحديثة!. فما الذي قاله الأستاذ العقاد في هذا الموضوع؟.

أخذ العقاد يجيب على هذا السؤال في سطور عدة نثبت بعضها هنا لأهميتها، بدأها بالقول: «تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها، حتى ننظر في الأحوال النفسية التي يكون عليها الإنسان

(١) إبراهيم أبو الأنبياء: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٣١.

بين الحضارة والبداوة، ولا تهيئة لهذه الحضارة على انفراد، ولا البداوة على انفراد، بل لا بد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين، ولم يحدث قط أنهما التقيا وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليها الحضارات الأولى، وظلت زمناً طويلاً جامعة بين الصحراء والمدنية والأقطار المتحضرة، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة، ثم نهضت بها ونشرتها في جميع أنحاء العالم، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التي توزعتها الأمم والعصور»[1].

ثم يربط العقاد بين الوسطية والاشتغال في التجارة بسؤال أكثر تحديداً هو: لماذا كانت مدن القوافل[2] أو المدن القريبة من الصحراء، أصلح البلاد للرسالة النبوية؟» ويقدم بين يدي الإجابة المفصلة إجابة مختصرة تقول: «إنها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التي تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ولا تتوافر في الصحراء المنعزلة، ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة في بيئة أخرى كما تتم في المدينة حولها الصحراء»[3].

ويفصل العقاد رأيه هذا في سطور طويلة مفادها أن البلدان التي اتصلت حضارتها (لم تنقطع) تعطينا المشرعين والكهان ولا تعطينا الأنبياء والرسل. ذلك أن سريان العرف، وترقي العادات الاجتماعية، واستقرار نظام القانون والمعاملة، تؤهل أهل هذه البلدان لاستيعاب العقائد بصورة أفضل، وفي مقدمتها عقيدة التوحيد التي من المتوقع

(١) المرجع السابق: ص ١٣٢

(٢) ذكر بعض الدارسين أن العقلانية الإسلامية ممثلة بفرقة المعتزلة قد ظهرت أيضاً في مدن واقعة على خطوط التجارة (أنظر كتاب: التراث في ضوء العقل، للدكتور محمد عمارة).

(٣) ابراهيم أبو الأنبياء: ص ١٣٢.

أن تكون هذه الحضارات قد عرفتها منذ أن كانت في طور البداوة، إلا أن الدين في هذه المجتمعات يؤول إلى سلطة الكهنة. إذ أن سلطة الكهنة - والكلام للكاتب - يكون راسخاً فيه أكثر من سلطان الملوك أنفسهم في كثير من الأحيان. وتجربة أخناتون مثال نموذجي لهذه الحقيقة، فقد أراد هذا الملك المصري أن يفرض عقيدة التوحيد التي آمن بها على الناس بالقوة، وأن يجعلها دين الدولة الرسمي، وكانت النتيجة فشلاً ذريعاً، دفع ثمنه المؤمنون بالتوحيد في مصر لسنين طويلة من بعده كما نعتقد[1]. لقد وقف في وجه كهنة آمون بسيف الدولة فوقف له الكهنة بسيف الشعب.. والشعب غالب لا محالة في مثل هذه المواجهات!. فليس من السهل على الأنبياء مواجهة سلطان الكهنة في البلاد المتقدمة - ومثلهم الفلاسفة - بخبراتهم العريقة في توجيه العوام، والتشويش على الحقيقة، وإثارة الشغب، وحماية مصالحهم من تهديد المتطفلين!. ولك أن تتخيل نبياً وقد بعث في اليونان في عصر السفسطائيين مثلاً، كيف سيكون حاله؟!. إنه بالتأكيد سيقضي معظم الوقت، لا في التبشير برسالته، وإنما في الإجابة عن الأسئلة والمعضلات الفلسفية المطروحة عليه!. وحتى لو أجاد الطريقة الفلسفية في الجدل فإنه سيقضي معظم وقته في محاولة لإزاحة ركام الشبهات الذي غطى على الحقيقة البسيطة تحته. وتلك كلفة كبيرة وجدوى محدودة!.

(١) نعتقد أن ديانة التوحيد كانت قد تجددت في مصر على يد النبي يوسف وإخوانه الذين دخلوا مصر في فترة حكم الهكسوس الساميين لمصر. ويبدو أنها سادت آنذاك بين الهكسوس واعتنقها الكثير من المصريين. كما يبدو أن هذه العقيدة قد تلقت ضربة قوية بعد هزيمة الهكسوس وانسحابهم رسمياً من مصر، فبقي أتباعها يعتنقونها سراً إلى أن جاء أخناتون وأراد فرضها علناً بالقوة.

والتاريخ يضرب لنا الأمثال في كيفية تأثير الثقافة المركبة للمجتمعات المتحضرة على عقيدة التوحيد البسيطة. من أوضحها لدينا نحن المسلمين ما حدث للإسلام نفسه بعد دخوله العراق، بلد الحضارات العريقة، والأديان العديدة، والأساطير الدينية العتيدة. فقد خرج الإسلام من جزيرة العرب ديناً واضحاً بسيطاً كوضوح الشمس وبساطة الصحراء، وعاد من العراق عقيدة مشوشة، مخترقة من عناصر أسطورية ووثنية وخرافية وإسرائيلية، تجسد معظمها في مذاهب الشيعة الإمامية كما هو ظاهر من النظرة الأولى لهذه المذاهب.

ذلك بالنسبة للمجتمعات المتحضرة فماذا عن المجتمعات البدائية (يسميها العقاد بدوية)؟.

تبدو المجتمعات البدائية القاطنة في مجاهل الغابات والصحارى، المنقطعة عن التواصل الحضاري والثقافي، فاقدة للحد الضروري من الكفاءة الذهنية والنفسية والمادية للقيام بدور الشهادة على الناس. فالأعرابي الجهول النزق الباحث عن ما يسد رمقه، المتصف باللؤم والانتهازية، ليس مهيئاً ولا جديراً بالقيام بمثل هذا الدور العظيم. ولعل هذا معنى الآية: «اَلأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» (التوبة ٩٧). ومثل هذا الأعرابي - بل أبعد منه - ذلك الإنسان البدائي في الغابة حيث تعيش الخرافة في أدنى أشكالها البدائية.

وهذا لا يعني - بالطبع - أن هذه الأمم عاجزة تماماً عن استيعاب فكرة الدين والتوحيد، أو أنها ظلت طوال الوقت منقطعة

عن الاتصال بالسماء، كما توحي بذلك الدراسات الأنثروبولوجية القديمة، على شاكلة «الغصن الذهبي» لـ جيمس فريزر[1]. وإنما نعني أنها غير مؤهلة للقيام بدور الوسيط الناجح في نشر الرسالة ذات الطابع الحضاري القانوني والثقافي الأكثر رقياً وتركيباً، وهو ما يسميه القرآن بـ «الشهادة على الناس» في قوله: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة ١٤٣).

إذن فقد كان موسى يدرك - بخبر الوحي على الأرجح - أن لدى السيكولوجيا الإسرائيلية قابلية عالية للوقوع في فخ التفسير العنصري للمسألة. وليس مستبعداً أن يأتي اليوم الذي يقول فيه الإسرائيليون لأنفسهم ولغيرهم من الأميين «نحن شعب الله المختار، نحن أبناء الله وأحباؤه»!. وقطعاً لدابر هذا المصير المحتمل ألقى عليهم موسى منذ البداية النبأ الذي سيؤرقهم ويعكر حياتهم لبقية الدهر!. النبأ الذي سيكون سبب اجتثاثهم من الأرض المقدسة وتدمير هيكلهم الثالث والأخير على يد الرومان بعد فشل ثورة زعموا أن قائدها هو المسيح الموعود!.

لقد أخبرهم موسى بأن الله سينزع عنهم شرف الاختصاص بحمل الشريعة السماوية الخاتمة ويعطيه لقوم آخرين وصفهم سفر التثنية بأنهم «قوم جهلاء» (تث: ٣٢: ٢١) وأن الله سيبعث من بين هؤلاء الجهلاء (الأميين، الجاهليين) نبياً شبيهاً بموسى يكون «حجر

(١) أنظر نقد هذه المرحلة من الدراسات الانثربولوجية في كتاب : الأناسة المجتمعية، ديانة البدائيين في نظريات الأناسين: إ . إيفنز ، ريتشارد، ترجمة: حسن قبيسي.

الزاوية» في بناء النبوة، أي خاتم الأنبياء والمرسلين!. وهي النبوءة التي ما زالت بقاياها حاضرة في العهد القديم حتى الآن، لم يتمكن الأحبار والكتبة من إخفائها تماماً لأنها كانت مشتهرة بينهم إلى حد يصعب معه نسيانها أو إخفاؤها. فقد جاء في سفر التثنية على لسان الله مخاطبا موسى: «سأقيم لهم نبياً من بين أخوتهم مثلك، وألقي كلامي في فمه، فينقل إليهم جميع ما أكلمه به. وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه». (تث: ١٨ : ١٨ - ١٩).

تقول النبوءة إن الله سيبعث في المستقبل نبياً شبيهاً بموسى من أخوة بني إسرائيل، أي من بني إسماعيل. ويطلب من بني إسرائيل أن يسمعوا له ويسلموا برسالته، وإلا فإن الله سيحاسبهم على كفرهم به!. ثم أعطاهم علامة تميزه هي أنه سيتلقى الوحي ويبلغه شفاهاً بلفظه كما تلقاه (ألقي كلامي في فمه) لا بوساطة ألواح مكتوبة كما هو حال موسى، ولا عبر معاني يوحيها الروح القدس للنبي ويعبر عنها هذا الأخير بكلامه ولفظه كما هو حال المسيح عيسى مثلا.

منذ تلك اللحظة دخل بنو إسرائيل في حالة انتظار وترقب لمجيء النبي الخاتم شبيه موسى، أو «موسى الثاني» كما اصطلحوا على تسميته. واليهود معترفون بأنه لم يقم نبي في بني إسرائيل يشبه موسى حتى اليوم. ولهذا فإنهم ما زالوا ينتظرون مجيء هذا المسيح الموعود. ويعتقد صهاينتهم أن عودة اليهود من الشتات إلى فلسطين هي إحدى شروط ظهوره في المستقبل. أما المسيحيون البروتستانت فيعتقدون أن هذه النبوءة تشير إلى عيسى بن مريم. ونظراً لأن مواصفات عيسى لم تكن مطابقة لمواصفات موسى في نزوله السابق

فقد اخترعوا فكرة مجيئه الثاني إلى الأرض في آخر الزمان ليقيم مملكته الأبدية!. والذي يعنينا في الموضوع هو أن الطائفتين اليهودية والمسيحية قد سلمتا بأمور ثلاثة في نبوءة موسى السابقة: الأول أنها تشير إلى المسيح الموعود (النبي الخاتم)، والثاني أن هذا الخاتم سيكون شبيهاً لموسى، والثالث أنه لم يظهر في بني إسرائيل نبي كموسى حتى اليوم.. وهذا هو القدر الذي يمكن أن نبني عليه مقولتنا الإسلامية الخاصة في موضوع المسيح!.

إن عبقرية هذه النبوءة تكمن في عبارة «مثلك» لأنها تختزن الصفات التي من العسير أن تتكرر في شخصية عابرة، غير مختارة من قبل الله. كما أنها لا تُغري الكتبة اليهود بتحريفها ما دامت لا تنص على اسم معيّن قد لا يروقهم!. إنها فقط تشير إلى أوصاف من المحتمل عندهم أن تتوفر في أي نبي من أنبيائهم، وما أكثر الأنبياء فيهم!. وإذا كان من العسير إقناع اليهود بأن هذه النبوءة تشير إلى محمد بن عبد الله، وأنه هو موسى الثاني المنتظر، فإن بالإمكان أن نصل مع الأخوة المسيحيين إلى كلمة سواء في الموضوع من خلال امتحان مقولاتنا التفسيرية بعرضها على السؤال الآتي: ما الصفات المشتركة بين محمد وموسى، في مقابل الصفات المشتركة بين عيسى وموسى؟!. وإلى أي مدى يمكن أن تكون الحجة كافية؟!

يقدم المناظر الشهير الأستاذ أحمد ديدات الإجابة على هذا السؤال في ثمان نقاط[1] ذكية نلخصها ونضيف عليها على النحو الآتي:

(١) انظر كتاب: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟: أحمد ديدات، ـ إبراهيم خليل أحمد، تقديم عوض الله جاد حجازي، دار المنار، بدون بيانات الطبع، ص ٢٢-٣٣.

كان لموسى والدان وكذلك محمد. أما عيسى فليس له أب بشري. ومن ثم فعيسى لا يشابه موسى.

ولد موسى ومحمد ولادة طبيعية، بعد اقتران طبيعي بين أبويهما، أما عيسى فقد خلق بالقدرة الإلهية، عبر نفخ الروح القدس في فرج مريم. ومن ثم فعيسى لا يشابه موسى.

موسى ومحمد تزوجا وأنجبا أطفالاً، أما عيسى فلم يتزوج ولم ينجب. ومن ثم فهو لا يشابه موسى.

موسى ومحمد حصلا في نهاية الأمر على اعتراف قومهما بنبوتهما على الرغم من المتاعب التي واجهتهما في البداية. أما عيسى فلم ينل اعتراف قومه باستثناء أقلية منهم. ومن ثم فعيسى لا يشابه موسى.

موسى ومحمد كانا رسولين[1] مثلما كانا زعيمين سياسيين. والمقصود بالرسول ذلك الشخص الذي يوحى إليه برسالة إلهية ذات مكونين عقائدي وقانوني. والمقصود بالزعامة السلطة السياسية على أمته. أما عيسى فلم يكن زعيما سياسيا. وقالها أمام بيلاطس بصريح العبارة «مملكتي ليست من هذا العالم». ومن ثم فعيسى لا يشبه موسى.

موسى ومحمد أتيا بشريعة جديدة، وأحكام جديدة لأمتيهما، أما عيسى فقد كان يناضل للقول بأنه لم يأت بشريعة جديدة: «لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء، ما جئت لأبطل بل لأكمل» (مت ٥ : ١٧). ومن ثم فعيسى لا يشابه موسى.

(١) استعمل ديدات كلمة «نبي»، لكننا نميز في هذه الدراسة بين مفهومي النبي والرسول، وفهمه لكلمة نبي يطابق فهمنا لكلمة رسول.

رحل كل من موسى ومحمد عن الحياة بطريقة طبيعية، ودفنا تحت التراب. في حين يعتقد المسيحيون أن عيسى قد مات على الصليب وتعذب. ومن ثم فعيسى لا يشبه موسى.

يرقد كل من موسى ومحمد تحت التراب كغيرهم من البشر، في حين يعتقد المسيحيون أن عيسى موجود في السماء جالس على يمين الرب. ومن ثم فإن عيسى لا يشابه موسى، بل محمد!.

ويمكننا أن نضيف إلى النقاط الماضية نقاطاً أخرى في أوجه الشبه بين محمد وموسى. كالقول بأن كليهما قد اشتغل برعي الأغنام، في حين لم يخض عيسى هذه التجربة. وأنهما - وهو الأدل - قد خاضا تجربة الهجرة بأتباعهما من مكان إلى آخر، هرباً من الاضطهاد، وأسس كل منهما مجتمعاً جديداً في حياته. وتجربة الهجرة مع تأسيس المجتمع الجديد وفق شريعة سماوية جديدة هي أبرز السمات المشتركة بين محمد وموسى وأكثرها دلالة على أنه شبيه موسى المقصود في النبوءة. ثم إن عيسى حسب العقيدة المسيحية إنما هو تجسيد بشري للإله السماوي، وهذه نقطة اختلاف جوهرية تجعل موضوع المقارنة غير مقبول من حيث المبدأ!.

وقد ظلت نبوءة موسى عن شبيهه القادم على حالها، لم يمسسها تحريف إلى عهد النبي سليمان على الأقل (أكثر من مائتي عام). لأن توراة موسى كانت محفوظة طوال هذه الفترة. فقد كان بنو إسرائيل خلال هذه الفترة في حالة علو مستمر لا يحتاجون معه إلى تحريف كتابهم المقدس، ولا يقدرون عليه لو أرادوا، لأن المسافة الزمنية التي تفصلهم عن جيل موسى لم تكن كافية لضياع الشريعة

والتلاعب بالحقائق والنبوءات المشتهرة بينهم. أما بعد وفاة سليمان فقد انقسمت الدولة الإسرائيلية الموحدة، وتغيرت أحوال بني إسرائيل كثيراً، وتوفرت الشروط الكافية لتحريف الرسالة الموسوية برمتها على مدى مئات السنين قبل السبي البابلي.

لقد حدثت بعد وفاة سليمان - وقبل ذلك أيضاً - ردة متنامية عن عقيدة التوحيد في المجتمع الإسرائيلي إلى عقائد وثنية[1]. وتنكر كثير منهم لوصايا موسى وتعاليم الأنبياء بعده، وتداعت الانحرافات تباعاً على كافة المستويات. وانتهى الأمر بكارثتين كبيرتين وقعتا لهم، تمثلت أولاهما بتدمير المملكة الشمالية (إسرائيل) وتشريد سكانها على يد الآشوريين. وتمثلت الأخرى بتدمير المملكة الجنوبية (يهوذا) بعد ذلك بسنين على يد البابليين، وتدمير هيكل سليمان، ووقوعهم في الأسر البابلي حوالي العام ٥٨٧ ق م. وما زالت المصائب تتوالى عليهم من ذلك الوقت حتى عصرنا هذا. مع بعض الاستثناءات المحدودة في بعض الحقب التاريخية.

منذ وفاة سليمان إلى كارثة الأسر البابلي مرت قرابة ثلاثمائة وأربعة وأربعون سنة، كانت كفيلة بضياع الكثير من الحقائق

(١) يقول د. محمد علي البار: إن «بني إسرائيل قد ارتدوا في عهد القضاة - قبل سليمان - سبع مرات، وفي عهد الملكية ارتدوا عشرات المرات» (انظر: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم: د. محمد علي البار، ص ٧). وكما أن التوراة تؤكد حوث موجة ردة بعد وفاة سليمان وانقسام الدولة، جاء في سفر الملوك ٢: «وقد حدث كل هذا لأن بني إسرائيل أخطأوا في حق الله الذي أخرجهم من مصر، من تحت سلطة فرعون ملك مصر، وعبدوا آلهة أخرى [...] وبنوا لأنفسهم معابد لآلهة غريبة في كل مدنهم، من برج المراقبة إلى المدينة المحصنة، وأقاموا لأنفسهم أنصاباً وأعمدة يعبدونها، على كل تل مرتفع وفي ظل كل شجرة كبيرة». (ملوك ٢: ١٧ : ٧ - ١٢). وأنظر أيضاً (ملوك ١ : ٢٨ : ٣٣).

الدينية والتشويش على أخرى. وخلال هذه الفترة أيضاً ترسخت مؤسسة الكهانة المرتبطة بالهيكل. وهي المؤسسة التي أثبت تاريخ الديانات أنها العدو الرسمي للأنبياء بلا منازع. وأنها المتهم الأول والأخير بتحريف الكتب المقدسة، بدوافع دنيوية رخيصة. وهو ما أشار إليه القرآن حين تحدث عن الكتبة اليهود الذين حرفوا التوراة ابتغاء منافع دنيوية خالصة: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ» (البقرة ٧٩). بل إن الكتاب المقدس نفسه بعهديه القديم والجديد يتهم - في أكثر من موضع - الكتبة والأحبار بتحريف الشريعة على لسان الأنبياء أنفسهم[1]. جاء في سفر النبي إرميا مخاطباً كهنة الشريعة قوله: «كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الرب معنا؟ أما ترون أن قلم الكتبة الكاذب حولها إلى الكذب. خزي الحكماء وخابوا وانخدعوا. فهاهم نبذوا كلام الرب». (إر ٨ : ٨). وهذا كلام مطابق لقول الله في القرآن: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (البقرة ٧٩). بل إن إرميا يتهم شعب إسرائيل جملة بالكذب في عبارة أدبية بليغة، قال: «هم جميعاً من الخونة، وزمرة من الماكرين. ألسنتهم قسي للكذب». (إر ٩: ١).

بعد عودة بعض اليهود من الأسر البابلي على إثر القرارات

(١) وردت اعترافات العهد القديم بوقوع التحريف فيه على لسان أنبيائه في كل من: أرميا ٢٣ : ٣٦، أرميا ٨ : ٨، أرميا ٣٦ : ٣٢، مزمور ٦٥ : ٤ ‖ ٥، رسالة بطرس الثانية ٣ : ١٦، أشعيا : ٢٩ :١٦.

التاريخية التي أصدرها الملك الفارسي العادل كورش[1]، وجد الأحبار أنفسهم أمام معضلة كبيرة، تمثلت في فقدان التوراة وأسفار الأنبياء، التي بقيت عبارة عن محفوظات شفهية في ذاكرة بعضهم. مع احتمال وجود بعض المخطوطات التي حملوها معهم من إرشيف الديوان الملكي وإرشيف الهيكل عند مغادرتهم القدس. إلا أن اعتمادهم كان على المحفوظات الشفوية. وقد ظل الكتاب المقدس ينتقل في طور الرواية الشفهية قرابة ثمانية قرون حسب تقدير النقاد والدارسين[2]. وهذا وضع خطير قد يتسبب في ضياع بني إسرائيل، وضياع مصالح الكهنة والأحبار في المقام الأول. عندها قرر الحبر الكبير عيزرا (يسميه القرآن عزير) البدء في تدوين الكتاب المقدس من مصادره الشفوية. وربما بعض المصادر الكتابية المحتملة أيضاً. الذاكرة التي حفظت ما حفظت ونسيت ما نسيت، واختلط بها ما اختلط من عناصر الثقافات البابلية والكنعانية والفارسية. إلا أن العهد القديم لم يأخذ صورته النهائية المعروفة إلا بعد عيزرا بزمن طويل كما يقول المحققون[3]. ومن المؤكد أنه خلال هذه الفترة الطويلة المضطربة من قبل الأسر البابلي إلى نهاية عصر التدوين، قد وقعت تحريفات الأحبار للكتاب المقدس ونبوءاته. وعلى رأس تلك النبوءات بالطبع نبوءة «المسيح الموعود»، شبيه موسى، حجر

(١) يرجح البعض - مثل العلامة الهندي أبو الكلام آزاد - أن يكون سايروس (كورش) هو نفسه ذو القرنين الوارد ذكره في سورة الكهف بالقرآن الكريم (أنظر: أبو الكلام آزاد: ترجمان القرآن).

(٢) انظر كتاب: تاريخ نقد العهد القديم: زالمان شازار، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠، ص ٣.

(٣) أنظر مثلا: كتاب التوراة، دراسة وتحليل: د. محمد شلبي شتيوي، و كتاب «اللاهوت والسياسة» لـ سبينوزا، ترجمة حسن حنفي.

الزاويـة.

والمسـيح أو «المسـيا» كلمـة عبريـة تعنـي «المصطفـى» المختـار مـن قبـل الله. والراجـح أن أول اسـتعمال لهـذه الكلمـة عندهـم كان مـع الملـك طالـوت حسـب التاريـخ التـوراتي. فهـو أول مـن حمـل هـذا الوصـف في التاريـخ الإسرائيـلي. والقـرآن يؤكـد هـذا الوصـف بطريقتـه الخاصـة حينـما قـال عـلى لسـان النبـي صموئيـل مخاطبـا بنـي إسرائيـل: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُـمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِي الْعِلْـمِ وَالْجِسْـمِ»، (البقـرة: ٢٤٧). ويبـدو أن هـذه البدايـة قـد طبعـت الكلمـة بدلالـة خاصـة هـي دلالـة الزعيـم السـياسي، الملـك، الـذي يختـاره الله. وسـتضاف هـذه الدلالـة لاحقـاً إلى كلمـة مسـيح بصـورة ثابتـة، حتـى عنـد الحديـث عـن المسـيح المنتظـر شـبيه موسـى. إذ لم يعـد كافيـا عندهـم أن يكـون المسـيح نبيـاً، بـل لا بـد أن يكـون مـع ذلـك - وأهـم مـن ذلـك - زعيـماً سياسـياً، يخلـص بنـي إسرائيـل مـن محنتهـم!.

بعـد كل المتاعـب والآلام والهزائـم التـي تلقاهـا بنـو إسرائيـل خـلال هـذه المئـات مـن السـنين كانـوا بحاجـة ماسـة إلى ترميـم نفسـي واسـع. وليـس هنـاك مـا هـو أفضـل مـن أن يقـال لهـم «أنتـم شـعب الله المختـار، أنتـم أبنـاء الله وأحبـاؤه» كـما يفعـل الخطـاب السـياسي المتطـرف في أوقـات الهزائـم والضعـف. ولا شـك أن صوتـاً كهـذا سـيجد لـه أذنـاً صاغيـة، وقلبـاً متعطشـاً كالإسـفنجة لأي مقولـة ترمـم النفـس الآيلـة للسـقوط. إلا أن مـشروع الترميـم هـذا لـن يحقـق غرضـه مـا دامـت بعـض النبـوءات في الكتـاب المقـدس تهـدده. النبـوءات التـي تقـول لهـم: أنتـم أيهـا المنكوبـون شـعب عـادي بـين الشـعوب، ومـيراث النبـوة

الـذي أعطاكـم الأفضليـة عـلى غيركـم مـن الأمـم سـينزع منكـم ويعطـى لأمـة أخـرى تعطـي ثمـره[1]. فـما كان مـن الكهنـة إلا أن عملـوا عـلى تحريـف هـذه النبـوءات تحريفـاً يسـيراً يـصرف دلالتهـا الحقيقيـة إلى بنـي إسرائيـل. والأمـر لا يحتـاج إلى جهـد كبـير بالطبـع، إذ بإمكانـك أن تـدس كلمـة أو كلمتـين عـلى العبـارة المـراد تحريفهـا لتغـير معناهـا ١٨٠ درجـة. هـذا إذا لم يكـن في وسـعك إسـقاطها مـن الذاكـرة الجمعيـة تمامـاً. ثـم بإمكانـك أن توطـد هـذا التحريـف بإدخـال اشـتراطات جديـدة في فهـم هـذه النبـوءة، تقحمهـا في هـذا السـطر أو ذاك مـن سـطور الكتـاب المقـدس، الـذي تحتكـر قراطيسـه، ولا تتلـوه عـلى مسـامع النـاس إلا كل سـبع سـنوات حسـب المكتـوب في التـوراة!. وهـذا تحديـداً مـا حـدث مـع نبـوءة المسـيح المنتظـر!. إلا أن عمليـات التحريـف - بطبيعتهـا - لا بـد أن تخلـف وراءهـا علامـات تـدل عليهـا، كـما يخلـف اللـص بصماتـه في مـكان الجريمـة، كـما سـيتضح معنـا في التحليـل الآتي:

بالعـودة إلى العبـارة السـابقة المقتبسـة مـن سـفر التثنيـة يتضـح أن أهـم مـا جـاء فيهـا عبارتـان همـا «مـن بنـي أخوتكـم» و«مثـلي». هاتـان العبارتـان صريحتـان في أن المقصـود نبـي مـن غـير بنـي إسرائيـل (مـن أخوتكـم)، وهـذه عبـارة تنـصرف في كتابهـم المقـدس عـادة إلى بنـي إسـماعيل. وأنـه يـأتي بمواصفـات موسـى (مثلـك)، وهـذه الأخـيرة هـي أخطـر وأهـم مـا في النـص. لأن أتبـاع اليهوديـة مجمعـون عـلى أنـه لم يظهـر حتـى الآن في بنـي إسرائيـل نبـي بمواصفـات موسـى. وهـو مـا

(١) بعـد أن ضرب المسـيح عيسـى لأصحابـه مثـل المزارعـين القتلـة الـذي يرمـز إلى بنـي إسرائيـل قتلـة الأنبيـاء قـال لهـم: «لذلـك أقـول لكـم: إن ملكـوت الله سـينزع مـن أيديكـم ويسـلم إلى شـعب يـؤدي ثمـره». (مـت: ٢١: ٤٤).

جعلهم في حالة انتظار له إلى يومنا هذا. وأما الطوائف المسيحية فهي في وضع أكثر حرجاً، لأنها من ناحية تعتقد أن عيسى هو المسيح الموعود المشار إليه في هذه النبوءة، لكنها من ناحية ثانية تدرك صعوبة تحقق شرط التماثل هذا، فعيسى أبعد الأنبياء شبهاً بموسى في شخصيته وسيرته. فاضطر بعضهم للتكلف في استقصاء نقاط التشابه بينهما في السيرة، استناداً إلى سيرة عيسى كما رواها كتاب الإناجيل المتهمون عند النقاد بتزوير سيرته لتتوافق مع نبوءات العهد القديم عن المسيح الموعود!. وهو ما أوقعهم في تناقضات صارخة سنعرض بعضها في سطور قادمة. في حين لجأ البعض الآخر إلى الحيلة اليهودية ورحل المشكلة إلى المستقبل قائلاً: إن هذا الشرط سيتحقق عندما يأتي في المجيء الثاني ليقيم دولة الألف عام!. اعترافاً منهم بأن عيسى في نزوله الأول لم يكن شبيها بموسى. ومن الواضح أن فكرة المجيء الثاني للمسيح عيسى إلى الدنيا قد جاءت لسد هذه الثغرة الكبيرة!.

ولحل هذه المعضلة اليهودية أدخل الأحبار بعض الكلمات الضرورية لتحريف النص، فجاء العدد ١٥ من الإصحاح نفسه بالعبارة الآتية: «يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم، من أخوتكم بني قومكم، مثلي» (تث: ١٨ : ١٥). لقد أدخلوا عبارتين فقط (من بينكم، بني قومكم) على بداية النبوءة، لتوجيه النص، وتركوا بقيتها كما هي!. إلا أنهم لسوء حظهم نسوا - أو عجزوا عن - حذف كلمة «مثلي» التي ستسبب لهم مشاكل جمة فيما بعد. وغالب الظن أنهم كانوا عاجزين عن إسقاطها لاشتهارها في الأوساط الإسرائيلية. أو لأنهم يرغبون في توظيفها عندما تأتيهم

الأقدار بشخصية إسرائيلية تشبه موسى كما فعلوا مع «بار كوسبا» سنة ١٣٥م[١].

لكنهم بالطبع لم يتركوا الكلمة وشأنها تفعل فعلها وتهدد كيانهم العنصري، فقد احتاطوا لذلك بإضافة شرط في سياق آخر يقول إن المسيح المخلص سيكون من نسل يهوذا، وتحديداً من نسل النبي داود. إذ ورد في سفر التكوين الإصحاح ٤٩ الفقرة ١٠ ما نصه: «من يهوذا يكون الملوك، من يهوذا يكون الحكام، حتى يأتي من له الحق في العرش فتطيعه الأمم»[٢]. وهي العبارة نفسها التي تسربت فيما بعد إلى التراث الإسلامي بصيغة أخرى تقول: «الأئمة من قريش»[٣]. وذلك هو التحريف الذي سيكشفه المسيح عيسى لاحقاً في مناظرته الشهيرة مع الفريسين[٤].

لكن يبدو أن أحبار يهوذا لن ينالوا غرضهم بإغلاق الملف دون دليل ملموس على تحريفهم لهذه النبوءة، فالدليل موجود هناك في النسخة السامرية من التوراة، حيث بقي نص العبارة كما هو دون تبديل؛ فجاءت العبارة بهذه الصيغة: «ولا يقوم أيضا نبي في

(١) سمعون باركوسبا (ابن الكوكب) يهودي قاد ثورة ضد الرومان في فلسطين سنة ١٣٢م، في محاولة لتأسيس دولة يهودية مستقلة. وتمكن من تأسيس دولة دامت ثلاث سنوات فقط قبل أن يدمرها الرومان ويلقى مصرعه على أيديهم. وكان أحبار اليهود قد احتفوا به في بداية ظهوره وأوهموا الناس أنه المسيح المخلص، قبل أن يلقى مصرعه ويلقبه اليهود ب «ابن الكذب» بدلاً من «ابن الكوكب»!.

(٢) الكتاب الشريف.

(٣) حديث «الأئمة من قريش» ورد في بعض مدونات الحديث الإسلامية مثل مسند أحمد، وصححه بعضهم، وزعم النووي في شرحه لصحيح مسلم أن إجماع الصحابة قد انعقد على كون الإمامة السياسية في قريش دون منازع!. وهو ما فندناه في دراسة سابقة نشرت «قراءة جديدة ليوم السقيفة».

(٤) الواقعة مذكورة في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إسرائيل كموسى»[1]. إنها عبارة حاسمة تنفي مجيء نبي كموسى من بني إسرائيل في المستقبل!. ليس هذا فحسب، بل نكتشف أن النبوءة قد ذكرت في موضعين من التوراة السامرية، أحدهما في سفر التثنية والآخر في سفر الخروج[2]، مما يعني أن أحبار يهوذا قد أسقطوا النبوءة - في توراتهم العبرية - من سفر الخروج وحرفوها في سفر التثنية!. وهذا مفهوم تماماً، فأحبار يهوذا أكثر حرصاً من أحبار إسرائيل على تحريف هذه النبوءة، لأنهم حراس الهيكل، وصقور العقيدة اليهودية. وأهم من ذلك لأن التحريف يخدم سبط يهوذا الذي سيحتكر الملك!.

ولكثرة ما برع الأحبار والكهنة في تحريف نبوءات الكتاب المقدس فقد اضطر أنبياء بنو إسرائيل بعد سليمان إلى تشفير نبوءاتهم بأساليب مجازية تجعلها في مأمن من الإسقاط والتحريف. لأن القليل من الغموض الذي يحمله المجاز لا يحفز الكتبة على تحريف النص ما دام في وسعهم أن يحرفوا الدلالة والمعنى. لكن هذه الجرّة لا تسلم لهم كل مرة، فقد كانت النبوءات تحتوي أحياناً على علامات لا تحتمل التزوير، أو لا تلفت انتباه الكتبة المحرفين إلى خطورتها، فيتركونها على حالها، ثم بمرور الوقت تكشف أسرارها. وقد عبر أينوك باول[3] عن ظاهرة الأسلوب المجازي المشفر هذا في كلام المسيح عيسى بالقول: «تشترك جميع أقسام المتن الأصلي[4]، بين

(١) أنظر: التوراة السامرية: ترجمة الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق الصوري، الطبعة الأولى ١٩٧٨م، مصر، ص ١٨ / ١٩.
(٢) أنظر: المرجع السابق: ص ١٨.
(٣) سياسي وأديب وعالم لغويات إنجليزي.
(٤) يعتقد باول بوجود متن أصلي غير معروف للأناجيل الإزائية القانونية نقل عنه كل من متى ومرقس ولوقا. وكتابه «تطور الإنجيل» هو محاولة لإثبات ذلك.

بعضها ومع المطارحات الدخيلة كذلك، بصفة لافتة للنظر، وهي أن معانيها تعتمد على استعمال الأسلوب المجازي، وهو استخدام كان منتشرا جدا، بحيث كان الإخفاق في إدراكه مصدراً كبيراً نجم عنه سوء الفهم. وليس من قبيل المبالغة أن ندعي بأن الأسلوب المجازي قد كان المسرى المحوري الذي نشرت عبره التعاليم المميزة للكتاب، فالواقع أن هذا الأسلوب المجازي كان بمثابة اللغة المشفرة للكتاب»[1].

ويبدو أن سياسة التشفير هذه كانت سلاحاً ذو حدين. فهي من ناحية قد تمكنت من إخفاء بعض الحقائق والعلامات عن عيون الكتبة المزورين حتى لا يطالها تحريفهم، إلا أنه من ناحية أخرى قد ساعدهم غموض المجاز على احتكار تفسير الكتاب المقدس وتأويل أسراره. وسنعرض بعد قليل لنماذج من هذه النبوءات المشفرة المنسوبة لأنبياء إسرائيليين في العهد القديم ونخضعها للتحليل المنطقي والمقارنة النصية، لنرى إلى أي مدى كان موضوع المسيح الموعود حاضراً في تاريخ الأنبياء. وإلى أي مدى حرص أنبياء بني إسرائيل على إيصال الحقيقة في قوم ماكرين. تتوزع هذه النماذج على مساحة زمنية تقدر بستمائة سنة قبل ميلاد عيسى بن مريم. ابتداء من زمن النبي داود الذي ظهر حوالي العام ١٠٠٠ ق.م، مروراً بإشعياء الذي ظهر حوالي العام ٧٠٠ ق.م، ثم وإرميا الذي ظهر حوالي العام ٦٠٠ ق.م، وانتهاء بسفر ملاخي الذي يُعتقد أنه كتب في القرن الخامس أو الرابع قبل ميلاد المسيح.

(١) تطور الإنجيل: أينوك باول: ترجمة ودراسة أحمد ايبش، دار قتيبة، بدون تاريخ طبع، ص ٦٩.

المسيح الموعود في أسفار اليهود

إن البحث عن حقيقة دينية في ركام النصوص القديمة والغامضة والمزيفة هو أشبه بالبحث الأركيولوجي عن أجزاء قطعة أثرية ثمينة في ركام قصر قديم تعرض للتدمير والحرق قبل ألاف السنين، ثم بنيت على أنقاضه مبان متعاقبة. إن الباحث الآثاري في هذه الحالة لا يطمع في أكثر من الحصول على أجزاء متفرقة من هذه القطعة تكفي لبناء تصور كلي عنها. فما بالك ونحن أمام حقيقة دينية حرص الكتبة على إخفائها وتشتيتها وإعادة بنائها على صورة أخرى تؤدي غرضاً مختلفاً. والحكم بوقوع التحريف والتزوير في الكتب اليهودية المقدسة لم يعد مجرد رأي، بل حقيقة علمية شهد بها معظم دارسي هذه الكتب من مختلف الاتجاهات. وعلى ضوء هذه الحقيقة أصبحت الكتب المقدسة لدى اليهود والمسيحيين ميداناً خصباً لبحوث أركيولوجيا التاريخ، وهو مجال يتسم بالتعقيد والتشويق معاً. والسطور القادمة ستعرض عينات من هذا المجال استند فيها الكاتب إلى خبرته المعرفية الخاصة في تحليل الكتاب المقدس. أي أنه قرأ نصوص الكتاب المقدس بعيون المسلم المنفتح على التراث اليهودي المسيحي. ومن هذه الناحية تبدو قراءة شيقة ومفيدة لأنها تدخل النص الكتابي في بنية النص الإسلامي!.

ومن المناسب أن نبدأ هذا المبحث بتلك الحجة المنطقية التي أدلى بها العلامة الهندي رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي في

كتابه الشهير «إظهار الحق» حيث قال: «أن الأنبياء الإسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش واسكندر وخلفائه وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والأكاسرة وشاع دينه في ديار الشام التي هي الأوطان الأصلية للأنبياء المذكورين شيوعاً تاماً»[1]. ومن الواضح أنها حجة ملزمة لأهل الكتب السابقة. فحتى لو كان محمد مجرد دعيّ كذاب فإن حجم تأثيره - الذي لا يفوقه تأثير شخص آخر في التاريخ كله حسب شهادة مايكل هارت - كان يقتضي من أنبيائهم أن يشيروا إليه بأوصاف واضحة تحذر من خطره!. أما أن تسكت هذه الكتب عن ذكره تماماً فذلك أمرٌ يدعو للشك والريبة في سلامة هذه الكتب!.

١. مزامير داود[2]:

إذا ما رتبنا كتب العهد القديم بحسب الظهور التاريخي لأصحابها فإن سفر المزامير المنسوب إلى داود يعد من أقدم أسفار العهد القديم بعد الأسفار المنسوبة إلى موسى. إلا أن علماء الكتاب

(١) إظهار الحق: رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، ت ١٨٩١م، دراسة وتحقيق وتعليق د. محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٩٨٩، الجزء الرابع، ص ١٠٧٨.

(٢) المزامير هي الأدعية التي تتلى في صلوات أهل الكتاب.

المقدس يؤكدون بأن نصيب داود من هذ االسفر لا يتجاوز ٧٣ مزمورا![1]، من أصل مئة وخمسين مزمورا. ولعل أشهر هذه المزامير لدى الكنيسة هذا المزمور الذي يقول: «هللويا. أنشدوا للرب نشيداً جديداً. هللوا له في جماعة الأتقياء. يفرح بنو إسرائيل بخالقهم. يبتهج بنو صهيون بملكهم. يهللون لاسمه بالرقص. يرتلون بالدف والكنارة. الرب يرضى عن شعبه. ويمنح المساكين خلاصه. يغتبط الأتقياء بانتصارهم ويرنمون فرحاً على خيولهم يعظمون الله ملء أفواههم. وبأيديهم سيف ذو حدين ينتقمون من جميع الأمم ويؤدبون جميع الشعوب». (مز ١٤٩ : ١ - ٧).

وقد جاء في تفسير الكتاب المقدس للقمص الأرثوذكسي تادرس يعقوب تعليقاً على هذا المزمور قوله: «ليس لهذا المزمور عنوان. ينسب المزمور للنبين حجَّي وزكريا حسب الترجمات السبعينية والسريانية والأثيوبية. يرى البعض أنه أروع قطعة في سفر المزامير، حيث توجه الدعوة للسمائيين والبشر وكل الخلائق لتسبح الله»[2]. وهو كما ترى تفسير قلق محفوف بالشك في مصدر الترنيمة وفي دلالتها. واللافت أن هذا التفسير يتجاهل الإشارات النصية الدالة على صراعٍ (ما) تنتصر فيه «جماعة الأتقياء» على عدو لها. النص يتحدث عن «انتصار» و«سيوف» و«انتقام»، وما التسبيحة إلا ثناء المنتصر على الرب الذي منحه هذ النصر على أعدائه،

(١) هذا العدد بحسب أكثر المراجع التي عدنا إليها، ويبدو أن التفسير التطبيقي للكتاب المقدس قد صحف العدد بالمقلوب فذكر (٣٧) بدلا من (٧٣)، انظر: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، الصادر في القاهرة، بدون بيانات الطباعة وتاريخها، ص ١١٣٠.

(٢) موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

أعداء الرب!. كما تتحدث عن ملك (= قائد) يقود المساكين إلى الخلاص، ويستقبل بالتهليل والدفوف. فعن أي معركة وعن أي انتصار يتحدث المزمور يا ترى؟. وبأي «ملك» يبتهج بنو صهيون ويهللون لاسمه بالرقص؟!. لا يمكننا في الإجابة على هذه الأسئلة الذهاب بعيداً قبل زمن حجي وزكريا ما دام أن الكتب المقدسة ترجح نسبة المزمور إليهما. فما الذي في زمن هذين النبيين يمكن أن يكون مقصودا بإشارات هذه التسبيحة؟.

لا يقطع علماء الكتاب المقدس بتحديد الزمن الذي عاش فيه النبيان حجي وزكريا، لكنهم يرجحون وجودهما معاً في الفترة حوالي ٥٢٠ قبل الميلاد. أي بعد عودة اليهود من الأسر البابلي إلى فلسطين، وهي فترة بناء الهيكل الثاني. فهل شهد بنو إسرائيل حرباً خلال هذه الفترة يمكن أن تكون مقصودة بإشارات النص؟. الإجابة من واقع التاريخ الإسرائيلي نفسه: لا توجد أي حروب إسرائيلية في سنوات العودة. فقد كان الوضع مستتباً نسبياً في فلسطين التي آلت إلى ملك الامبراطورية الفارسية المنتصرة. وكورش الفارسي هو الذي خلص بني إسرائيل من الأسر البابلي. ومن ثم فلا بد أن نحمل علامات النص على موضوع آخر مستقبلي يتحدث عنه المزمور. وليس هناك موضوع عابر للزمن في تاريخ بني إسرائيل سوى موضوع المسيح الموعود!. ويعزز هذا الرأي أن سفر النبي حجي نفسه كان مشغولاً بموضوع المسيح الموعود على الرغم من صغر حجمه الذي لا يتجاوز إصحاحين. وهو ما لفتت نظر المفسرين، كما تقول دائرة المعارف الكتابية[1]. بل وفي هذا

(١) انظر: دائرة المعارف الكتابية، ص ٣٣.

السفر وردت أشهر العبارات الدالة على المسيح الموعود في الكتاب المقدس. العبارة التي اتفقت الطوائف جميعاً على كونها نبوءة عن المسيح الموعود (مشتهى كل الأمم). وسنأتي على ذكر هذا في سطور لاحقة.

وعليه يمكننا القول إن العلامات في المزمور المنسوب لحجي وزكريا إنما تشير إلى النبي محمد وصحابته، والتهليلة الجديدة التي سيعلنها. فـ«النشيد الجديد للرب» هو على الأرجح شعار «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو الأذان للصلاة في الإسلام، أو التلبية الجماعية في الطواف بالكعبة: لبيك اللهم لبيك. وسنعزز هذا الرأي في سطور قادمة بشاهد آخر من سفر إشعياء يتحدث عن التسبيحة التي سترفع في ديار بني قيدار (العرب). وسيكون نص إشعيا بمثابة النص الشارح لهذا المزمور. وعبارة «التهليل في جماعة» هي إشارة إلى طقس تعبدي جماعي في شريعة النبي محمد هو على الأرجح تلبية الحجاج في طوافهم بالكعبة. أما عبارة «يبتهج بنو صهيون بملكهم. يهللون لاسمه بالرقص. يرتلون بالدف والكنارة»، فكأنما تشير إلى حادثة استقبال مسلمي يثرب للنبي بالدفوف والأغاني عند وصوله إليهم هاربا من مكة. ولا نعرف زعيما إسرائيلياً بعد السبي البابلي قد استقبل بالدفوف والغناء حتى يصادر النبوءة!.

أما لفظة «صهيون» التي قد تشغب على هذا التأويل فيعتقد الكثير من الباحثين الإسلاميين المعاصرين أنها قد أدرجت في الكتاب المقدس لتكون رمزاً لجبل من جبال مكة المقدسة. وكاتب هذه السطور لا يجد مسوغاً لرد هذا الرأي في سياق المنظور الشكي.

إذ من المحتمل جدا في ظروف كهذه أن يحدث مثل هذا التلاعب بالنصوص والنبوءات، إما بالإسقاط أو بالإضافة والتبديل. لكن التشكيك وحده لا يكفي ما لم يكن مدعماً بالشواهد المؤيدة. وهذا ما سنفعله على عجل يناسب مقام المسألة وقيمتها في هذه الدراسة. وأول الشواهد التي تعزز صحة هذا الشك يأتي من سفر إشعياء نفسه، حيث جاء ذكر صهيون الأورشليمية مقيداً بوصف لا يتوافق إلا مع مكة. إذ يقول: «استيقضي يا صهيون والبسي عزتك. إلبسي ثياب مجدك يا أورشليم، أيتها المدينة المقدسة. فغير المختون والنجس لا يدخلك من بعد» (اش ٥٢ : ١).

النص يخبر بأن مدينة أورشليم - التي تقع على تلين أشهرهما تل صهيون، وتسمى باسمه في كثير من الأحيان - هي المدينة التي لن يدخلها شخص نجس ولا شخص غير مختون. وهذا وصف لا يتوافق مع أي مدينة في العالم سوى مكة، التي حُرّم دخول مسجدها الحرام على مشركي مكة، الذين وصفهم القرآن بالنجس في قوله: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا» (التوبة ٢٨). ثم استصحب المسلمون هذا الحكم على غير كفار مكة من المشركين وغير المسلمين إلى اليوم، فأصبحت مكة هي المدينة الوحيدة في العالم التي لا يدخلها اليهود وغير المختونين علناً!. ويبدو أن الكتبة المحرفين قد عمدوا إلى إسقاط أوصاف مكة في النبوءة الأصلية على مدينة شبيهة لها في فلسطين فاختاروا مدينة القدس لتكون بديلا عنها. ثم جعلوا الهيكل فيها بديلاً عن الكعبة نفسها. ربما في سياق المنافسة لبني عمومتهم (بني إسماعيل). غير أن هذه العملية لن يحالفها النجاح الكامل. ذلك لأن القرائن

المبثوثة في أنحاء الكتاب المقدس تفضحها وتشير إلى الحقيقة. حقيقة أن المقصود بهذا الحديث في سفر المزامير هو مكة مدينة المسيح الموعود. ومنها القرائن الآتية:

أولا: تقول التوراة إن الرب قد أمر إبراهيم أن يأخذ ابنه من مكان إقامته ببئر السبع إلى أرض موريه[1] ليقدمه أضحية على جبل هناك. ومن المعلوم أن المسافة بين مدينة بئر السبع ومدينة القدس تبلغ حوالي ٧١ كيلو متر. فهل من المعقول أن يسافر إبراهيم بحماره وابنه وخادمه كل هذه المسافة لتقديم الأضحية؟!. وما هذه المصادفة التي جمعت بين جبلين صغيرين في مدينتين مقدستين: هما جبلا الموريه وصهيون في مدينة القدس، وجبلا الصفا والمروة في مكة(٢)؟!. وهل يصل سخاء المصادفة إلى حد تشابه أسماء الجبلين في القدس مع أسماء الجبلين في مكة؟!. لماذا قد نستبعد أن يكون اسم «الموريه» تحريفاً صوتياً للمروة؟ أو اسماً قديماً لها مثلما كان «بكة» اسماً قديما لمكة؟، أو نستبعد أن صهيون هي بديل الصفا؟!.

ثانياً: هناك تنازع بين سرديتين متصلتين بالموضوع إحداهما إسلامية والأخرى يهودية حول حقيقة الذبيح من أبناء إبراهيم، هل هو إسماعيل أم إسحاق؟. والشاهد في القصة هو المكان الذي اختاره الله لتقديم الضحية. فالتوراة تقول إن الرب قد أمر إبراهيم أن يأخذ إبنه الوحيد إسحاق إلى جبل في أرض موريه، ليقدمه أضحية هناك (تك ٢٢ : ٢). وموريه كما يقول شراح الكتاب

(١) تكتب في بعض الترجمات العربية بلفظ «موريا» وأحيانا بلفظ «مريا».

(٢) تقول الرواية الإسلامية إن هاجر زوج إبراهيم كانت أول من سعى بين الصفا والمروة، حينما كانت تلتمس الماء لطفلها إسماعيل، ومنه جاء المنسك المعروف في الحج.

المقدس هو الجبل الذي بنى عليه سليمان الهيكل[1] فيما بعد. وهو أحد جبلين - أو تلين - بنيت عليهما مدينة القدس، والآخر هو جبل صهيون. بينما تقول الرواية الإسلامية إن الحادثة وقعت عند أحد جبال مكة. وهذه نقطة تنازع بين السرديتين، ونقطة ربط بين مكة وأورشليم أيضا!. ترجح أن إحدى السرديتين قد وجدت لتحل محل الأخرى الأصلية. خاصة وأن عبارة «أورشليم» تعني مدينة السلام، أو «البلد الأمين» كما يصفها القرآن!.

ثالثاً: لقد وردت الإشارة السابقة عن مدينة أورشليم التي لا يدخلها غير المختونين في المزمور ١٤٩. بعد سلسلة من الإشارات الأخرى الدالة على مكة وبيت الله الحرام في المزامير. أخطرها على الإطلاق تلك التي وردت في الإصحاح ٨٤ العدد ٧، حيث صرحت - في معظم الترجمات الإنجليزية - بلفظ «بكة»، وهو الاسم الآرامي لمكة. فقد جاء تحت عنوان «نشيد الحجاج»: «ما أحبّ مساكنك يا ربنا القدير، تذوب نفسي شوقاً إلى ديار الرب. قلبي وجسمي يرنمان للإله الحي. العصفور يجد له بيتاً، واليمامة عشاً لتضع أفراخها عند مذابحك يا ربنا القدير، يا ملكي وإلهي. هنيئا للمقيمين في بيتك، هم على الدوام يهللون لك. هنيئاً للذين عزتهم بك، وبقلوبهم يتوجهون إليك. يعبرون في وادي الجفاف، فيجعلونه عيون ماء».

وقد تنبه العديد من الدارسين إلى أن عبارة «وادي الجفاف» هي إحدى الترجمات العربية لكلمة «بكة» في النسخة العبرية من المزامير.

(١) انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت، قاموس الكتاب المقدس، دائرة المعارف الكتابية، شرح كلمة جبل مريا.

فقد أدرك مترجمو الكتاب المقدس إلى العربية أن الكلمة ستسبب لهم حرجاً شديداً أمام القارئ العربي، فاضطروا إلى منحها ترجمات مختلفة مثل «وادي البكاء»[١] و«وادي الجفاف»[٢] و«وادي البلسان»[٣]. في حين حافظت معظم الترجمات الإنجليزية على الكلمة الأصلية كما هي (Baca) لأنها من أسماء الأماكن التي ينبغي أن تنقل بلفظها دون ترجمة. ولهذا كتبتها معظم النسخ الانجليزية بالحرف الكبير B الدال على كونها اسما لا صفة[٤]. ومع ذلك فإن الترجمات العربية البديلة لم تخل من إشارة إلى مكة. فعبارة وادي الجفاف تضارع عبارة «وادٍ غير ذي زرع» الذي وصفت به مكة في القرآن. وعبارة «وادي البلسان» كذلك تشير إلى شجر البلسان الذي ينبت بمكة، حسبما تؤكد دائرة المعارف الكتابية نفسها!. حيث جاء في تعريف كلمة بلسان: «أما البلسان الحقيقي الذي ذكره المؤلفون القدماء فهو «بلسم مكة» الذي ما زالت مصر تستورده من شبه الجزيرة العربية كما كان الأمر قديما»[٥]. وهذا يساعدنا على معرفة إحدى الطرق الماكرة لدى المحرفين في إخفاء الحقائق الدينية. أعني طريقة إبدال اسم الموضوع بإحدى صفاته أو علاماته التي لا يعرفها إلا الخاصة من أهل العلم، لإبقاء الحقيقة سراً بينهم.

(١) في نسخة الفندايك للكتاب المقدس.
(٢) في النسخة العربية المشتركة للكتاب المقدس.
(٣) في النسخة اليسوعية للكتاب المقدس.
(٤) ذكر ذلك الباحث فاضل سليمان في لقاء بقناة الناس نشر على اليوتيوب عام ٢٠١١.
(٥) دائرة المعارف الكتابية: مجلس التحرير: دكتور القس منيس عبد النور، دكتور القس فايز فارس، القس أندريه ذكي، دكتور القس أنور ذكي، المحرر المسئول وليم وهبه باوي، دار الثقافة ـ القاهرة، الطبعة الثانية، المجلد الثاني، ب إلى ج، ص ١٨٩.

رابعاً: إذا كانت أورشليم المسيحانية مدينة في القدس، فلماذا يتحدث الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا عن أورشليم جديدة، بها بيت جديد لله، ويظهر فيها المسيح الموعود كما يعتقد الإنجيليون؟!. لماذا تجاوز يوحنا أورشليم القدس؟!. ولماذا اضطرت بعض الطوائف المسيحية للاعتقاد بأنها مدينة سماوية لا أرضية؟!. جاء في رؤيا يوحنا: «ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى زالتا، وما بقي للبحر وجود، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء من عند الله، كعروس تزينت واستعدت للقاء عريسها، وسمعت صوتاً عظيماً من العرش يقول: هاهو مسكن الله والناس: يسكن معهم ويكونون له شعوباً. الله نفسه معهم ويكون لهم إلها». (رؤ ٢١ : ١ - ٣). ويوحنا يقول إنها مدينة نازلة من السماء، ولم يقل إنها في السماء!. في إشارة إلى الوحي النازل على مسيح مكة!. كما إن رؤيا يوحنا تقدم أوصافاً لهذه المدينة المقدسة تذكر بأوصاف الكعبة: فهي مدينة مكعبة يتساوى طولها وعرضها وارتفاعها (رؤ ٢١ : ١٦). الجدير بالملاحظة أن ثيمة الهيكل الجديد، والأرض المقدسة الجديدة، تتكرر في أنحاء مختلفة من نصوص الكتاب المقدس. وسيكون لنا معها وقفة في سطور قادمة عند الحديث عن سفر حجي.

خامساً: عبارة الإصحاح ٢٢ في سفر التكوين التي تتحدث عن أمر الله لإبراهيم باصطحاب إسحاق إلى أرض موريه تحمل في جوفها علامة تحريفها. فشراح الكتاب المقدس أنفسهم يقولون إن «موريا» كلمة سامية تعني «الرؤيا». وهذا ما تبادر إلى ذهن الكاتب من الوهلة الأولى قبل أن يطلع على المعلومة لدى شراح

الكتاب المقدس. ومن الواضح أن المنطقة قد أخذت اسمها من رؤيا إبراهيم الشهيرة التي تأمره بذبح ولده!. بما يعني أن المنطقة لم تحمل هذه التسمية إلا بعد وقوع الحادثة لا قبلها. فكيف يقول النص لإبراهيم «إذهب إلى أرض موريـة» وكأنها منطقة معروفة سلفاً بهذا الاسم؟!. إن أقل دلالة نستخرجها من العبارة هي أن بني إسرائيل كانوا قد أعادوا تنزيل الأحداث الإبراهيمية على جغرافيا جديدة بأثر رجعي. وهذا ليس غريبا بالطبع على التوراة، فقد تبين لنقادها أن كتابها قد أطلقوا على بعض الأماكن تسميات لم تكن لها في زمن الحكاية التي وردت فيها. وأشهر من لفت الانتباه إلى ذلك هو الفيلسوف اليهودي إسبينوزا في كتابه النقدي الشهير «رسالة في اللاهوت والسياسة». والطريف أن المثال الذي ذكره سبنيوزا كان عن جبل موريا نفسه. حيث زعم كاتب التوراة بأن إبراهيم قد أطلق عليه اسم «جبل الرب»، في حين أن الجبل لم يحمل هذا الاسم - كما قال اسبينوزا - إلا بعد الشروع في بناء المعبد اليهودي، أي في زمن سليمان[1].

بالعودة إلى المزمور ١٤٩ يمكن القول إن وجود لفظة صهيون المشكلة لن يؤثر كثيراً على مقولتنا التفسيرية، لأن أكثرية القرائن في النص تؤيدها. فعبارة «الرب يرضا عن شعبه» إشارة أخرى إضافية للدلالة على أن المقصود بهذا الرضا صحابة محمد. لأن الكتاب المقدس نفسه لم يقل إن الله قد رضي عن بني إسرائيل في

(١) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة: اسبنيوزا، ترجمة د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص ٢٥٩.

أي مرحلة بعد سقوط الدولة الموحدة، ونحن نتحدث عن مزمور ينتمي زمنيا لما بعد السبي البابلي!. وما زال يلعنهم ويتهمهم بالتمرد والعناد والعصيان. في حين وردت عبارة رضوان الله في القرآن أكثر من مرة مقرونة بصحابة النبي محمد، مثل قوله: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة ١٠٠).

أخيراً تأتي الإشارة في المزمور إلى تأديب الأمم والشعوب على يد المسيح الموعود. وليس هناك حتى الآن في تاريخ بني إسرائيل من تحققت فيه هذه النبوءة. وليس هناك أمة «عظمت الرب ملء أفواهها» وأدبت جميع الشعوب سوى أمة محمد، التي خاضت حرباً مع مختلف الشعوب خلال القرون الخمسة الأولى.

لكن بعض شراح الكتاب المقدس يصرون على أن النبوءة السابقة تشير إلى المسيح عيسى نفسه. يقول القمص المصري أنطونيوس فكري: « المزمور السابق تسبيح للخالق وهنا نجد تسبيح لله كفادي. هو مزمور تسبيح للنصرة التي أعطاها الله لشعبه على أعدائهم. ربما كتبه داود بعد انتصاره على بعض أعدائه. ولكنه كان ينظر بعين النبوة إلى انتصار المسيح على إبليس ونصرة الكنيسة على أعدائها[1]». والقمص هنا ينسب المزمور إلى داود لا إلى حجي أو زكريا، وهذا لا شك جهل منه أو تجاهل لما هو متعارف عليه في الوسط العلمي المسيحي، وما أكدته دائرة المعارف الكتابية المصرية

(١) انظر: شرح الكتاب المقدس - العهد القديم - القمص أنطونيوس فكري، موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

نفسها؟!. هذا فضلا عن التأويل البعيد جداً في تنزيله أوصاف المسيح الموعود في المزمور على المسيح عيسى لأن هذا الأخير لم يكن ملكاً أو زعيماً سياسياً كما يطلب النص؟!. ثم هل يحتاج انتصار عيسى على إبليس إلى نبوءة؟!.

٢. سفر إشعياء:

هو أهم أسفار العهد القديم وأشهرها في جانب الحديث عن المسيح الموعود. وأكثرها وضوحا في الدلالة على صفات النبي محمد. جاء في سفر إشعيا على لسان الرب الإله: «هوذا عبدي الذي أسانده، والذي اخترته ورضيت به، جعلت روحي عليه، فيأتي للأمم بالعدل. ولا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يسمع في الشارع صراخه. قصبة مرضوضة لا يكسر، وشعلة خامدة لا يطفئ. بأمانة يقضي بالعدل. لا يلوي ولا ينكسر حتى يقيم العدل في الأرض. فشريعته رجاء الشعوب. هذا ما قال الرب خالق السموات وناشرها. باسط الأرض مع خيراتها وواهب شعبها نسمة الحياة روحاً للسائرين فيها. أنا الرب دعوتك في صدق وأخذت بيدك وحفظتك. جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم، فتفتح العيون العمياء، وتخرج الأسرى من السجون والجالسين في الظلمة من الحبوس. أنا الرب وهذا اسمي، لا أعطي لآخر مجدي، وللأصنام تسبيحي، ما مضى مضى، فأخبركم بما يأتي، وقبل أن يحدث أسمعكم به». (اش ٤٢ : ١ - ٩).

يتحدث نص إشعياء على لسان الرب عن شخصية غامضة وصفها بـ «عبدي، الذي اخترته ورضيت به». وقد فهم اليهود

والمسيحيون أن النص يشير إلى المسيح الموعود، لعلامات دالة عليه في النص، أبرزها عبارة «اخترته، التي تعني عندهم مسحته. ونحن نوافقهم في أن النص يخص المسيح الموعود. لكن على اعتقاد بأنه محمد لا سواه. وذلك للاعتبارات التحليلية الآتية:

أولا: استعمل المتكلم الرب عبارة «عبدي الذي أسانده»، وهذه العبارة أقرب إلى الروح الإسلامي من الروح المسيحي. فالإيمان المسيحي لا يميل إلى تسليط الضوء على بعد العبودية في شخصية عيسى. ومركب الأقانيم لا يتضمنه بالمرة!. فعيسى عندهم هو الله أو ابن الله وليس عبد الله كما يقول القرآن. وقد اضطروا اضطراراً للاعتراف بهذا البعد في حياة عيسى لكن بتأويل متكلف، لكي يصرفوا النص عن حقيقته، ويبطلوا تأويله لصالح المسيح الحق!. إن الفجوة التي تحدثها عبارة «عبدي» في الإيمان المسيحي تحتاج إلى تأويل شديد التكلف لكي تتفق معه. وهذا التكلف هو في ذاته علامة على بطلان التأويل. كما أن الوضوح والبساطة قرائن الحقيقية. ومع ذلك فإن هذه العبارة لا تكفي لحسم الخلاف حول هوية المسيح. وسنحتاج إلى ضمائم أخرى من النص لكي تكتمل الصورة ونراها بوضوح.

ثانياً: عبارة «عبدي الذي أسانده» تفيد بأن المسيح الموعود بشر ضعيف يفتقر إلى معبوده السماوي. وهذه ليست صفة مناسبة للأقنوم الثاني في الثالوث المسيحي، إلا بتكلف شديد في التأويل كما قلنا. والعبارة التالية لها «جعلت روحي عليه» تحدد طبيعة الإسناد الإلهي له: إنه مؤيد بالروح القدس (جبريل). وهذه ليست علامة

خاصة بالنبي محمد قطعاً، فعيسى نفسه مؤيد بالروح القدس حسبما جاء في القرآن. لكن الشاهد في أن هذه العلامة لا تتفق أيضا مع الإيمان المسيحي عن الثالوث الإلهي إلا بتكلف شديد في التأويل. حيث يفترض الإيمان المسيحي بأن الروح القدس هو الأقنوم الثالث من حيث الرتبة والمقام في الأقانيم الثلاثة، بعد أقنومي الآب والإبن[1]. مما يعني أن الإبن أكثر قدرة وعلمًا من الروح القدس. فكيف يصبح الأول بحاجة إلى إسناد الأخير؟! بل كيف يكون الإله - بأقانيمه المختلفة - في حاجة للإسناد أصلا؟!. إنهم مضطرون دائماً لترميم هذا البناء الهش بتفسيرات بعيدة متكلفة لا تناسب منطق الحقيقة.

ثالثاً: عبارة «فيأتي للأمم بالعدل» تؤكد أن المقصود بالنبوءة هو المسيح المنتظر بالفعل. ولفظة الأمم في التراث اليهودي تعني غير بني إسرائيل. جاء في دائرة المعارف الكتابية المسيحية: «الأمم، الأمميون: يطلق هذا الاسم في الكتاب المقدس على الشعوب غير العبرانيين (اش ٤٩: ٦ ورو ٢: ١٤) وقد رأى أنبياء العهد القديم بأن المسيح سيكون نورًا للأمم (اش ٢: ٢-٤ وعا ٩: ١٢ وزك ٩: ٧). لكن الجديد في العبارة - وشقيقاتها التاليات - هو أنها تقدم العلامات المميزة للمسيح المقصود وتشير إليه بصورة أوضح. فالعبارة السابقة تسند إلى الموعود مهمة إقامة العدل بين الأمم. وحتى لا تنصرف العلامة إلى مسيح اليهود الموعود الذي سيأتي ملكاً متوجاً في نهاية الزمان فقد حدد النص الطريقة التي يقيم بها العدل. إنها

(١) في سياق قادم سندلل على أن الإيمان المسيحي قد رتب الأقانيم الثلاثة بحسب قربها أو بعدها من مبدأ الكمال.

ليست طريقة الملوك الجبارين بل طريقة القضاة والمشرعين (بأمانة يقضي بالعدل.. فشريعته رجاء الشعوب). إننا أمام قاض له شريعة خاصة، وهذه علامات لا تناسب مسيح اليهود ولا مسيح المسيحيين. لأن مسيحهم (الملك) لا بد أن يكون ملكاً محارباً. والعبارات التي تصفه بالوداعة (لا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يكسر قصبة مرضوضة، ولا يطفئ شمعة خامدة) جاءت لغرض محدد هو استبعاد فكرة المسيح الملك. إذ لا يمكن أن يكون ملكاً محارباً من لا يكسر قصبة ولا يطفئ شمعة خامدة، فالملوك لا بد أن يفعلوا ما هو أكثر من ذلك. وإلا فكيف سيقود مسيحهم المنتظر معركة هرمجدون العالمية المدمرة ضد يأجوج ومأجوج كما يعتقد البروتستانت مثلا؟!. وليس في وسع غيرهم القول بأن النص يشير إلى مملكة يسوع في السماء لأن النص يتحدث عن الأرض بوضوح (يقيم العدل في الأرض)!.

وعليه فإن العلامات الماضية لا تنسجم تمام الانسجام إلا بإسقاطها على النبي محمد. فهو المسيح المؤيد بجبريل، المكلف بإقامة العدل، سواء في مقام سلطته القضائية بين صحابته، أو بشريعته الجديدة التي أرسل بها. وفي هذا السياق نفهم التوجيهات القرآنية التي كانت تأمره - في سياق القضاء بين الناس في زمنه - بالحكم بما أنزل الله، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» (المائدة ٤٨). وفي هذا السياق أيضا نفهم معنى قوله «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم ٤)، الذي قصدته العلامات الدالة على وداعته وخلقه في نص إشعياء.

رابعاً: جملة «أنا الرب دعوتك في صدق، وأخذت بيدك وحفظتك، جعلتك عهداً للشعوب، ونوراً لهداية الأمم»، لا تناسب مسيح اليهود ولا مسيح المسيحيين. أما مسيح اليهود القادم في زعمهم فلن يبعث لهداية الأمم وإضاءة طريقها، بل لمعاقبتها على اضطهاد بني إسرائيل، وإقامة دولتهم الكبرى!. وأما مسيح المسيحيين فقد صرح في الأناجيل القانونية بأنه لم يرسل للأمم، وإنما أرسل لخراف بيت إسرائيل الضالة (مت ١٥ : ٢٤). وحتى لو قالوا إن هذا كان في مجيئه الأول فقط، وسيكون مسيحاً أممياً في مجيئه الثاني، فإن العلامات لا تناسبه، لأن مجيئه الثاني - حسب عقيدتهم - لن يكون لهداية الأمم وإخراجها من الظلمات إلى النور بل لإقامة مملكة الألف عام. وسيلجأون لممارسة التأويل المتكلف كالعادة حتى يتفق تأويلهم مع نظام عقائدهم.

أما حين ننزل هذه العلامات السابقة على النبي محمد فإن الأمور تجري بسلاسة ويسر بما يدل على أن الغطاء قد وافق الطنجرة!. فعبارة «دعوتك في صدق تذكر بالآية القرآنية عن النبي محمد «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرً (البقرة: ١١٩). وعبارة «أخذت بيدك» توافق الآية التي تخاطب محمدا بالقول: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (الضحى ٧). وعبارة «حفظتك» توافق قوله تعالى «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» (المائدة ٦٧). وعبارة «جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم» توافق قوله تعالى: «الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (إبراهيم ١).

خامساً: عبارة «فشريعته رجاء الشعوب» توحي كما قلنا بأن المسيح الموعود صاحب شريعة مستقلة. وهذه علامة لا تناسب مسيح اليهود الذي يبدو ملكاً أكثر منه صاحب شريعة. ولا تناسب مسيح المسيحيين لأن صاحبهم يبدو تابعاً لشريعة موسى أكثر منه صاحب شريعة مستقلة. في حين أن هذا البعد أكثر وضوحاً في جانب النبي محمد. حيث يقول القرآن: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الجاثية ١٨). ثم إن هذه الشريعة الموحى بها قد حُددت في النص السابق بوصف يوافق وصفها في القرآن: فهي «نسمة حياة، وروح للسائرين». وكلمة «روح» هذه هي التي وصف بها القرآن نفسه حيث قال: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢). والعجيب أن بقية الآية القرآنية تشبه بقية عبارات نص إشعياء السابق، وكأن بينهما نوعاً من التراسل. فهي تتحدث عن القرآن بوصفه روحاً، ونوراً، وهدى للعباد، وهذا ما قاله نص إشعياء بعد العبارة السابقة مباشرة: «أنا الرب دعوتك في صدق وأخذت بيدك وحفظتك. جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم، فتفتح العيون العمياء، وتخرج الأسرى من السجون والجالسين في الظلمة من الحبوس». والجملة الأخيرة عن إخراج الناس من السجون والظلمة تذكر بعبارة القرآن: «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة٢٥٧).

سادساً: قوله «أنا الرب، وهذا اسمي، لا أعطي لآخر مجدي، ولا للأصنام تسبيحي»، من أعجب العبارات في النص. وكأنما تأخرت لكي تغلق تأويل النص لصالح المسيح الحقيقي!. لأن شراح الكتاب المقدس قد أعطوا عبارة «مجد الله» تفسيرات غامضة بعيدة، غير مقنعة. مع علمهم أن تفسيرها موجود في سفر إشعياء نفسه قبل إصحاحين فقط من الإصحاح ٤٢ الذي نفسره. وهناك نجد المفاجأة المدوية!. فقد جاء في الإصحاح ٤٠ قوله: «يقول الرب إلهكم، طيبوا قلب أورشليم. بشروها بنهاية أيام تأديبها، وبالعفو عما ارتكبت من إثم]...[صوت صارخ في البرية: هيئوا طريق الرب، مهدوا في البادية دربا قويماً لإلهنا. كل واد يرتفع. كل جبل وتل ينخفض. يصير المعوج قويماً، ووعر الأرض سهلاً، فيظهر مجد الرب، ويراه جميع البشر معاً». ثم تأتي المفاجأة: «لأن الرب تكلم، صوت قائل: «إقرأ». فقلت: «ماذا أقرأ»!. من هذا الذي قيل له إقرأ فقال «ما أقرأ؟» غير محمد؟!.

ليست هذه هي المفاجأة الوحيدة بالطبع، فسفر إشعياء يشبه مغارة مليئة بالكنوز. وبالعودة إلى الإصحاح ٤٢ سنجد مفاجأة ثانية على بعد خطوات من النص الذي شرحناه إذ يقول: «أنشدوا للرب نشيداً جديداً، تسبيحة من أقاصي الأرض. ليضج البحر وما فيه والجزر وكل سكانها. لترفع القفار والمدن صوتها والديار التي يسكنها بنو قيدار». فما هو النشيد الجديد للرب غير عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؟. وما هي التسبيحة التي سترفع في المدن والقفار التي يسكنها بنو قيدار غير تسبيحة الأذان؟!. لكن من هم بنو قيدار؟ تجيب دائرة المعارف الكتابية المسيحية بالقول: «قيدار، خيام قيدار اسم سامي معناه

«قديـر» أو «أسـود» أو «داكـن البـشرة» وهـو اسـم الابـن الثـاني مـن أبنـاء اسـماعيل بـن إبراهيـم (تـك ٢٥: ١٣؛ ١ أخ ١: ٢٩). وهـو أب لأشـهر قبائل العـرب وتسـمى بلادهـم أيضًـا قيـدار (اش ٢١: ١٦ وار ٤٩: ٢٨).

ومـا زال السـفر يختـزن الكثـير مـن العلامـات الدالـة عـلى المسـيح الموعـود وأمتـه وملابسـات ظهـوره. لا مجـال لاسـتقصائها هنـا. لكننـا سـنختم بتلـك الإشـارة التـي وردت في العـدد ١٧ مـن الإصحـاح ٤٢ نفسـه، حيـث قـال: «أمـا المتكلـون عـلى تماثيلهـم، القائلـون للأصنـام أنـت آلهتنـا، فـإلى الـوراء يرتـدون ويخـزون». هـذه العبـارة جـاءت في سـياق الحديـث عـن المسـيح الموعـود وتشـير بوضـوح إلى ظهـوره في قـوم يؤلهـون الأصنـام ويعبدونهـا، أو في زمـن قـوم يؤلهـون الأصنـام ويعبدونهـا. وهـذا لا يتفـق مـع مسـيحهم الموعـود الآتي في المسـتقبل. لأن تأليـه الأصنـام وعبادتهـا أصبحـت جـزءاً مـن المـاضي. ولـن يكـون للعبـارة معنـى إلا إذا اعتبرناهـا إشـارة إضافيـة إلى قبائـل العـرب التـي كانـت تعبـد الأصنـام في زمـن ظهـور المسـيح محمـد!. وهـذا التفسـير الصريـح أولى مـن التفسـير المجـازي الـذي قـد يُعطـى للعبـارة بغـرض صرفهـا عـن المعنـى الحـق!.

هـذا هـو التفسـير المنسـجم مـع كلام إشـعياء في النـص السـابق. وبـدون هـذا التفسـير سـيقع شراح الكتـاب المقـدس في حيـص بيـص بسـبب المشـكلات التـي سـتعترض تفسـيراتهم الأخـرى. وهـذا مـا نفهمـه مـن دائـرة المعـارف الكتابيـة وهـي تحـاول تعريـف كلمـة «عبـد» في سـفر إشـعياء – الـذي تسـميه «قصائـد إشـعياء» – حيـث جـاء: «مـن هـو هـذا العبـد: تحديـد شـخصية العبـد في هـذه القصايـد يثـير جـدلاً

واسعاً بين المفسرين. فكثيراً ما تستخدم كلمة «عبد» في إشعياء للدلالة على الأمة الإسرائيلية ككل (انظر مثلا إش ٤١ : ٨). والقول بأن «العبد» المقصود في هذه القصائد هو إسرائيل يلائم السياق ككل. ولكن القول بأن إسرائيل ككل هو «العبد المتألم» لا يتفق مع كل الفصول، كما أنه لا يفسر موضوع الكفارة عن كل الناس عن طريق الآلام[1]. ومما يزيد الأمر صعوبة، أنه في بعض الفصول (كما في ٤٩ : ٣ و٦) يتكلم عن العبد باعتباره «إسرائيل (٤٩ : ٦) كشخص يقود إسرائيل رجوعاً إلى الرب (٤٩ : ٦) ويفترض البعض أن «العبد» يمثل مجموع الأمة متضامنة، حتى ليمكن الحديث عنها كشخص واحد. ولكن حتى هذا الفرض لا يمكن أن يفسر ما جاء في القصيدة الرابعة (٥٢ : ٣ - ٥٣ : ١٢)»[2].

والحقيقة التي يتهرب منها كتاب دائرة المعارف هي أن الكلمة تشير إلى المسيح الموعود (محمد) لأن علامات العبد المذكورة من الإصحاح ٤٢ إلى الإصحاح ٥٠ لا توافق أحداً غيره. فهي تتحدث عن المختار (المسيح) الذي يرسله الله للأمم فيخلصها، وعن نهاية ممالك المنطقة على يده (اش ٤٩ : ٢٢ - ٢٥). ويزداد الأمر وضوحاً إذا ربطنا بين هذه الإشارات جميعاً وتفسير النبي دانيال لرؤيا الملك البابلي عن الممالك الأربع. إذ كيف للتفسير المسيحي أو التفسير اليهودي أن يوفرا هذه الممالك في المجيء الثاني للمسيح أو المجيء اليهودي الأول؟!. ما هي المملكة الرابعة التي سيأتي على إثرها

(١) يشير إلى عبارات وردت في إشعيا تدل على أن العبد المقصود سيتألم من أجل الناس. وهي في الحقيقة صفة أخرى من صفات النبي محمد كما هو واضح في سيرته مع قومه.

(٢) دائرة المعارف الكتابية: ج ٥، ص ١٦٤

المسيح القادم؟!. لا شيء سوى الاعتساف والتكلف في التأويل. في حين أن هذه الإشارات تكون واضحة متسقة مع مقولتنا التفسيرية.

٣. سفر إرميا:

كان إرميا بن حلقيا من أشد الأنبياء تقريعاً ولوماً لبني إسرائيل. ولا غرابة في ذلك فقد عاصر أسوأ أجيالهم، وشهد أسوأ لحظة في تاريخهم، هي لحظة السبي البابلي. وتلقى منهم أصناف الإهانة والظلم. ولم ير الخلاص إلا على يد الملك البابلي بختنصر نصر الذي أطلق سراحه من دار السجن التي أودعه فيها الملك الإسرائيلي صدقيا!. وقد وردت على لسانه في السفر المنسوب إليه إشارات إلى المسيح الموعود. غير أن إصبع الكتبة المحرفين قد وضعت لمستها المتوقعة على النبوءة في السفر المنسوب إليه، فأضافت عبارتها المفضلة (المسيح من بني داود). إلا أن الحقيقة ستخرج إصبعها من ثقوب التحريف المهلهل كالعادة. جاء في سفر إرميا: «وهذا ما تكلم به الرب إله إسرائيل على أولئك الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بددتم غنمي وطردتموها وما تفقدتموها. فسأعاقبكم على شر أعمالكم وأجمع بقية غنمي من جميع الأراضي التي طردتها إليها وأردها إلى حظائرها، فتثمر وتكثر، وأقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف من بعد ولا تفزع ولا يكون فيها مفقود يقول الرب. ستأتي أيام يقول الرب. أقيم من نسل داود ملكاً صالحاً، يملك ويكون حكيماً ويجري الحق والعدل في الأرض». (ار ٢٣ : ١ - ٥).

يتحدث النص السابق عن أمة مجهولة يعدها الرب لتكون بديلاً لأمة بني إسرائيل. ويقول إن هذه الأمة ستكثر وتثمر.

وكلمتا الإكثار والإثمار هما العلامتان اللتان ترددتا كثيراً في كلام أنبياء الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد للإشارة إلى أمة المسيح الموعود. فجاءت في الأناجيل على لسان النبي يحيى (مت ٣ : ٨)، وعلى لسان عيسى في «مثال الكرامين» الذي سيأتي تفصيله في سياق قادم. ومن الواضح أن العبارة تشير إلى أمة دينية بديلة لأمة بني إسرائيل التي بددت غنم الرب (عباده) ولم تقم بواجبها تجاههما. فمن هي هذه الأمة البديلة الكثيرة المثمرة يا ترى؟.

ليس أمامنا خيارات كثيرة فإما أنها أمة الكنيسة البولسية (المسيحية) كما قد يعتقد المسيحيون، وإما أنها أمة العرب الإسماعيليين، إخوان بني إسرائيل. وترجيح أحد الاحتمالين هو عمل العلامات التالية في النص نفسه:

أولاً: من المفترض أن تكون الأمة البديلة من نسل إبراهيم حتى تنسجم النبوءة مع بقية النبوءات الخاصة بالمسيح الموعود في الكتاب المقدس. فالنصوص السابقة - وخاصة نص التثنية ١٨ - قد جعلت الأمر في نسل إبراهيم. والخلاف بيننا وبين أهل الكتاب هو في تحديد الفرع المقصود من هذا النسل: هل هو فرع إسحاق أم فرع إسماعيل. ومجموع النقاط التي سجلناها في النصوص السابقة تصب في صالح هذا الأخير. وستأتي العلامات النصية تباعاً لترجح هذا الاحتمال أكثر وأكثر. ومن ثم فقد خرجت من المنافسة أمة الكنيسة البولسية!.

ثانياً: من علامات الأمة التي يظهر فيها المسيح أن تكثر وتثمر. وهما صفتان تناسبان العرب أبناء إسماعيل أكثر من غيرهم، لأن

التوراة نفسها قد نصت على ذلك بالقول على لسان الرب لإبراهيم: «أما إسماعيل فقد استجبت لطلبتك من أجله. سأباركه حقاً، وأجعله مثمراً، وأكثر ذريته جداً». (تك ١٧ : ٢٠). وتكرر وعد الرب بتكثير نسل إبراهيم ومباركته في الإصحاح ٢٢ من السفر نفسه، في سياق الحديث عن إسحاق دون أن يربط هذه العلامة بإسحاق كما فعل مع إسماعيل، حيث قال: «بما أنك فعلت هذا وما بخلت بابنك وحيدك، فأباركك وأكثر نسلك كنجوم السماء والرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك مدن أعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض لأنك سمعت لي» (تك ٢٢ : ١٦ - ١٨).

هذه الجملة قيلت في سياق الحديث عن نجاة الذبيح، المختلف على هويته بين المسلمين واليهود. هل هو إسحاق كما يقول اليهود أم إسماعيل كما يقول المسلمون. الجواب يأتي من الواقع نفسه. فالواقع يقول إن هذا الوعد لم يتحقق إلا في بني إسماعيل!. فهم أكثر نسلاً من بني إسرائيل، وهم أكثر إثماراً وبركة من بني إسرائيل. فقد أثمروا بالإسلام حضارة كبرى غيرت وجه العالم منذ ظهورها. وصارت أمة كبيرة كثيرة تضم عرقيات كثيرة اتخذت العربية لغة لها، واتخذت العروبة عنواناً لهويتها الحضارية!. ووصلت بركة النبي محمد إلى كل مكان في العالم. إذ يمكن القول إنه لولا ظهوره في القرن السابع الميلادي لتأخرت الحضارة الحديثة قرونا أخرى!. فدارسو التاريخ يتحدثون عن روابط سببية بين الحضارة الإسلامية من ناحية والأحداث الكبرى التي أدت إلى هذه الحضارة الحديثة أو سببتها. فيربطون بين استعمار المسلمين لأسبانيا

واسطنبول والحروب الصليبية وبين حدوث النهضة الإيطالية وثورة الإصلاح الديني واكتشاف أمريكا. وهذا معنى من معاني البركة والإكثار عمميق الأثر.

٤. سفر حجي:

تحت عنوان مجد الهيكل الجديد في الترجمة العربية المشتركة للكتاب المقدس جاء الإصحاح ٢ في سفر حجي. وهو السفر الذي حظي بجدل خاص بين المسلمين والمسيحيين. بسبب عبارة مشكلة وردت فيه يعتبرها المسلمون شاهداً واضحاً على التحريف الذي وقع في الكتاب المقدس. وقائل هذا الكلام ليس مسلماً عادياً بل هو البرفسور عبد الأحد داود، القس النصراني الذي تحول إلى الإسلام أوائل القرن العشرين. وألف كتاباً نادراً بعنوان «محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى». يدلل فيه على أن الكتب المقدسة قد ذكرت النبي بصفاته المميزة. وأن اسمه قد ذكر نصاً في سفر حجي، لولا أنه تعرض للتحريف المكشوف. والعبارة التي يشير إليها عبد الأحد في سفر حجي هي قوله: «لأنه هكذا قال رب الجنود: هي مرة، بعد قليل، فأزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم. ويأتي مشتهى كل الأمم. فأملأ هذا البيت مجداً، قال رب الجنود. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، قال رب الجنود. وفي هذا المكان أعطى السلام»[1]. (حج ٢ : ٦ - ٩).

(١) الكتاب المقدس، الصادر عن دار الكتاب المقدس بمصر (نسخة Van Dyck).

الجملة كما هو ظاهر تتحدث عن نبوءة مستقبلية يأتي فيها «مشتهى كل الأمم»، وبمجيئة يتزلزل العالم. كما تتحدث عن بيت الرب الذي سيمنح مجداً أكبر من مجد البيت الأول عند مجيء مشتهى كل الأمم!. كما ترد فيها لفظة «السلام» التي تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه لكلمة «إسلام»!. ويقول عبد الأحد داود إن اليهود والمسيحيين يفهمون من هذا النص أنه نبوءة تخص المسيح الموعود. وهو ما تؤكده دائرة المعارف الكتابية المصرية أيضاً[1]. والحقيقة أن العبارات تكاد تنطق باسم محمد بوصفه هذا القادم العظيم الذي سيزلزل العالم ظهوره، وسيكون لبيت الله الجديد في مكة مجداً أعظم من المجد الذي ناله هيكل سليمان، بفضل «الإسلام»!.

إلا أن عبد الأحد يفاجئنا بالقول إن اسم محمد مذكور بلفظه في هذه الجملة، لكن في النص الأصلي للسفر لا في الترجمة المحرفة!. حيث أن عبارة «مشتهى كل الأمم» ليست إلا ترجمة تحريفية للعبارة الأصلية في العبرية التي تنطق هكذا: «في يا فو حمدة كول هاجوييم». وقد ارتكب المترجمون خطأ مقصوداً حين ترجموا إسم «حمدة» إلى معنى «الأمنية»، وترجموا كلمة «شالوم» إلى كلمة «السلام» بهدف طمس الحقيقة المزعجة!. أما العبارة بدون تحريف كما يقول عبد الأحد فهي هكذا: «وسوف يأتي حمدة لكل الأمم ... وفي هذا المكان أعطي الإسلام». ثم يعقب على ذلك بقوله: «حتى لو قال بعضهم إن الجذر العبري (ح م د ة) هو اسم اعتباري معناه: أمنية، أو مشتهى، أو مدح، فإن ذلك يؤيد ما نقول، لأن الصيغة العبرية في

(١) انظر: دائرة المعارف الكتابية، ح، ص ٣٣.

أصلها متطابقة تماما مع الصيغة العربية، وأيا من المعاني تختار لكلمة (ح م د ة) فإن صلتها بـ«أحمد» قاطعة ولا علاقة لها بـ«عيسى»[1]. وما لم يقله عبد الأحد هو أن عبارة «سيأتي لكل الأمم» تصرف النبوءة عن عيسى قطعاً، لأنه - كما تقول الأناجيل نفسها - لم يكن رسولاً للأمم ولم يأت إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة.

واللافت أن عبارة « مشتهى كل الأمم» قد اختفت من الترجمة العربية المشتركة للكتاب المقدس!. فجأءت الجملة السابقة فيها على هذا النحو: «فأنا الرب القدير أقول إني مرة بعد عن قريب، أزلزل السماء والأرض والبحر والبر، وأزلزل جميع الأمم فتأتي كنوزها لملأ هذا البيت مجداً. لي الفضة ولي الذهب، يقول الرب القدير. وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من مجده الأول. وفي هذا الموضع أعطي السلام»!. ويلاحظ أيضا أن الترجمة قد جعلت كلمتي «الأخير» و«الأول» صفتان للمجد لا للبيت!. ولا أدري إن كان هذا نوع من تحريف الترجمة أم لا!.

وتبدو الصلة واضحة بين مضمون هذه النبوءة ومضمون نبوءة المزمور ١٤٩ التي سبق الحديث عنها. وهذا يعزز القول بأن نسبة المزمور المشار إليه إلى النبي حجي صحيحة. وقد سبق الحديث عن البيت الثاني للرب الذي يشير إليه النص ودللنا على أن المقصود به البيت الحرام في مكة. ونص حجي يضيف إلى تلك الأدلة علامة جديدة ولافتة هي أن هذا البيت سيكون غنياً يجبى إليه الذهب والفضة، كناية عن المال. والواقع يقول إن أرض الحجاز ونجد هي

(١) محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى: بروفسور عبد الأحد داود، ترجمة محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ٣٩.

أغنى بلاد المنطقة بالذهب والمال، بثرواتها النفطية والمعدنية. أما إذا قصرنا المعنى على المال الذي يجبى بسبب البيت نفسه، فليس هناك بيت لله اليوم يدر على أهله المال كالبيت الحرام بمكة. يكفي في ذلك رسوم الحج والعمرة التي يدفعها المسلمون في كل أنحاء العالم للمملكة السعودية. وليس هناك اليوم بيت أعظم مجداً من البيت الحرام بمكة.

وليس بوسع المسيحيين القول بأن البيت المقصود هو الهيكل الثاني الذي بني في عهد حجي، كما تزعم دائرة المعارف الكتابية المصرية. لأن الهيكل الثاني لم يكن في مجد الهيكل الأول كما يشير سفر حجي نفسه. وهذا ما أدركه محرر دائرة المعارف الكتابية فاضطر إلى القول بأن عبارة النبي حجي «كان فيها تشجيع لمن رأوا أن البناء الجديد سيكون أقل شأناً من هيكل سليمان، ولكن النبي يؤكد لهم عكس ذلك، بأن مجد هذا البيت الأخير سيكون أعظم من هيكل سليمان»[1]. ومن الواضح أن المحرر يقوم بمحاولة يائسة لسد ثغرة لا تسد. فليس من اللائق بنبي أن يكذب على قومه بدعوى التشجيع!. وليس من المنطقي أن يدون هذا التشجيع في كتاب مقدس!. والحقيقة المتفق عليها تقول إن الهيكل الثاني كان أقل شأناً من الأول، ومن ثم فحديث النبي حجي عن هيكل آخر بمواصفات أخرى لا تناسب فلسطين برمتها.

وهناك إشارات إضافية في سفر حجي ترجح رأينا هذا. منها حديثه عن أن هذا البيت سيبنى في أورشليم قطعاً، وأورشليم

(١) دائرة المعارف الكتابية: ح، ص ٣٢.

كما قال المزمور ١٤٩ - المنسوب لحجي أيضا - لن يدخلها في عهد المسيح القادم نجس أو غير مختون. والمسيحيون جميعاً غير مختونين!. فمن سيعظم البيت ويمنحه مجده إذاً؟!. وسيحتاج اليهود إلى ارتكاب تأويلات متكلفة لتنزيل هذه العلامات على هيكلهم المنتظر!. فهل نتجاهل دلائل الواقع الحي من أجل غيب ظني لا يجزم بحصوله عاقل. وهل نتجاهل التأويل السهل الواضح إلى التأويل الغامض المعقد؟!.

٥. سفر ملاخي:

هو آخر أسفار العهد القديم. وقد وردت فيه نبوءة صريحة عن قرب مجيء «رسول العهد» الذي انتظره بنو إسرائيل. حيث قال: «وقال الرب القدير: «ها أنا أرسل رسولي فيهيئ الطريق أمامي، وسرعان ما يأتي إلى هيكله الرب الذي تطلبونه ورسول العهد الذي به تسرون. ها هو آت. فمن ترى يحتمل يوم مجيئه. ومن يثبت عند ظهوره؟ فهو مثل نار المحص وكصابون القصار». (مل ٣ : ١- ٢).

النص يتحدث عن أن الرب سيرسل رسولاً يهيئ الطريق أمام رسول العهد. وبعبارة أخرى سيرسل رسولاً يبشر بالمسيح الموعود. فمن هو الرسول الذي سيهيئ الطريق ومن هو رسول العهد يا ترى؟. الإجابة المسيحية تقول: الرسول المهيئ للطريق هو يوحنا المعمدان، ورسول العهد هو يسوع المسيح!. جاء في تفسير الكتاب المقدس للقمص تادرس يعقوب تعليقا على هذه الجملة قوله: «كان القديس يوحنا هو الصوت الذي يدوي في البرية ليُهيئ الطريق

للكلمة الإلهية»[1]. وهذا تفسير لطيف لولا أنه لن يصمد أمام امتحان المعطيات الآتية:

أولاً: إن تهيئة الطريق ليست شيئا سوى التبشير بقدوم رسول العهد قبل مجيئه بزمن. أي أن الرسول المهيئ ينبغي أن يسبق رسول العهد في الظهور بمدة. وينبغي أن يشتهر أمره كمبشر برسول العهد. وهذا ما لم يتحقق في حالة النبي يحيى. لأنه والمسيح عيسى قد ولدا في عام واحد. وشراح الكتاب المقدس يقولون إنه لم يقض في خدمة التبشير بيسوع سوى عام واحد. حيث بدأ الكرازة في عام ٢٦م وقتل في العام التالي[2]!. فهل هذا منطقي؟!. إن عاماً واحداً لا يكفي قطعاً لتهيئة الطريق أمام رسول العهد في كل أنحاء فلسطين. فما بالك والمعمدان لم يبرح مكانه في نهر الأردن!. ثم كيف يقال إنه كان يبشر بقدوم عيسى في عبارة «اقترب ملكوت الله» وعيسى نفسه يبشر بالعبارة نفسها؟! فهل كان يبشر عيسى بقدومه مثلا؟!. ولمَ لم تسجل لنا الأناجيل الإزائية نشاطا تبشيريا واضحاً ليوحنا المعمدان بالمسيح عيسى وقد كان من السهل عليه التصريح باسمه علنا ما دام حاضراً بين يديه؟!. وكان من السهل على الأناجيل أن تسجل

(١) موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

(٢) قدم الباحث الفلسطيني بسام جرار في حديث له على اليوتيوب مجموعة قرائن طريفة من القرآن الكريم تشكك في مسألة قتل عيسى أو وفاته في تلك السن. منها أن القرآن يصرح بموته لا بقتله، وكان موته بسلام (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت)، وقد جاء استجابة لدعوة أبيه زكريا بأن يكون له ولد يرثه بعد وفاته، مما يعني أنه لا بد أن يعيش بعد أبيه بمدة من الزمن لا أن يموت معه أو في زمن مقارب لوفاته كما تقول الأناجيل (فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب) (فاستجبنا له)، أخيراً فقد سماه الله يحيى أي «يعيش» من الحياة ولا بد أن للتسمية معنى يتناقض مع معنى القتل في تلك السن التي زعمها كتبة الأناجيل!.

الكثير من أقواله ونشاطاته في الكرازة بالمسيح عيسى!. فلماذا أحاط الغموض بدور يوحنا المعمدان وحياته في الأناجيل القانونية يا ترى؟!.

ومع ذلك فإن العبارات القليلة التي سجلها إنجيل متى من كلام يحيى تصب في صالح مقولتنا التفسيرية لا في صالح مقولاتهم. فقد ذكر متى على لسان يحيى المعمدان قوله إن الله سيقطع شجرة بني إسرائيل المتصلة بالنبوة لأنها أصبحت شجرة غير مثمرة، تماماً كما تنبأ الأنبياء من قبله وكما قال عيسى في زمنه. جاء في متى على لسان يحيى مخاطبا بني إسرائيل: «يا أولاد الأفاعي، من علمكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ أثمروا ثمراً يبرهن على توبتكم، ولا تقولوا لأنفسكم: إن أبانا هو إبراهيم. أقول لكم إن الله قادر أن يجعل من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم. هاهي الفأس على أصول الشجرة، فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تقطع وترمى في النار. أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة، وأما الذي يجيء بعدي فهو أقوى مني، وما أنا أهل لأن أحمل حذاءه. هو يعمدكم بالروح القدس والنار، ويأخذ مذراته بيده وينقي بيدره، فيجمع القمح في مخزنه ويحرق التبن بنار لا تنطفئ». (مت ٣ : ٧ - ١٢).

يحيى يقول لقومه أنتم لم تثمروا ثمراً صالحاً، وتعتقدون أن صلتكم بأبيكم إبراهيم تكفي لنجاتكم من النار أو لاستمرار نعمة الله عليكم، وهذا مجرد وهم. فالله لا يقيم وزناً للأنساب بل للأعمال المثمرة. ولا فرق عنده بين انتسابكم لإبراهيم أو انتساب هذه الحجارة إليه!. أنتم شجرة لم تعط ثمرة النبوة وقد آن الأوان أن

تقطع وتلقى في النار. والنبي يحيى بهذا الكلام يشير إلى كلام الأنبياء من قبله عن شجرة بني إسرائيل التي ستقطع لأنها لا تثمر ثمراً صالحاً ويعطى الملكوت لشعب آخر. وسيتكرر هذا الكلام بصورة أوضح على لسان عيسى في السفر نفسه حيث قال: «لذلك أقول لكم: سيأخذ الله ملكوته منكم ويسلمه إلى شعب يجعله يثمر». (مت ٢١ : ٤٣).

ثانياً: إن التفسير الإسلامي لهذا النص يبدو أكثر تماسكاً ووضوحاً. فالرسول الذي أرسله الله ليبشر برسول العهد هو المسيح عيسى نفسه، الذي قضى فترة رسالته في التبشير بمحمد. ومن القرائن المؤيدة لهذا التفسير: أن لفظ «بشارة» قد ارتبط بالمسيح عيسى من بين جميع الأنبياء، وبها سمي كتابه المقدس: إنجيل، أي بشارة. والمسيح عيسى نفسه في الأناجيل القانونية يصرح بأن مهمته الأساسية هي تهيئة الطريق لملكوت الله القادم. طالبا من بني إسرائيل التوبة قائلا حسب متى: «وبدأ يسوع من ذلك الوقت يبشر فيقول: توبوا، لأن ملكوت السماوات اقترب». (مت ٤ : ١٧). ويطلب من تلاميذه التبشير بملكوت الله الذي اقترب: «لا تقصدوا أرضا وثنية ولا تدخلوا مدينة سامرية، بل اذهبوا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل، وبشروا في الطريق بأن ملكوت السماوات اقترب». (مت ٩ : ٥ - ٧).

ثالثاً: العلامات التي حددها يحيى المعمدان لتمييز هذا القادم الموعود، لا يتوفر أي منها في المسيح عيسى، وهي جميعاً متوفرة في النبي محمد: يقول يحيى «أما الذي يجيء بعدي فهو أقوى مني»،

ولم يكن عيسى أقوى من يحيى، بل العكس هو الصحيح، كان يحيى أشد بأساً على بني إسرائيل من يحيى، وكان يصفهم بأولاد الأفاعي، في حين أن المسيح كان مثل الحمل الوديع كما تقول الأناجيل. وإلى هذا المعنى أشار القرآن حين قال مخاطباً يحيى: يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (مريم ١٢). وعبارة «الذي يجيء بعدي» أيضا لا تناسب عيسى لأنه لم يأت من بعد يحيى بل معه!. والتبجيل الكبير الذي أبداه يحيى لهذا الرسول القادم في عبارة «وما أنا أهل لأن أحمل حذاءه» لا يناسب عيسى، لأن هذا التبجيل لم يظهر لعيسى حتى من تلاميذه الحواريين فما بالك بابن خالته الذي يشاطره النبوة!، وما بالك وعيسى نفسه قد تعمد في النهر على يد يحيى!. وكذلك عبارة «هو يعمدكم بالروح القدس والنار». لا تناسب عيسى، لأنه لم يعمد بالنار بل بالمحبة. والنار هنا كناية عن الأهوال التي سيلاقيها بنو إسرائيل على يده. وليس هناك نبي أتعب بني إسرائيل وعمدهم بالنار سوى محمد!. أما أنبياء بني إسرائيل من بعد سليمان فقد كانوا مستضعفين مقهورين، وكان مصير بعضهم إما القتل أو السجن أو النفي أو العذاب. وعيسى نفسه كاد يلقى حتفه على أيديهم. فكيف يقال إنه هو الذي سيعمد بالنار؟!، وإنه سـ«يأخذ مذراته بيده وينقي بيدره، فيجمع القمح في مخزنه ويحرق التبن بنار لا تنطفئ»؟!.

وهذه العبارة الأخيرة في النص تناسب النبي محمد كثيراً، فهي إشارة ذكية إلى تمييزه - بوحي القرآن - للمنافقين من المؤمنين في المدينة المنورة. فالقمح هنا إشارة إلى المؤمنين، والتبن إشارة إلى المنافقين الذين سيذهبون إلى عذاب الدنيا والآخرة، مصداقاً لقوله

تعالى عنهم: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (التوبة ١٠١). وليس هناك حركة نفاق أحاطت بنبي من أنبياء بني إسرائيل كتلك التي أحاطت بالنبي محمد في المدينة. بل لا يكاد تاريخ بني إسرائيل يعرف نفاق الكفر، لأنهم كانوا يستضعفون أنبياءهم ولا يضطرون إلى نفاقهم. وإذا قرروا الكفر أعلنوه صراحة ولم يبالوا بنبي ولا ملك. هذا إذا صحت تأويلنا لكلمتي القمح والتبن. فهل هناك من نبي في بني إسرائيل أخذ مذراته بيده ونقّى بيدره كما فعل محمد؟!.

أخيراً، لقد كان غرض العلامات الواردة في أسفار الكتاب المقدس أن تميز المسيح الموعود إذا جاء. غير أن موافقتها لحال النبي محمد بأيسر التأويلات الممكنة وأوضحها يعطل هذا الغرض ويجعلها غير ذي جدوى، إذا قيل بأنها تخص مسيحاً يهودياً أو مسيحياً قادماً في المستقبل. إذ ما جدوى علامات يمكنها أن تشير بقليل من الجهد التأويلي إلى شخصين مختلفين؟!.

ويخطر ببالي أن الأقوال التي نسبت إلى يوحنا المعمدان ليست من كلامه بل من كلام المسيح عيسى نفسه. ولعل هذا ما خطر ببال كاتب إنجيل برنابا في القرون الوسطى أيضاً[1]، عندما جعل

(١) يرجح مترجم إنجيل برنابا من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة أن إنجيل برنابا بنسخته الإيطالية قد نسخ عن أصل قديم كتبه يهودي أندلسي تنصر ثم أسلم في عصر الكاتب الإيطالي الشهير دانتي. وأن النسخة الأندلسية قد نقلت عن نسخة أخرى أقدم منها لعلها الإنجيل المعروف بالأغنسطي، لما بينهما من فقرات مشتركة. والباحث يطمئن إلى هذا الرأي أيضا.

عبارة يوحنا الماضية على لسان المسيح عيسى، أعني العبارة التي تقول: «وما أنا أهل لأن أحمل حذاءه».

الفصل الثاني

المسيح يبشر بالمسيح!

إذا أطلقت كلمة «المسيح» في الوسطين الإسلامي والمسيحي فإنها تقليدياً تشير إلى عيسى بن مريم. وذلك باعتبارين مختلفين لدى كل طرف منهما. فهو عند المسيحيين «المسيح» لاعتقادهم بأنه هو المسيح الموعود الذي تنبأت به الكتب المقدسة. وهو عند المسلمين «المسيح» باعتبار أن القرآن قد أطلق عليه هذه التسمية في قوله تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران ٤٥).

غير أن إطلاق هذه الكلمة على عيسى بن مريم بدون احترازات يعد خطأ عند من يعلم حقيقة الأمر. فعيسى ليس المسيح الموعود كما يتصور المسيحيون، أو أنه أحد المرشحين لهذا الوصف وليس المرشح الوحيد!. وكلمة «المسيح» التي وردت في آية آل عمران ليست صفته بل جزءا من اسمه المركب كما تدل آية آل عمران نصاً، قال تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥). المسيح في الآية اسم علم مركب، في حين أن عبارة المسيح الموعود في الكتب المقدسة صفة لشخص من الجائز أن لا يعرف اسمه. إنها عند إطلاقها تشبه كلمة المهدي التي تنصرف عند أهل السنة إلى شخص اسمه محمد بن عبد الله.

وتنصرف عند الشيعة إلى شخص آخر اسمه محمد بن الحسن. ومن ثم وجب الاحتراز في استعمال الكلمة، بحيث لا تطلق مفردة إلا إذا كان المقصود بها المسيح الموعود. أما النبي عيسى فإما أن نذكره باسمه المركب كما ورد في القرآن (المسيح عيسى) وإما أن نكتفي باسمه المميز «عيسى بن مريم» أو «عيسى» أو «ابن مريم». منعا للالتباس والخلط. وهو ما سنفعله في هذه الدراسة.

ومن الغفلة والجهل في هذا الباب اعتقاد بعض الكتاب المسلمين[1] أن الإشارات الواردة في كتب العهد القديم ودراساته تحت عنوان «المسيح» تتحدث عن عيسى ابن مريم. جهلاً منهم بحقيقة أن الكلمة كانت مصطلحاً يهودياً يشير إلى خاتم الأنبياء (حجر الزاوية) الذي بشر به موسى والأنبياء من بعده. وكان عيسى بن مريم هو أصرح المبشرين به وأكثرهم اختصاصاً فيه. بحيث يمكن القول إن حياة عيسى ودعوته قد دارا حول هذه القضية المركزية. على النحو الذي تكشفه السطور التالية.

مرت أكثر من خمسمائة وخمسين سنة منذ الأسر البابلي إلى ظهور عيسى بن مريم، تطورت فيها تحريفات الكتبة الإسرائيليين للنبوءة حتى أصبحت عقيدة سائدة تقول بأن المسيح الموعود يأتي من نسل داود. وهو التحريف الذي سيكشفه عيسى نفسه، ويجهز عليه بالضربة القاضية، في واحدة من أشهر مناظراته مع الفريسيين في الهيكل، كما ترويها الأناجيل الإزائية؛ جاء في رواية متى: «ولما كان الفريسيون مجتمعين معاً سألهم عيسى: ما قولكم في المسيح، ابن من هو؟ فقالوا

(١) مثل د. محمد علي البار في كتابه: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود.

لـه: ابـن داود. قـال لهـم: إذن كيـف يدعـوه داود - بوحـي الـروح القـدس - «سـيدي» لمـا قـال: قـال الله لسـيدي: اجلـس عـن يمينـي حتـى أضـع أعـداءك تحـت قدميـك؟!. فـداود يدعـو المسـيح سـيدي، فكيـف يكـون المسـيح ابنـه؟، ولم يقـدر أحـد أن يجاوبـه بكلمـة. ومـن ذلـك اليـوم لم يتجـرأ احـد أن يسـأله أسـئلة أخـرى» (مـت: ٢٢ : ٤٢)[١].

في هـذه الحادثـة يسـعى المسـيح عيسـى للتحـرش بالفريسـيين[٢] في معقلهـم، ويطـرح عليهـم سـؤالاً مفخخـاً، يعـرف جوابهـم عليـه سـلفاً. لقـد سـألهم عـن نسـب المسـيح المنتظـر، فقالـوا هـو ابـن داود، عندهـا طـرح عليهـم السـؤال الـذي يكشـف تناقضهـم: كيـف يكـون ابـن داود في حـين أن داود نفسـه كان يسـميه سـيدي؟!. وهـذا بالطبـع مخالـف لآداب الشريعـة عندهـم، التـي تعطـي الكبـير احترامـاً مبالغـاً فيـه - خصوصـاً عنـد الفريسـيين - إلى حـد أنـه لا يصـح لصغـير السـن أن يبـدأ الكبـير بالسـلام إذا التقيـا في الطريـق!، فـما بالـك بـأن يقـول الكبـير للصغـير «سـيدي». والمسـيح عيسـى هنـا كان يشـير إلى عبـارة وردت في مزامـير داوود يعتقـد اليهـود - ونحـن معهـم - أنهـا تتحـدث عـن المسـيح الموعـود، بـشيء مـن التوريـة والمجـاز تقـول العبـارة عـلى لسـان داود: «قـال الله لسـيدي: اجلـس عـن يمينـي حتـى أضـع أعـداءك تحـت قدميـك. يمـد الله سـلطانك وقدرتـك مـن القـدس فتتسـلط عـلى

(١) الكتاب الشريف.

(٢) الفريسـيون جماعـة يهوديـة دينيـة متشـددة في التمسـك بفـروض الديـن، وأحـكام الشريعـة والتقاليـد. وكلمـة فريـسي تعنـي «المعتـزل»، ونعتقـد أن الجماعـة التـي عرفـت في التاريـخ الإسـلامي باسـم «المعتزلـة» قـد أخـذت تسـميتها مـن هنـا، لمـا بـين الطائفتـين مـن تشـابه في المنهـج، وتحديـداً في النـزوع إلى العقـل. (أنظـر مـا كتبـه عنهـم الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري في الموسـوعة الصهيونيـة).

أعداءك..» (مز ١١٠)[1]. وليس هناك زعيم في بني إسرائيل بعد داود تسلط على أعدائه سوى سليمان ابنه، لكنه بإجماع اليهود والمسيحيين ليس المسيح المنتظر. فمن يكون هذا العظيم الذي يضع الله أعداءه تحت قدميه؟!. من من الأنبياء - أو القادة - بعد سليمان خاض حروباً مع أعدائه وكسبها غيره؟!. ليس لدى اليهود والمسيحيين من جواب سوى ترحيل المشكلة إلى المستقبل، إلى المسيح الذي لم يأت بعد!.

والمفارقة الطريفة أن هذه المناظرة لا تضع اليهود وحدهم في الزاوية الحرجة بل تضع معهم - وربما قبلهم - المسيحيين في الزاوية نفسها. ذلك لأن إنجيل متى يبدأ بقائمة نسب المسيح عيسى البشري، بهدف وحيد هو القول بأنه من سلالة داود، ومن ثم فهو المسيح الموعود!. والسؤال الذي سيتبادر فوراً إلى ذهن غير المسيحي هو: كيف يزعمون أنه المسيح المنتظر مع أنه هو نفسه قد نفى ذلك في هذه المناظرة الشهيرة، حينما نفى أن يكون المسيح الموعود من نسل داود؟!. ثم كيف يكون لعيسى شجرة نسب بشري مع اعتقادهم بأنه ابن الله أو الله نفسه؟!.

إن أي إجابة متوقعة لا بد أن تكون متكلفة تلوي ذراع المنطق ليا. وبعض دارسي الكتاب المقدس المحدثين يؤكد أن شجرة النسب قد أقحمت على إنجيل متى في وقت لاحق وليست من المتن الأصلي. وقد بدا لهم واضحا أن الذي أقحم شجرة النسب المزعومة قصد ذلك بهدف وحيد هو القول بأن عيسى هو المسيح المنتظر ابن

(١) الكتاب الشريف.

داود. وهي حيلة مكشوفة تحتاج إلى اختراق المنطق لتبريرها[1]. يقول إينوك باول معلقاً على إنجيل متى: «لا يمكن أن يكون الكتاب بالأصل قد بدأ بنسب شخص لم يكن اسمه أو وجوده معروفاً بعد بالنسبة للقارئ. هذا النسب حل محل البداية الأصلية ـ التي بقي منها عناصر، والتي تطابقت مع التعريف بيسوع على أنه «المسيح ابن الله». يتضمن النسب تعريفاً بديلاً هو «ابن داود، ملك اليهود»[2].

ومع ذلك يبدو واضحا أيضاً أن كاتب إنجيل متى كان على وعي كامل بمشكلة المسيح الموعود وهو يكتب سيرة المسيح عيسى. فقد كان حريصاً على أن يظهر عيسى وكأنه موسى الثاني، حتى لو

(١) يحاول شراح الكتاب المقدس إزالة هذا التناقض بتأويلات ركيكة مثل قول بعضهم إن «السيد المسيح هو ابن داود بالجسد وربه بالروح» كما ورد في كتاب «قراءة توضيحية في الإنجيل كما أوحى به الله إلى القديس لوقا» ص ٩٠. أما كتاب «الإنجيل: قراءة شرقية» الذي أعدته نخبة من المختصين الأرثوذكس فيعلق على مناظرة عيسى مع الفريسيين حول المسيح بن داود بالقول: «يطرح سيدنا المسيح هنا سؤالاً محرجاً. فلقد كانت العبارة «ابن داود» اللقب الأكثر شيوعاً للمسيح لدى اليهود، إذ كان يشير إلى أنه سينحدر من سلالة داود، ويصير ملكاً مبجلاً نظيرة]... [كان اللقب «ابن داود» مختلطاً بالسيادة الأرضية والبسالة الحربية، والغزو المادي. إنه يستخدم هذا الاقتباس من الزبور ليدل على أن المسيح ليس ابن داود بهذا المعنى المحدود التافه. [...] كيف يكون سيدنا المسيح رب داود النبي؟ لما أخبر الملاك جبرائيل مريم العذراء (عليها السلام) عن مشروع الله العظيم من أجل مجيء «المسيح»، اضطربت وقالت: «كيف يكون لي هذا؟» ونحن أيضاً نقابل معنى سؤال سيدنا المسيح باضطراب كبير». (ص ٢٦٧ / ٢٦٨). وهكذا يذهب بك الشارح إلى البحر ويعيدك عطشاناً، كما يقول المثل. فقد حاول أن يفسر تناقض عبارة المسيح مع عقيدته (الشارح) فانتهى إلى ما يشبه الاعتراف بالعجز. ونود التنويه هنا إلى أن كلمة «رب» الواردة في المزامير تترجم بمعنى «سيد» وبعض الأناجيل تترجمها هكذا «قال الرب لسيدي» بدلاً من «قال الرب لربي» لولا أن بعض المترجمين يتعمد التلبيس على القارئ ليوهمه بأن المقصود بالربوبية هنا رديف الألوهية!.

(٢) تطور الإنجيل: ص ١٤٥.

احتاج الأمر إلى ارتكاب بعض الحماقات والتناقضات. وهذا ما لفت نظر بعض الدارسين المعاصرين، دون أن يقفوا على تفسيره الصحيح، كالدكتور محمد خليفة حسن أحمد في كتابه «ظاهرة النبوة الإسرائيلية» الذي اقترب كثيراً من أسوار الحقيقة لكن دون أن يدخلها!. حيث كتب تحت عنوان «دور شخصية موسى في رسم ملامح فكرة المسيح» يقول: «.. نجد أن شخصية موسى في التراث اليهودي لعبت دوراً هاما في تحديد بعض ملامح فكرة المسيح التي ذاعت في الفكر المسيحي»[1]. لكن الدكتور خليفة قدم تفسيراً قاصراً للظاهرة حين قال: «السبب الرئيسي في هذا هو أن الجماعة المسيحية في بداية أمرها كانت يهودية في الأصل. ولهذا فبعض اليهود الذين دخلوا المسيحية مالوا إلى تفسير شخصية المسيح عليه السلام وفقاً لخلفيتهم اليهودية ومعلوماتهم الدينية السابقة على دخولهم المسيحية»[2].

إنه تفسير متعجل يكشف إلى أي مدى يمكن أن نفهم الظواهر الدينية على غير حقيقتها، إذا لم نحصل على مفاتيح إسرارها. والعجيب أن لا يفطن الدكتور خليفة إلى حقيقة أن المسيحيين الذين يتحدث عنهم لم يكونوا مسيحيين أصلاً بل يهودا التحقوا بملة عيسى الإسلامية، وأما المسيحية فقد ظهرت على يد بولس بعد وفاة عيسى!. لكنه مع ذلك يستمر في اقترابه من الحقيقة النائمة في قصر مرصود ويقدم عددا من الملاحظات الذكية[3] مثل قوله «أن

(١) ظاهرة النبوة الإسرائيلية، طبيعتها، تاريخها، الموقف الإسلامي منها: د. محمد خليفة حسن أحمد، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٩١، ص ١٥٩.
(٢)المرجع السابق: ص ١٥٩.
(٣) أصل هذه الملاحظات لباحثين غربيين أشار إليهم الدكتور خليفة في كتابه. والباحث الغربي يدرك أسرار كتابه المقدس أكثر من الباحث المسلم الذي وقع تحت تأثير الروايات المظللة المنسوبة إلى النبي محمد وشوشت وعيه الديني.

كتب الأناجيل القانونية المعترف بها بين المسيحيين قدمت شخصية المسيح عليه السلام على أنه نبي»[1] وأن إنجيل متى وسفر أعمال الرسل قد تميزا بتقديم المسيح]يقصد عيسى[على أنه النبي الذي يشبه موسى. وتتفق معهما في ذلك «الرسالة إلى العبرانيين، حيث تقارن الرسالة عيسى بموسى وتشبهه به في بعض المواضع»[2]. يقصد الدكتور خليفة الإشارة إلى حالة التناقض والمفارقة في اعتراف هذه الكتب بنبوة عيسى بن مريم مع أن الكنيسة تقدمه في صورة الإله أو ابن الله صاحب المقام فوق البشري. وليس هناك من تفسير لهذه المفارقة سوى حرص الكتبة على تأكيد أن عيسى هو المسيح الموعود الذي تنبأ به موسى في فترة التيه بسيناء. لقد كانوا مضطرين لإثبات صفة النبوة لعيسى في الأناجيل المحرفة لتحقيق شرط «نبياً مثلك»!.

ثم ينقل الدكتور خليفة ملاحظات بعض النقاد الغربيين حول تعمد كاتب إنجيل متى أن يجعل عيسى مشابها لموسى في عدد من خصوصياته، دون أن يفطن لسرّ ذلك بالطبع. لقد تعمد كاتب إنجيل متى - أو ناقله - أن يكون في طفولة عيسى شبها بطفولة موسى، فألف حكاية أمر حاكم الجليل بقتل الأطفال الذين اقتربوا من سن العامين في بيت لحم، عندما علم بمولد عيسى. كما تعمد اختراع قصة هروب عيسى مع والدته وزوجها يوسف النجار إلى مصر خوفاً من بطش فرعون الجليل (هيرود). ثم عادوا بعد أن جاءتهم الأخبار بوفاته. ليكون هذا الهروب وتلك العودة

(١) ظاهرة النبوة الإسرائيلية: ص ١٥٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٩.

شبيهان بهروب موسى من وجه فرعون مصر وعودته إليها بعد وفاة فرعون الاضطهاد حسب رواية التوراة. ويعلق د. خليفة على ذلك بالقول: «ومن الملاحظ أن مصر كانت المكان المشترك بين موسى وعيسى، وعلة ذلك في رأي بعض المفسرين المسيحيين هو أن يأتي من مصر كما جاء منها موسى. وهذه محاولة للتوفيق بين قصة عيسى وأحد نصوص العهد القديم التي يعتقد بعض المفسرين المسيحيين أن لها علاقة بالمسيح عليه السلام[1]. ففي سفر هوشع ١١ : ١ ترد العبارة التالية: «ومن مصر دعوت ابني» التي يستعيرها متى حرفيا في روايته لقصة المسيح حيث يقول: فقام (يوسف) وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر. وكان هناك إلى وفاة هيرودس. لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني. (مت ٢ : ١٤-١٥)»[2].

ويكمل د. خليفة قائلا: «وهكذا يواصل متى تقديمه للسيد المسيح في صورة موسى الجديد، فيحاول جاهدا المواءمة بين قصة مولدهما وحياتهما فيما بعد. فنجد مثلا أن هناك محاولة للربط بين تجربة الشيطان لعيسى وتجربة الإسرائيليين في الصحراء، فكل الإجابات التي رد بها عيسى على الشيطان مأخوذة من التوراة. ولكي تكتمل الصورة المقارنة يخلط إنجيل متى بين رواية مرقص ورواية القمران الخاصة بهذه التجربة[3]، ويربط بينهما وبين رواية التوراة الخاصة بتجربة الإسرائيليين، والغرض الأساسي من خلط هذه الروايات

(١) يخلط الدكتور خليفة هنا بين المسيح عيسى والمسيح الموعود.
(٢) ظاهرة النبوة الإسرائيلية: ص ١٥٩-١٦٠.
(٣) يشير إلى جماعة مخطوطات قمران التي سيرد ذكرها بعد قليل.

تقديم عيسى في صورة موسى الجديد. ومن الصور الفريدة التي يقدمها إنجيل متى للربط بين عيسى وموسى إضافة صيام الأربعين ليلة إلى الأربعين نهاراً التي صامها عيسى لكي تشابه صيام موسى أربعين يوما وليلة حين تلقى الوصايا العشر. ومنها أيضا أن عيسى لم يكن في الصحراء (التيه) ولكنه أخذ إليها «ثم صعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من ابليس، فبعد أن صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم إليه المجرب..» (مت ٤ : ١-٢) والمقصود من هذا الإشارة إلى أن عيسى كان على جبل مثل موسى (٨ : ٤) وأنه رأى بلاداً كثيرة من على قمة الجبل كما رأى موسى، وأنه أعطي نفس الوصايا التي أعطاها موسى..»[١].

ثم يقول في موضع آخر: «وكما قام موسى بإنجاز بعض المعجزات، نجد الإصحاحين ٨، ٩ من إنجيل متى ينسبان إلى عيسى القيام بعدد من المعجزات يصل عددها إلى عشر معجزات لتقابل معجزات موسى العشر في مصر. وقد أعيد ترتيب هذه المعجزات مع إضافة معجزة مذكورة في وثائق القمران ومعجزتين من عند كاتب متى]...[وسبع معجزات ورد ذكرهن في أنجيل مرقس]... [والسبب في إعادة ترتيب هذه المعجزات ووروداها في إنجيل متى على الشكل الذي هي عليه هو مقابلة هذه المعجزات بمعجزات موسى وتصوير عيسى في صورة تقترب - إن لم تكن تحل - محل شخصية موسى»[٢].

(١) ظاهرة النبوة الإسرائيلية: ص ١٦٠.
(٢) المرجع السابق: ص ١٦٢.

ويبدو أن هذا الغرض لم يعد خافياً على الدارسين المعاصرين لهذه الكتب، حتى لو كانوا من المحسوبين على الكنيسة نفسها. فهذا أستاذ مسيحي آخر هو الأب ميلاد الجاويش، في مشاركة بعنوان «أضواء على سنوات يسوع الخفية» ضمن مؤتمر مسيحي عقد في الشرق، يتحدث عن إنجيل لوقا قائلا: «لا شك في أن لوقا أراد، ليس فقط من خلال زيارة هيكل أورشليم بل أيضا من خلال صمته عن فترة الصبا عند يسوع، أن يقابل يسوع بموسى، ويقدمه للكنيسة موسى جديداً، يحمل الخلاص الجديد. في ذلك إذا غاية لاهوتية ذات شأن»[1]. ومن المعروف أن لوقا هذا هو تلميذ بولس وكاتب أعمال الرسل الذي قدم سيرة بولس في تأسيس المسيحية.

لم يكن الوعي بضرورة مشابهة عيسى لموسى حاضراً على مستوى الأناجيل الإزائية الثلاثة وحدها، فإنجيل يوحنا أيضا كان حريصاً على هذا البعد بما يدل على أنه كان حديث الجميع والشغل الشاغل لهم في ذلك الوقت. نفهم هذا من مثل هذه العبارة التي وضعها على لسان عيسى وهو يقول لأحدهم: «وكما رفع موسى الحيّة في البرية، فكذلك يجب أن يرفع ابن الإنسان» (يو ٣ : ١٤). لقد حشر موسى في هذه العبارة حشراً دون أي دواع سياقية أو منطقية، فقط لكي يتحقق غرض المشابهة بين الرجلين، ويقال إن الأخير هو المسيح الموعود!.

(١) يسوع التاريخي، محاضرات ومقالات نسق لها وقدم لها: الأب أيوب شهوان، سلسلة دراسات بيبلية، الرابطة الكتابية، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٥م، ص ٤٢.

والحقيقة أن دارس الأناجيل يدهش للجهد المبذول من قبل مؤلفيها من أجل تأصيل هذه الفكرة في سيرة المسيح عبر نصوص العهد القديم. فقد كانوا حريصين جداً على القول بأنه هو المسيح الموعود المشار إليه في جميع كتب الأنبياء السابقة. واضطروا في سبيل ذلك إلى صناعة مشاهد وتركيب مقولات لا تمت للحقيقة بصلة. مثل مشهد الصلب الذي حاولوا أن يجعلوه موافقاً لما ورد في الإصحاح ٢٢ من كتاب المزامير كما قال إينوك باول. فالعبارة الشهيرة التي نسبت لعيسى على الصليب «إلهي إلهي لم تركتني» هي بنصها عبارة المزمور ٢٢. والقول بأنه تعرض للسخرية من قبل الشخصين المصلوبين معه، أريد به أن يتوافق مع عبارة المزمور نفسه التي تقول: «يعيرني البشر وينبذني الشعب، كل من يراني يستهزئ بي». وكذلك مشهد اقتسام ثيابه عند الصلب جاء ليوافق عبارة «أوثقوا يدي ورجلي، ومن الهزال أعد عظامي، وهم ينظرون ويتفرسون في. يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون» (مز ٢٢ : ١٩).

لقد كانت ملاحظات الدارسين ذكية بالفعل لولا أن بعضها لم يدرك سرّ هذا الجهد الذي بذله كاتب الإنجيل في تقريب الشبه بين عيسى وموسى. ويتضح من هذا أن مقولة هذه الدراسة قد ساعدت على الكشف عن أمور دقيقة في تحريف رسالة المسيح عيسى، ما كان لها أن تبدو واضحة لولا هذه المقولة!. وهذا يذكرنا بمسألة ليست من صميم موضوعنا لكن لها دلالة عليه غير مباشرة. هي أن بعض الباحثين المعاصرين قد لفت انتباهه وجود عقيدة الثالثوث على شكل بنية نصية في الأناجيل القانونية

أو بعضها. وكأن الكاتب قد تعمد إدراج فكرة الثالثوث في تفاصيل حياة المسيح حتى تبدو المسألة وكأنها ترتيب إلهي بمقتضى الثالوث المقدس نفسه. من ذلك قولهم إن بطرس تلميذ عيسى قد أنكر معلمه ثلاث مرات يوم محاكمة الأخير في بيت رئيس الكهنة قيافا. وإن المسيح خاطبه قبل ذلك ثلاث مرات «يا سمعان ابن يونا أتحبني؟»[1]. وإن المسيح صلى في بستان جسيماني ثلاث مرات ليلة المحاكمة. وأنه بقي في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال كما بقي يونان في جوف الحوت. والروح القدس حل على التلاميذ الساعة الثالثة عصراً من نهار الخميس. ولفقوا عبارة على لسان عيسى تقول إن الذين يشهدون في السماء ثلاثة هم: الروح، والماء، والدم. وإن المسيح قد مر بثلاث تجارب (فتن). والأعياد المسيحية التي خبر عنها ثلاثة. بل إنهم حرصوا على أن يجعلوا حادثة الصلب نفسها لثلاثة أشخاص معا، هم المسيح ولصان بجواره!. وغيرها من التثليثات التي تخللت سيرة المسيح عيسى بصورة تبدو وكأنها طبيعية وتلقائية!.

وهذا يعني أن الكتبة كانوا يعمدون إلى هذه الحيل بوعي كامل منهم. فلا غرابة أن يعمدوا أيضا إلى إدراج بعض القرائن التي توحي بأن عيسى هو موسى الثاني!. ويعني أيضاً أن الكتبة كانوا على مستوى رفيع من المعرفة، وأنهم كانوا بمعارفهم هذه واهتماماتهم أقرب إلى معارف اليونان والرومان منها إلى معارف الساميين. فالاهتمام بالترميز الرياضي والبنية العميقة للنص يذكر بالمدرسة الفيثاغورية اليونانية لا بتعاليم الكهنة الإسرائيليين. والدلالة الأهم

(١) سمعان هو اسم بطرس أشهر لتلاميذ النبي عيسى، وبطرس لقبه.

في هـذا الجانـب هـي أن هـذه المعرفـة العميقـة بالكتـب المقدسـة كـما ظهـرت في الأناجيـل القانونيـة لا يمكـن أن يكـون أصحابهـا هـم تلاميـذ المسـيح البسـطاء، الذيـن يعملـون في صيـد السـمك وجبايـة الضرائـب ومـا شـابه ذلـك مـن المهـن البسـيطة التـي تـدل عـلى أن أصحابهـا لم يكونـوا مـن أهـل العلـم. فكتبـة هـذه الأناجيـل مـن ثـم هـم أسـاتذة مثقفـون يرجـح أن يكونـوا أعضـاء مـن الجاليـة اليهوديـة التـي كانـت في طرسـوس وغيرهـا مـن مـدن آسـيا الوسـطى. خاصـة وأن بولـس نفسـه كان أحـد أبنـاء الجاليـة اليهوديـة في طرسـوس!. ويسـتبعد بعـض الدارسـين معرفـة بولـس نفسـه بهـذه الأناجيـل لوجـود نقـاط اختـلاف بينهـا وبـين الأسـفار المنسـوبة إليـه في العهـد الجديـد.

لكـن مـع ذلـك ينبغـي التنبـه لحقيقـة موازيـة هـي أن حرص متـى على إثبـات نبـوة عيسـى لم يكـن هدفـه مشـابهة موسـى وحسـب. بـل إنـه كان يقـر - مضطـرا - بحقيقـة يعرفهـا قـراء إنجيلـه مـن العبرانيـين في زمنـه[1]، لا يسـتطيع تجاهلهـا. ومـن المعـروف بـأن أتبـاع المسـيح عيسـى المعاصريـن لـه، حسـب الأناجيـل نفسـها، لم يكونـوا ينظـرون إليـه عـلى أنـه المسـيح المخلـص، ولا أنـه ابـن الله والأقنـوم الثـاني في المركـب الإلهـي، كـما تزعـم الكنسـية، وإنـما كانـوا ينظـرون إليـه باعتبـاره نبيـا مـن أنبيـاء الله فقـط لا غـير. وهـو مـا يـصرح بـه متـى والأناجيـل الإزائيـة بالقـول: «فلـما سـمع رؤسـاء الكهنـة والفريسـيون هذيـن المثلـين مـن يسـوع، فهمـوا أنـه قـال هـذا الـكلام عليهـم. فـأرادوا أن يمسـكوه، ولكنهـم خافـوا مـن الجمـوع لأنهـم كانـوا يعدونـه نبيـاً (مـت ٢١ : ٤٥ - ٤٦). وفي لوقـا: «فسـيطر

(١) إذا سـلمنا بـأن إنجيـل متـى قـد كتـب في حـدود العقـد السـابع مـن القـرن الميلادي الأول كـما يرجـح أغلـب المختصين.

الخوف على الجميع، وقالوا وهم يمجدون الله: ظهر فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه» (لو ٧ : ١٦). وجاء في إنجيل يوحنا: «ولكن كثيرين من الجمع آمنوا به، وقالوا: أيعمل المسيح من الآيات حين يجيء أكثر مما عمل الرجل؟!» (يو: ٧ : ٣١).

إنهم يميزون هنا بين المسيح المنتظر (حين يجيء) وبين المسيح عيسى (الرجل). وعبارة يوحنا واضحة في أنه لم يكن بنظرهم مسيحاً، بل كانوا يتحدثون في حضوره عن مسيح آخر يجيء في المستقبل!. والشواهد في العهد الجديد كثيرة في الدلالة على أن عيسى لم يكن في نظر نفسه أو في نظر أتباعه المسيح المنتظر، بل نبياً من الأنبياء[1]. منها ما روته الأناجيل عنه بعد قيامته المزعومة من القبر، عندما خرج من القدس إلى الجليل حيث يوجد حواريوه. وفي الطريق وجد تابعين من أتباعه يتحدثان وقد بدت عليهما ملامح الأسف، فاقترب منهما دون أن يعرفاه[2]، وأجرى معهما الحوار الآتي: «فقال لهما: عماذا تتحدثان؟ قالا له: عيسى الناصري كان نبياً قديراً في الكلام والأعمال في نظر الله وكل الناس، لكن رؤساء أحبارنا وقادتنا أسلموه لحكم الإعدام وصلبوه، ونحن كنا نرجو أنه الذي ينقذ بني إسرائيل». (لو : ٢٤: ١٧-٢١). وكانت الجموع من سكان مدينة القدس حسب رواية الأناجيل تسميه «يسوع النبي»، جاء في متى: «ولما دخل يسوع أورشليم ضجت المدينة كلها وسألت: من

(١) تذكر الأناجيل أن المسيح حين ذهب إلى بلدته الناصرة، استقبله الناس هناك بالرفض فقال لهم: «لا كرامة لنبي في بلدته وبين أقاربه ومع أهله». (الكتاب الشريف: مرقس : ٦ : ٤).

(٢) في دراسة أخرى للكاتب رجح أن يكون المسيح عيسى قد خرج متنكرا من اليهودية.

هـذا؟، فأجابـت الجمـوع: هـذا هـو النبـي يسـوع مـن نـاصرة الجليـل». (مـت ٢١ : ١٠ - ١١).

ذلـك يعنـي أن المسـيح عيسـى لم يخـبر قومـه بغـير ذلـك وإلا لـكان حديـث القـوم لغرابـة الفكـرة وشـدة مخالفتهـا لمألوفهـم. ولـو أن عيسـى قـدم نفسـه أقنومـاً إلهيـا كـما تزعـم الكنيسـة لمـا كان هنـاك مجـال للحديث عـن «يسـوع النبـي» عنـد أتباعـه. لأن صفـة الألوهـة سـتغلب صفـة النبـوة في أذهانـم وقلوبهـم دون شـك. وقـد تجلـت هـذه الحقيقـة أكثـر وأكثـر لـدارسي الكتـاب المقـدس في العـصر الحديـث، أمثـال بيرتـون ل. مـاك، الـذي رأى أن بالإمـكان اسـتخلاص إنجيل الأقـوال[1] أو النسـخة «ك» كـما يسـميها العلـماء مـن داخـل الأناجيـل القانونيـة نفسـها. وذهـب يسـتل هـذا الأنجيـل مـن بـين سـطور الأناجيـل القانونيـة التـي تحكـي جـزءا قصـيرا مـن سـيرة المسـيح عيسـى ويخضعـه للتأمـل والتحليـل. ومـما لاحظـه مـاك أن تلاميـذ يسـوع - الذيـن يشـير إليهـم بـ «أنـاس ك» - كـما يظهـرون في إنجيـل الأقـوال لم يكونـوا مسـيحيين!، ولا نظـروا إلى يسـوع بوصفـه مسـيحاً أو كائنـا إلهيـا. يقـول مـاك: «الأمـر المهـم حـول أنـاس «ك» هـو أنهـم لم يكنـوا مسـيحيين، إنهـم لم يعتـبروا يسـوع «مسـيا» أو المسـيح، ولم يأخـذوا تعاليمـه عـلى أنهـا حكـم خـلاصي عـلى اليهوديـة. إنهـم لم يعـدوا موتـه موتـاً مقدسـاً أو حدثـاً مأسـاوياً، ولم يتخيلـوا حتـى أنـه قـام مـن بـين الأمـوات كـي يسـيطر عـلى عـالم متغـير. بـدلا مـن ذلـك عـدوه معلـماً [...] ولذلـك لم يجتمعـوا كـي يتعبـدوا باسـمه، أو يمجـدوه كإلـه، أو ليحتفـوا بذكـراه في تراتيـل وصلـوات وطقـوس.

(١) يقصـد أقـوال المسـيح عيسـى، باعتبارهـا هـي الأنجيـل الصحيـح للمسـيح، في حـين أن الأناجيـل القانونيـة ليسـت سـوى كتـب في السـيرة والتاريـخ.

إنهم لم يشكلوا عبادة المسيح كتلك العبادة التي انبثقت وسط التجمعات المسيحية المألوفة لدى قراءة رسائل بولس. إن أناس «ك» كانوا أناس يسوع، وليسوا مسيحيين»[1].

إذا ما أضفنا إلى ملاحظة ماك الذكية هذه ملاحظات أخرى عن وجود اختلاف بين أقوال الكنيسة وأقوال بولس في رسائله وكتابات تلاميذه، فهذا يعني أن الإيمان المسيحي قد تطور على مرحلتين من التحريف. المرحلة الأولى وضع أساسها بولس وتلاميذه، والمرحلة الثانية وضعتها الكنيسة نفسها. فقد لاحظ العديد من الدارسين أن بولس لم يقل في رسائله أبداً إن المسيح هو الله، بل كان يذكره بلفظ الرب (السيد)، ولم يقل بصريح العبارة إن الله والمسيح عيسى إله واحد. ولم يقل قط إن المسيح عيسى يساوي الله في الجوهر. ولم يذكر الثالوث المسيحي مجتمعاً في موضع واحد. بل إنه على العكس من ذلك يعترف بأن الله (الآب) هو الأعظم، والأول، والخالق والقادر. ثم من بعده يأتي المسيح عيسى مفتقراً إلى الآب، محتاجاً له طوال الوقت. وهذا يعني أن العقيدة الكنسية المعروفة اليوم ليست بكاملها من تأليف بولس. ويبدو أن مقامه في التحريف كمقام غلاة الصوفية في النبي محمد، وغلاة الشيعة في أئمتهم المعصومين. حيث يرفعونهم فوق مقام البشر وأدنى من مقام الإله. ثم جاء آباء الكنيسة من بعد ذلك ورفعوا السقف إلى منتهاه فإذا بعيسى إله كامل الدسم.

(١) الإنجيل المفقود، كتاب «ك» والأصول المسيحية: بيرتون ل. ماك، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٩.

إن من يدقق في سيرة المسيح عيسى عبر الأناجيل القانونية المعتمدة لدى المسيحيين يمكنه أن يلحظ ذلك الخيط الرفيع من الحقيقة التي حاول المحرفون إخفاءه. أسميه خيطاً رفيعاً على سبيل التجوز فقط، وإلا فهو أكثر الخيوط وضوحاً فيها. أعني خيط البشارة بالنبي محمد؛ البشارة التي كانت هي المهمة الرسمية للمسيح عيسى، والتي من أجلها سماه الله «مسيحاً» فيما نظن[1]. والتي بسببها قدم للمحاكمة وكاد يفقد حياته مصلوباً. كما قتل من قبله عدد من الأنبياء للسبب نفسه كما يذكر سفر أعمال الرسل![2]. ومنذ اللحظة الأولى للتعرف على المسيحية لا بد أن تسمع كلمة «إنجيل» وهي كلمة يونانية تعني «البشارة» أو «النبأ السار». فما هذه البشارة التي أصبحت علماً على مهمة المسيح عيسى وكتابه المقدس؟!. الجواب في القرآن يأتي في إشارة خاطفة يحملها قوله تعالى على لسان المسيح: «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (الصف ٦). هذا هو إنجيل المسيح عيسى، التبشير بقدوم المسيح المنتظر المذكور في كتب الأنبياء. أو بمملكة الله كما يسميها الكتاب المقدس!.

(١) مما يستحق الملاحظة أن القرآن يجعل لفظة المسيح اسمًا لعيسى لا وصفاً له «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين» (آل عمران ٤٥). ومن المعروف أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون مسيحاً بالوصف لا بالاسم!، وكأن الله قد أراد تهيئة الأذهان للبشارة التي سيحملها عيسى عن المسيح المنتظر.

(٢) من أشهر الأنبياء الذين قتلوا على يد الإسرائيليين النبي إشعياء. واللافت أن السفر المنسوب إليه في الكتاب المقدس هو أكثر أسفار العهد القديم حديثاً عن المسيح الموعود.

لقد قال عيسى في الأناجيل بكل وضوح إن مهمته الأساسية التي أرسل من أجلها هي التبشير باقتراب مملكة الله – التي تترجمها الأناجيل الناطقة بالعربية إلى ملكوت الله![1] – وعبارة مملكة الله في عرف اليهود هي كناية عن الإسلام والأمة المحمدية. وهذا ما تفيده الجملة التي وردت في كتاب كعب الأحبار لإسرائيل ولفنسون حيث قال هذا الأخير: «وكذلك نعلم من رسالة العالم سليمان بن يروحام القرآني، الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر للميلاد بالقدس، أن اليهود أطلقت لهم حرية الدخول والسكنى ببيت المقدس، حين ظهور ملكوت إسماعيل»[2]. وبدهي أن عبارة الحبر اليهودي تمثل رأيا سائداً عند اليهود. وفهم اليهود لهذه العبارة هو المعتمد وليس فهم الكنيسة، لأنهم أصحاب العهد القديم الذي قامت على أساسه المسيحية. وقد أكد الكتاب المقدس مراراً بأنه سوف ينزع هذا الملكوت من بني إسرائيل ويعطيه لأمة غبية - أو جاهلة – تؤدي ثمره. جاء في متى: «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله سينزع من أيديكم ويسلم إلى شعب يؤدي ثمره» (مت ٢١ :٤٤). وجاء في لوقا: «وخرج يسوع في الصباح، فذهب إلى مكان قفر، وبحث عنه الناس، فلما وجدوه تمسكوا به لئلا يرحل عنهم. فقال لهم: يجب علي أن أبشر سائر المدن بملكوت الله، لأني لهذا أرسلت» (لو : ٤ : ٤٢). وعبارة «لأني لهذا أرسلت» تدق مساراً آخر في نعش الإيمان الكنسي الذي زعم أن الأب الإلهي قد أرسل ابنه الوحيد ليكفر عن الخطيئة الأصلية للإنسان!.

(١) ترد العبارة مملكة الله في بعض الأناجيل المكتوبة بالإنجليزية مثل نسخة الملك جيمس، لكنها تترجم في الأناجيل العربية إلى عبارة «ملكوت الله».

(٢) كعب الأحبار، مسلمة اليهود في الإسلام: إسرائيل ولفنسون، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الثانية ٢٠١٦، ص ٤٢.

في عبارة متّى السابقة يقول إن ملكوت الله سينزع من بني إسرائيل ويسلم لشعب آخر يؤدي ثمره. وفي عبارة لوقا يقول إنه ما أرسل إلا لهذه المهمة، مهمة التبشير بنبي الشعب الذي يؤدي ثمرة الوحي والكتاب السماوي. وهو يشير هنا إلى ما ورد على لسان موسى في سفر التثنية ٣٢ : ٢١، الذي عدد فيه معاصي بني إسرائيل للرب حتى وصل إلى قوله: «أثاروني بمن لا إله هو، وكدروني بأصنامهم الباطلة، وأنا سأثيرهم بشعب لا شعب هو وأكدرهم بقوم جهلاء»[1]. أي سأغيضهم بتحويل الملكوت إلى شعب لا يعرف الكتاب. فمن هم هؤلاء القوم الجهلاء أو الأمة الغبية التي يشير إليها موسى؟!. ليس هناك سوى الجوييم (الأمميين، الأميين، الجهلاء) الذين لا يعرفون كتاباً سماوياً!. وليس هناك أمة بهذه الأوصاف بجوار اليهود سوى أمة العرب التي يوصف عصرها قبل الإسلام بالعصر الجاهلي. ولا يصح القول إن المقصود بهذا مملكة يسوع المسيح الذي سيجيء في آخر الزمان، لأن يسوع نفسه حسب سفر يوحنا يصرح بأن مملكته ليست دنيوية حيث قال: «مَا مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لدافع عني أتباعي حتى لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. لا، ما مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا».» (يو ١٨ : ٣٦). هذه عبارته حسب الترجمة العربية المشتركة للكتاب المقدس. والمدهش أن ترجمة الفندايك ستضيف من عندها عبارة بسيطة لكنها تحرف المعنى كلياً بما يتفق مع العقيدة الصهيونية، حيث أضافت عبارة «ولكن الآن» قبل العبارة

(١) في نسخة دار الكتاب المقدس المصرية VanDyck وردت: «فأنا أغيرهم بما ليس شعبا، بأمة غبية أغيضهم».

الأخيرة في الجملة فجاءت هكذا: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا» (يو ١٨: ٣٦).

لقد أضيفت عبارة «ولكن الآن» لكي توحي بأن عيسى قد نفى أن تكون مملكته دنيوية في مجيئه الأول فقط، أما في مجيئه الثاني فهي مملكة دنيوية، وينبغي التحضير لها من ثم!. لكن الطريف أن ترجمة الفندايك هي المعتمدة عند الأرثوذكس العرب، وهؤلاء لا يعتقدون بالمجيء الثاني للمسيح عيسى لإقامة امبراطورية يحكمها المسيح. فهم مع الكاثوليك يعتقدون أن مجيئه الثاني سيكون يوم القيامة فقط. وحسب هذا الاعتقاد فلا معنى للحديث عن انتقال الملكوت لأمة أمية!. فهذا لا يكون إلا في الدنيا. وهذا يرجح سلامة القراءة البروتستانتية للكتاب المقدس، لأنها توفر اتساقاً ملحوظاً للنبوءات الدينية أكثر من غيرها. لكنها مع ذلك تعاني من فجوات خطيرة لا تلتئم إلا بالقراءة الإسلامية. لذا يمكننا القول إن خطوة الإصلاح الديني البروتستاتني كانت خطوة باتجاه الإسلام من ناحية، وخطوة باتجاه الصدام معه من ناحية أخرى!. إنه صدام القراءات الحرفية مع بعضها حين تتناقض بوضوح!.

ثم يبلغ الوضوح درجة أعلى في الجملة الذهبية التي نقلها إنجيل يوحنا على لسان المسيح يخاطب حواريه في آخر أيامه، ويحاول تطييب خواطرهم المفجوعة من خبر ذهابه عنهم، حيث قال: «صدقوني من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي. أما إذا ذهبت فأرسله إليكم. ومتى جاء وبخ العالم

على الخطيئة والبر والدينونة]...[عندي كلام كثير أقوله لكم بعد، ولكنكم لا تقدرون الآن أن تحتملوه. فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث. سيمجدني لأنه سيأخذ كلامي ويقوله لكم» (يو ١٦ : ٧ - ١٦).

المسيح عيسى بهذا الكلام يتحدث عن شخصية أخرى لا عن مجيء آخر له. فمن هو هذا المعزي يا ترى؟.

يزعم بعض شراح الإنجيل إن المعزي المقصود هو الروح القدس!. وهذا هروب واضح ومحاولة فاشلة للالتفاف على الحقيقة. الحقيقة الواضحة التي تقول إن المعزي المقصود هو النبي الخاتم الذي بشر به موسى. فهو المعزي الذي وبخ العالم على الخطيئة والبر والدينونة. وليس بالإمكان القول بأن المعزي هو الروح القدس، لأن العبارة تدل على أن المعزي المنتظر شخصية ذات مقام أرفع من مقام المسيح عيسى نفسه. والروح القدس ليس كذلك في الإيمان المسيحي!. المعزي في عبارة عيسى الماضية شخص يعمل ما لم يستطع عيسى نفسه أن يعمله. فهو «متى جاء» سيرشد الناس إلى الحق كله، وكأن عيسى لم يستطع فعل ذلك!. وسيأتي بكلام جديد لن يحتمل تبعاته تلاميذ المسيح عيسى إذا سلموا به (ولكنكم لا تقدرون الآن أن تحتملوه). وما داموا لن يحتملوا تبعاته أو فهمه من عيسى نفسه، فلن يحتملوه من الروح القدس من باب الأولى لأنه أقل مقاما في رتبة الألوهية من عيسى نفسه. كما أن المعزي إذا جاء لن يقول كلاما من عنده بل يتحدث بما يسمع،

وهـذا لا يليـق بأقنـوم إلهـي بـل بنبـي!. أخـيراً فـإن مجـيء الـروح القدس لا يحتـاج إلى ذهـاب عيسـى في الحقيقـة، فليـس لذلـك أي مـبرر منطقـي يتفـق مـع سـيرة المسـيح في الأناجيـل نفسـها. وليـس هنـاك أي مـؤشرات سـابقة تـدل عـلى أن الـروح القـدس كان موضوعـا للتبشـير لـدى المسـيح عيسـى. إن هـذا التعقيـد الظاهـر في التفسـيرات المسـيحية ليـس إلا ثمـرة طبيعيـة لغيـاب الحقيقـة أو تغييبهـا عـلى الأصـح.

وكان عيسـى بـن مريـم قـد صرح أيضـاً - حسـب الأناجيـل القانونيـة - بـأن بشـارته هـذه إنـما هـي لبنـي إسرائيـل وحدهـم، حيـث قـال: «مـا أرسـلني الله إلا إلى الخـراف الضالـة مـن بنـي إسرائيـل». (مـت ١٥:٢٤). وهـي عبـارة أخـرى تـضرب مسـمارين في نعـش عقيـدة بولـس التـي تبنتها الكنيسـة. المسـمار الأول في عبارة «أرسـلني الله» التي تناقض مقولة التجسـد الإلهـي، فهـو مجـرد رسـول من رسـل الله كـما يقـول القـرآن. والمسـمار الثاني جـاء في عبـارة المسـيح التـي تنفـي أن يكـون قـد أرسـل للأمم الأخـرى كما تزعـم الكنيسـة. لقـد كانـت عبـارة عيسـى هـذه مـن الشـيوع والانتشـار بـين أتباعـه في القـدس بحيـث لا يسـتطيع كاتـب الأناجيـل تجاهلهـا. وهو الأمـر الـذي شـكل تحديـا لبولـس مؤلـف المسـيحية. خاصـة وأن بطـرس حـواري المسـيح المعـروف في القـدس وخـارج فلسـطين كان يؤكـد عـلى مقولـة معلمـه هـذه. والحواريـون ماضـون عـلى نهجـه بالطبـع. وقـد أدرك بولـس هـذه الورطـة في حينـه، فكيـف يخـرج منهـا يـا تـرى؟!. لم يجـد أمامـه غـير القـول بـأن يسـوع الـذي صعـد إلى السـماء قـد أرسـله للتبشـير بـين الأمـم غـير اليهوديـة، في حـين أن بطـرس - وتلاميـذ المسـيح الآخريـن- مختصـون بالتبشـير بـين اليهـود![1].

(١) انظر: غلاطية: ٢: ٨-١٠.

إلا أن هذه التلفيقات لم تستطع الإجابة على سؤال مثل: إذا كان المسيح عيسى قد ادعى فعلا بأنه المسيح الموعود، فلا بد أن هذه الدعوى كانت موضوع بشارته الأساس. ولا بد أن تظهر بوضوح في إنجيل الأقوال تحديداً. فلماذا لم تظهر فيه؟!، ولماذا لم يكن هذا هو موضوع مناظراته ومحاوراته بلغة صريحة واضحة؟. والذي يظهر لنا من إنجيل الأقوال أمر مختلف عن هذا. لقد كان دقيقاً جداً ما قاله بيرتون ماك - الذي استخرج إنجيل الأقوال من بطن الأناجيل القانونية - حين قال إن الناظر في هذا الإنجيل يلمح صورة مختلفة لأتباع المسيح غير التي تقدمها الكنيسة لهم. وقال بصريح العبارة إن أتباع المسيح عيسى لم يكونوا مسيحيين![1].

لكن لماذا اقتصرت مهمة المسيح عيسى على التبشير بمملكة الله في أوساط بني إسرائيل يا ترى؟.

هناك سببان على الأقل، أولهما أن بني إسرائيل هم الأمة التي اختصت بحمل البشارة من بدايتها مع موسى، وانشغلت بها طوال تاريخها، وكان المعول عليها أن تعرف بها الأمم الأخرى، باعتبارها الأمة «الشاهدة» حتى مجيء النبي الخاتم. ولفظ «الشاهدة» مستعار من قاموس القرآن الكريم، الذي يبدو أن له فلسفة خاصة في هذا اللفظ - بمشتقاته المختلفة - لم يفطن إليها الدارسون بعد. فالقارئ المتدبر للقرآن يلحظ أنه قد استعمل لفظ «شهداء» ليدل على وظيفة زمنية يقوم بها الأفراد أو الجماعات. حيث يخاطب أهل الكتاب بالقول: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ

(١) انظر: الإنجيل المفقود، كتاب «ك» والأصول المسيحية، ص ٩.

آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (آل عمران ٩٩). وكأن الآية تقول لأهل الكتاب: لِمَ تقومون بعكس وظيفتكم التي أهلناكم لها؟!. لقد اصطفيناكم لحمل مشعل التبشير برسالات السماء فلم تصدون الناس عن هذا السبيل؟!. ولفظ «شهداء» من الشهادة وهي الحضور، قال تعالى: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ»، أي فمن حضر الشهر فليصمه. والحضور في سياق الآية الماضية سيحمل معنى غير حسي بالتأكيد. إنه أقرب لمعنى الاختصاص في الشأن. وهذا المعنى يتكرر في آيات عديدة من القرآن، من أدلها عليه قوله تعالى في مخاطبة أصحاب النبي محمد: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة ١٤٣). إنها وظيفة الشهود التي تُذّكِر بوظيفة «الخدمة» في عرف الكنيسة الأرثوذكسية.

كان عيسى يوجه تلاميذه للقيام بهذه المهمة في مدن بني إسرائيل وبلداتها بوصفهم شهداء على الأمم من أيام جدهم يعقوب، جاء في متى: «وأرسل يسوع هؤلاء التلاميذ الأثنى عشر، وأوصاهم قائلاً: لا تقصدوا أرضاً وثنية ولا تدخلوا مدينة سامرية، بل اذهبوا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل، وبشروا في الطريق بأن ملكوت السماوات اقترب» (مت : ١٠ : ٥). ويعلن في مرقص أن زمن ظهور المسيح المنتظر قد تم وأصبح وشيكا: «وبعد اعتقال يوحنا، جاء يسوع إلى الجليل يعلن اقتراب تحقق بشارة الله، فيقول: تم الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر : ١ : ١٤). أي آمنوا بالبشارة التي بشرت بها!.

أما السبب الآخر فهو أن موضوع البشارة لا يصلح للنشر في أرجاء المملكة الرومانية التي كانت تحكم المنطقة آنذاك. لأن موضوع البشارة يتضمن نبوءة بزوال دولة الرومان نفسها. وعبارة «تم الزمان» التي وردت على لسانه تشير إلى هذا المعنى تحديدا. وهو معنى يفهمه اليهود جيداً، لأنه كان مشتهراً بينهم منذ تحدث به النبي دانيال في الأسر البابلي، عند تفسيره لرؤيا نبوخذ نصر التي رأى فيها تمثال الممالك الأربع. فتمام الزمان يعني اكتمال زمن الدولة الرابعة في الرؤيا؛ الدولة الرومانية التي رمز إليها بالقدمين من الحديد المختلط بالخزف. وقد ظهر عيسى في زمن هذه الدولة القوية التي ستضعف في نهايتها. فما قصة هذه الرؤيا يا ترى؟.

في السنة التاسعة عشرة[1] من حكمه (٥٨٦ ق.م) قرر الملك البابلي نبوخذ نصر غزو مملكة يهوذا في جنوب فلسطين. وبعد مناوشات قصيرة احتل المملكة وأخذ الملك يوياقيم والأمراء والشعب اليهودي أسرى إلى بابل. وهناك أصبح الجميع عبيدا يعملون في السخرة، كما كان أجدادهم في عهد رمسيس الثاني بمصر. وقد طلب الملك من مساعديه أن يجهزوا له مجموعة من أولاد الأمراء الإسرائيليين ليخدموا في قصره، على أن يكونوا من أصحاب الفهم والثقافة الرفيعة والطلة المقبولة[2]. وبعد فحص

(١) يطل هنا الرقم ١٩ مرة أخرى مرتبطا بأحداث تخص بني إسرائيل. وكان باحثون قد ذكروا العديد من موافقات هذا الرقم لتاريخ بني إسرائيل. الطريف أن جمع المصفوفات للسنة التي غزا فيها نبوخذ نصر مملكة يهوذا (٥٨٦ ق.م) هو أيضاً الرقم ١٩ (٦ + ٨ + ٥ = ١٩). ومن ذلك أيضاً أن فرعون موسى (رمسيس الثاني) من ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وجمع المصفوفات لتاريخ توليه الحكم (١٢٧٩ ق.م) هو أيضاً الرقم ١٩ (٩ + ٧ + ٢ + ١ = ١٩)!.
(٢) أنظر: سفر دانيال .

وتدقيق اختاروا له ثلاثة شبان، كان من بينهم الشاب الصبوح دانيال، الذي صار لاحقاً نبياً مؤيداً من قبل الله، في قصة تذكر بقصة جده يوسف في مصر.

كان النبي دانيال قد عرف في القصر بقدرته المذهلة في تفسير الأحلام، مثل جده القديم يوسف. وهي الموهبة التي لعبت دوراً مهماً في حياته وحياة بني إسرائيل من بعد. وفي إحدى الليالي أخلد الملك البابلي إلى النوم، وهناك رأى حلماً أزعجه جداً، حتى إذا جاء الصباح طلب كل مفسري الأحلام والمنجمين والسحرة الذين في مملكته، لتفسير ذلك الحلم العجيب. ولما مثلوا بين يديه قالوا له: قص علينا الحلم يا جلالة الملك لنأتيك بتفسيره. إلا أن جلالة الملك كان له رأي آخر، إذ قال لهم: ليس هكذا، بل أنتم تخبرونني عن الحلم وتفسيره معا، وإلا قتطعتكم إربا إربا وجعلت لحومكم في المزابل!. أصيب السحرة والمنجمون بالصدمة، وقالوا له: لا يوجد شخص على ظهر الأرض يستطيع فعل ذلك يا جلالة الملك. لكن هيهات أن يتراجع رجل خرافي الشخصية مثل نبوخذ نصر. فأمر بسوقهم إلى ساحة الإعدام تقطيعا وحرقا، وكأنما يقول في نفسه إن هذا الجيش من السحرة والمنجمين إذا لم يكن قادراً على معرفة رؤيا فلا جدوى من بقائه في مملكتي!. ووصل الخبر إلى دانيال الذي كان يعمل خادماً في مطبخ القصر. فطلب من أحد المقربين أن يخبر الملك بأنه مستعد للقيام بالمهمة المطلوبة، ويرجوه أن يكف عن قتل المنجمين والسحرة. وقد وافق الملك على العرض، فذهب دانيال يطلب العون من الله قبل المثول بين يدي الملك صباح اليوم التالي. ونترك بقية القصة لسفر دانيال نفسه، الذي سيضعنا أمام مفاجآت حقيقية:

قال دانيال: «السر الذي طلبته يا جلالة الملك، لا يقدر الحكماء ولا الحواة ولا السحرة، ولا من يمارسون العلم بالغيب أن يكشفوه لك. لكن يوجد إله في السماء يكشف الأسرار، وقد أظهر للملك نبوخذ نصر ما سيحدث في الأيام المقبلة. فهذا الحلم الذي رأيته وأنت راقد في فراشك، هذه هي الرؤيا: أيها الملك حين كنت راقداً في فراشك، اتجه فكرك إلى المستقبل، وكاشف الأسرار أظهر لك ما سيحدث. وقد كشف هذا السر لي. لا لأني أحكم من باقي البشر، بل لكي تعرف التفسير أيها الملك، وتفهم ما دار بفكرك.. أيها الملك أنت نظرت فرأيت أمامك تمثالاً كبيراً وضخماً وباهراً جداً، ومنظره رهيب. رأس هذا التمثال من ذهب نقي، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه خليط من حديد وخزف. وبينما أنت تنظر انقطع حجر من الجبل من غير ما تلمسه يد إنسان، وضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما فتحطم الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كتبن البيدر في الصيف، وذرتها الريح حتى لم يبق لها أثر. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها.. هذا هو الحلم، والآن نفسره للملك: أنت يا جلالة الملك أعظم الملوك لأن رب السماء أعطاك مملكة وقوة وقدرة وجلالاً وأعطاك البشر حيث كانوا والوحوش وطيور السماء. وسلطك عليها كلها، فأنت هذا الرأس الذي من ذهب. وتقوم بعدك مملكة أخرى أقل شأناً من مملكتك. وبعدها مملكة ثالثة تسود على كل الأرض، ولكنها من نحاس. وأخيراً مملكة رابعة قوية كالحديد لأن الحديد يحطم ويكسر كل شيء. فكالحديد الذي يحطم، كذلك هذه المملكة

تسحق وتحطم كل تلك الممالك. وأنت رأيت أن القدمين والأصابع وهي خليط من خزف وحديد، فهذه المملكة تكون منقسمة. ومع ذلك فيها قوة الحديد، كما رأيت الحديد مخلوطاً بالخزف. وكما أن أصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف، كذلك هذه المملكة يكون بعضها قوياً وبعضها سريع الكسر. وكما رأيت الحديد مخلوطاً بالخزف، فإن شعوب هذه المملكة تكون خليطاً لكنها لا تتحد معاً، كما لا يتحد الحديد مع الخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم رب السماء مملكة لا تسقط أبداً ولا يستولي عليها شعب آخر، بل تحطم وتبيد كل تلك الممالك، أما هي فتبقى إلى الأبد. فهذا هو معنى رؤيا الحجر الذي انقطع من الجبل من غير ما تلمسه يد إنسان، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب.. الله العظيم أظهر للملك ما سيحدث في المستقبل. الحلم صحيح وتفسيره صادق. عند ذلك رمى نبوخذ نصر نفسه على الأرض وسجد لدانيال، وأمر أن يقدموا له قرباناً وبخوراً. وقال الملك لدانيال: حقاً إن إلهكم هو إله الآلهة، ورب الملوك، وكاشف الأسرار..»[1] (دا ٢ : ٣١ - ٤٤).

يبدو أن الملك البابلي العظيم كان مشغولاً بسؤال المصير، مصير مملكته، مثل كل الملوك والرؤساء. ويبدو أنه قد طرح على نفسه سؤالاً ملحاً يقول: هل يأتي في المستقبل من هو أعظم منك سلطاناً وملكاً ؟!، وفي النوم جاءته الإجابة، في صورة تمثال عجيب، صنع له فيما بعد مجسماً في وسط العاصمة طوله ستون ذراعاً وعرضه ستة أذرع، وأمر الناس بعبادته!. وهي الرؤيا التي سيصبح لها دورا كبيرا في تفسير تاريخ الشرق الأوسط، وفي تأييد رسالة النبي محمد تحديداً.

(١) الكتاب الشريف.

لقد عني دارسو الكتاب المقدس بسفر دانيال - وبرؤيا التمثال تحديداً - عناية خاصة. فتفسير الرؤيا مثير للغاية، وسفر دانيال يضع نفسه في مواجهة التاريخ، فإما يكذبه وإما يصدقه. النبي دانيال يتحدث عن أربع ممالك كبيرة ومتعاقبة تشكل تمثالاً واحداً، تبدأ بمملكة بابل، وتنتهي بمملكة حديدية يختلط قدماها بالخزف، ثم - وهو الأهم - تأتي على إثر هذه المملكة الحديدية الرابعة مملكة الرب التي ستطيح بالمملكة الرابعة وتبقى إلى نهاية العالم. إنها مملكة من جنس آخر غير جنس المعادن التي تشكلت منها الممالك الأربع السابقة في التمثال. تبدأ على شكل حجر صغير غير مهذب، يسقط من الأعلى على قدمي التمثال. أي على نهاية عصر المملكة الرابعة. فيصبح التمثال برمته رمادا تذروه الرياح. ثم تكبر مملكة الرب، إلى أن تصبح أمة عظيمة باقية إلى الأبد. وكان لا بد أن ينشأ السؤال الآتي: ما الممالك الثلاث التي ستعقب مملكة بابل وتسبق مملكة الرب في منطقة الشرق الأوسط؟!. لأن معرفة الممالك الثلاث التالية لمملكة بابل هي التي ستحدد زمن ظهور المسيح الموعود. وتحديد هوية هذه الممالك ليس بالأمر العسير طبعا، لأن التاريخ قد احتفظ لنا بالإجابة دون شك، فما الذي قاله شراح الكتاب المقدس يا ترى؟!.

لقد اتفق أكثر[1] مفسري الكتاب المقدس على أن تمثال الرؤيا يرمز إلى أربع ممالك متعاقبة هي: ١. مملكة بابل، التي يرمز إليها بالرأس الذهبي. ٢. مملكة فارس التي تكونت من الفرس والميديين، ويرمز إليها بالصدر والذراعين من الفضة. ويرى البعض

(١) أنظر: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد.

أن الذراعين يشيران إلى كونها مملكة مكونة من شعبين هما الفرس والميديين ٣. مملكة الإغريق، التي أسسها الإسكندر المقدوني، ويرمز إليها بالبطن والفخذين من النحاس. ٤. مملكة الرومان القوية، التي يرمز إليها بالساقين الحديديين في مرحلتها الأولى، ثم بالقدمين الحديديين المختلطين بالخزف في مرحلتها الأخيرة قبل مجيء مملكة الرب!. وهذا يعني بوضوح أن مملكة الرب ستظهر عند نهاية عصر الدولة الرومانية. وستكون سبباً في إنهاء وجودها بالمنطقة.

وهنا يبدأ الامتحان العسير لضمائر الشراح قبل عقولهم. فليست هناك أمة جاءت عقب مملكة الرومان واشتبكت معها في المنطقة غير أمة المسلمين. وهي الأمة الوحيدة من بين تلك الأمم التي بقيت إلى اليوم!، إذ لم يعد هناك بابليون ولا فرس ولا إغريق ولا رومان، وإنما مسلمون فقط!. كما أن العلامات الواردة في الرؤيا عند تحليلها لا تدل إلا على العرب. فالحجر الصغير الذي انقد من جبل يرمز إلى كونها أمة بسيطة غير متحضرة إذا ما قورنت بشعوب الامبراطوريات الأربع المذكورة. لأن الحجر الساقط لم يتعرض بعد للتهذيب بأدوات الحضارة!. في معنى يذكرنا بعبارة «الأمة الغبية» التي تكون بديلا لبني إسرائيل!. ثم إنه يسقط من الأعلى في إشارة إلى السماء والوحي الإلهي. أما تضخم هذا الحجر الصغير حتى أصبح جبلاً كبيراً فهي إشارة واضحة إلى مملكة العرب المسلمين. إذ لا توجد مملكة ظهرت بعد الرومان كانت صغيرة بسيطة ثم كبرت واتسعت غير مملكة المسلمين. وقد تكرر هذا المعنى بأكثر من مثل جاء على لسان المسيح عيسى في الأناجيل القانونية، منها «مثل حبة الخردل». ونصه في متى متحدثاً عن عيسى وتلاميذه: «وقدم لهم

مثلاً آخر، قال: يشبه ملكوت السماوات حبةً من خردل، أخذها رجل وزرعها في حقله، هي أصغر الحبوب كلها، ولكنها إذا نمت كانت أكبر البقول، بل صارت شجرة، حتى أن طيور السماء تجيء وتعشش في أغصانها».(مت ١٣ : ٣١ - ٣٢). فملكوت السماوات، أو مملكة الله، التي يتحدث عنها المسيح عيسى - كما نبه العديد من الشراح المسلمون - هي مملكة الإسلام التي سيؤسسها المسيح الموعود، المعزي الذي يأتي بعده. وهي المملكة التي بدأت صغيرة كحبة خردل ثم كبرت واتسعت حتى أصبحت شجرة وارفة تظلل الكثير من الأمم التي آوت إليها.

ومع وضوح هذه الدلائل إلا أن الشراح البروتستانت قد هربوا مرة أخرى من وجهها ومن منطق العقل ومنطق التاريخ إلى مقولة تلفيقية تزعم أن المسيح عيسى سيكون له نزول آخر في نهاية الزمان يقضي فيه على مملكة الرومان، ويؤسس فيه مملكته الأبدية!. ثم يربطون بين هذا المجيء الثاني للمسيح وبين ما ورد في رؤيا يوحنا عن معركة الخيول الحديدية في سهل هرمجدون. بوصفها المعركة التي سينزل المسيح عيسى بنفسه لقيادتها ضد قوى الشر. ولا تسأل بعد ذلك كيف يصح القول بأن المسيح سينزل للقضاء على الدولة الرومانية في حين أن رؤيا يوحنا تقول إنه سيأتي لقتال يأجوج ومأجوج لا لقتال الروم!. ثم من أين سيأتي الرومان وقد أصبح أحفادهم مسيحيون يفسرون الكتاب المقدس بهذه الطريقة؟!.

يبدو أن رؤيا دانيال وتفسيرها هذا قد أصبحا محل حديث الخاصة والعامة من أهل الكتاب في الجزيرة العربية قبيل ظهور

النبي محمد. فمثل هذه النبوءات ذات طابع شعبي سريع الانتشار. ولا شك أن بني إسرائيل كانوا يضعون هذه النبوءة نصب أعينهم، يترقبون بها ظهور المسيح المنتظر، ومملكة الرب الأبدية، التي ستنهي الوجود الروماني في المنطقة، وفي فلسطين تحديداً. ولعل هذا يفسر لنا أيضاً تلك الآية القرآنية التي حار المفسرون في فهمها، أعني قوله تعالى: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ.. (الروم ١-٤)». إذ أن منطق النبوءة يقول إن مملكة الروم ستنتهي على يد أمة الرب لا على يد الفرس الذين سبقوا الروم في الظهور الزمني. ولعل هذا هو معنى قوله تعالى: «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ»[1]. إنه فرح بتحقق النبوءة فيهم، لا فرح بانتصار أعدائهم الروم على أعدائهم الفرس![2].

هذا هو معنى عبارة «تم الزمان» التي كان يرددها المسيح في مدن اليهود - المحتلة حينها من قبل الرومان - لأنهم يدركون معناها تماماً. لقد كان المسيح عيسى يبشر بأمرين اثنين، الأول ظهور المسيح الموعود، والآخر زوال هيمنة الرومان في فلسطين والمنطقة على يد أمة المسيح المنتظر. وإنها لمهمة خطرة، هذه التي تصدى لها المسيح عيسى، تسببت من قبل في مقتل عدد من الأنبياء، كما يدل سفر أعمال الرسل. لأنها تهدد احتكار اليهود لشرف حمل الرسالات السماوية، وتهدد الرومان الذين يهيمنون على بلاده بزوال ملكهم. ولهذا فقد كان على عيسى أحياناً أن يخاطب قومه بلغة المجاز

(١) المرجع السابق: ص ١٢٩.
(٢) ورد هذا التفسير الطريف في المرجع السابق.

والأمثال، حفاظاً على سلامته من ناحية، وعلى سلامة النبوءة نفسها من التحريف من ناحية أخرى. ولطالما تساءل التلاميذ: لماذا يحدثنا المعلم بالرمز والأمثال؟ لم لا يكون كلامه صريحاً؟!. وها هو في آخر أيامه معهم يصارحهم: «قلت لكم هذا كله بالأمثال، وتجيء ساعة لا أحدثكم فيها بالأمثال، بل أحدثكم بكلام صريح ... فقال له تلاميذه: أنت الآن تتكلم كلاماً صريحاً لا بالأمثال». (يو ١٦ : ٢٥).

ويخطر ببالي الآن أن كتبة الأناجيل قد بالغوا - عن قصد - في الإيحاء باستعمال عيسى للأمثال في إيصال ما يريد قوله لمخاطبيه، وكأنه لم يخبر تلاميذه قط بحقيقة مهمته!. وهذا أمر غير مقبول منطقاً بالطبع، إذ لا شك أن عيسى قد صرّح بطبيعة مهمته لقومه، وهي التبشير برسول يأتي من بعده اسمه «أحمد». إلا أنه كان يميل إلى استعمال الأمثال واللغة المجازية أحياناً لإقناع بني إسرائيل بوقوع التحريف في كتبهم المقدسة. لأن هذه الكتب المقدسة نفسها كانت ترمز إلى المسيح الموعود وشروط مجيئه بالأمثال والرموز. وكأنه كان يلفت انتباههم إلى ما في هذه الكتب من حق موروث عن الأنبياء مختلط بتحريفات الكتبة.

وقد أشار القرآن إلى طريقة عيسى في مخاطبة قومه وتلاميذه بالأمثال إشارة مقتضبة في قوله تعالى عن محمد والذين آمنوا معه: «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (الفتح ٢٩). فالآية تتحدث عن «مثل» ضربه عيسى لأصحابه يرمز إلى محمد والذين آمنوا معه. وكأن الآية تشير إلى المثل السابق، «مثل حبة الخردل» المذكور في الأناجيل الإزائية. والمعنى

في الآية وفي العبارة الإنجيلية واحد، هو أن أمة المسيح - أو مملكة الرب كما يسميها الكتاب المقدس - ستبدأ صغيرة ضعيفة ثم تكبر إلى درجة أن شعوباً أخرى ستستظل في أعشاشها.

من الواضح أن المثل يشابه نبوءة دانيال السابقة عن الحجر الصغير الذي يضرب قدمي التمثال ثم يظل يكبر حتى يصبح جبلا. ويبدو أن لهذا المثل أهمية خاصة، فقد تكرر في أكثر من موضع. إذ بعد مثال حبة الخردل مباشرة روى كل من متى ولوقا مثالا آخر في المعنى نفسه يقول: «وقال لهم هذا المثل: يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة ووضعتها في ثلاثة أكيال من الدقيق حتى اختمر العجين كله». والخميرة هنا إشارة مناسبة للعرب الذين قاموا بالجهود التأسيسية في انتشار الإسلام قبل أن يتحول إلى دولة كبيرة ساهمت فيها أمم أخرى.

إلا أن أشهر أمثال المسيح بخصوص قضية المسيح الموعود وانتقال النبوة من بني إسرائيل إلى قوم آخرين يعطوا ثمرها، هو «مثل الكرامين» كما تسميه الأناجيل الإزائية. حيث يقول المسيح عيسى: «إسمعوا مثلا آخر: غرس رجل كرماً، فسيجه وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى بعض الكرامين وسافر. فلما جاء يوم القطاف، أرسل خدمه إليهم ليأخذوا ثمره. فأمسك الكرامون خدمه وضربوا واحدا منهم، وقتلوا غيره، ورجموا الآخر. فأرسل صاحب الكرم خدماً غيرهم أكثر عدداً من الأولين، ففعلوا بهم ما فعلوه في الأولين. وفي آخر الأمر أرسل إليهم ابنه وقال: سيهابون ابني. فلما رأى الكرامون الابن قالوا في ما بينهم: هذا هو الوارث!

تعالـوا نقتلـه ونأخـذ ميراثـه فأمسـكوه ورمـوه في خـارج الكـرم وقتلـوه. فـماذا يفعـل صاحـب الكـرم بهـؤلاء الكرامـين عنـد رجوعـه؟. قالـوا لـه: يقتـل هـؤلاء الأشرار قتـلاً ويسـلم الكـرم إلى كرامـين آخريـن يعطونـه الثمـر في حينـه. فقـال لهـم يسـوع: أمـا قرأتـم في الكتـب المقدسـة: الحجـر الـذي رفضـه البنـاءون صـار رأس الزاويـة؟ هـذا مـا صنعـه الـرب فيـا للعجـب!. لذلـك أقـول لكـم: سـيأخذ الله ملكوتـه منكـم ويسـلمه إلى شـعب يجعلـه يثمـر. مـن وقـع عـلى هـذا الحجـر تهشـم. ومـن وقـع هـذا الحجـر عليـه سـحقه». (مـت ٢١ : ٣٣ - ٤٦).

المسـيح عيسـى في هـذا المثـل يشـير إلى تاريـخ بنـي إسرائيـل مـع الأنبيـاء. وهـو تاريـخ مـن التمـرد والعقـوق والإجـرام. فالكـرم (العنـب) هـو موضـوع النبـوة، وصاحـب الكـرم هـو الله، والخـدم الذيـن يرسـلهم هـم الأنبيـاء، والكرامـون هـم بنـو إسرائيـل. والمشـكلة هـي تمـرد الكرامـين عـلى صاحـب الكـرم الحقيقـي، بإيـذاء خدمـه (أنبيائـه) وعـدم رعايـة الكـرم وحقـوق صاحبـه. وهنـا يـأتي سـؤال عيسـى للجمـوع وبينهـم رؤسـاء الكهنـة والفريسـيين: مـاذا يفعـل صاحـب الكـرم مـع هـؤلاء الجاحديـن مـن وجهـة نظركـم؟!. قالـوا: يسـتحقون القتـل، وأخـذ الكـرم مـن حوزتهـم وإعطائـه لكرامـين آخرين يسـتحقونه!. فينتهـز عيسـى الفرصـة ويذكرهـم بنبـوءة قديمـة لديهـم في الكتـب المقدسـة عـن المسـيح الموعـود الـذي سـيرفضه بنـو إسرائيـل. «فقـال لهـم يسـوع: أمـا قرأتـم في الكتـب المقدسـة: الحجـر الـذي رفضـه البنـاؤون صـار رأس الزاويـة؟. أي صـار آخـر حجـر في بنـاء النبـوة![1].

(١) يعتقـد البعـض أن الحجـر المثلـث المفقـود في صـورة الهـرم عـلى الـدولار الأمريكـي يشـير إلى المسـيح الموعـود حجـر الزاويـة الـذي لم يـأت بعـد.

ثم يكمل: «لذلك أقول لكم: سيأخذ الله ملكوته منكم ويسلمه إلى شعب يجعله يثمر». وهذا ما حدث بالفعل. فقد انتقلت مملكة الله إلى الأمة التي نشرت الإسلام في كل القارات فأثمر كثيراً.

من البدهي بعد هذا أن يتساءل القارئ: إذا كان المسيح عيسى وتلاميذه قد قاموا بواجبهم في التبشير بالنبي الخاتم في قومهم فلماذا لم تحفظ البشارة؟. وإجابة هذا السؤال مطوية في تاريخ الصراع بين الفرق النصرانية في فلسطين والشرق الأوسط وبين الكنيسة الرومانية ومن ورائها الدولة الرومانية. لقد حوربت كل الفرق النصرانية التي خالفت إيمان الكنيسة الرومانية والبيزنطية، بعد مجمع نيقية الذي عقد بدعوة من الامبراطور الروماني قسطنطين الأول في العام ٣٢٥م. ولم يتبق من أتباع الديانة العيسوية الحقة إلا أفراد متناثرين خارج حدود الدولة الرومانية. من أمثال بحيرا الراهب الذي استوطن منطقة بصرى في جنوب بلاد الشام. وورقة بن نوفل خال خديجة بنت خويلد. وكان من المنطقي أن يلتحق بقيتهم بركب الإسلام عند ظهور النبي محمد.

لقد حمل هؤلاء البشارة الشفهية - غير المكتوبة - كما حملها عيسى نفسه. وكتبها بعضهم على الجلود وورق البردي، لكن أعدادها كانت محدودة ولم يحفظ لنا الزمان منها إلا إشارات إلى مضامينها وردت في تاريخ الكنيسة نفسها، عن الفرق المسيحية الضالة!. وتسمى عند المسيحيين كتب «الأبوكريفا»، أي الكتب المشكوك فيها[1]. مما يعني أن الحقيقة التي حملها المسيح قد

(١) لعل كلمة «أبو كريفا» ذات أصل آرامي أو أنها تحريف روماني لكلمة آرامية تعني «أبو خرافة»!.

ووجهت بحرب شاملة من قبل طرفين: طرف داخلي محلي ممثل في اليهود المعارضين لعيسى وبشارته، وطرف خارجي ممثل في الكنيسة والدولة الرومانيتين. ولم يكن من السهل على جماعة مضطهدة آنذاك أن تحتفظ بالحقيقة الصريحة لفترة طويلة في ظل ظروف معقدة كهذه. إلا أن إثبات وقوع التحريف في الأناجيل القانونية يعد دليلاً على أن مؤامرة واعية قد حدثت في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول لطمس بشارة عيسى عن النبي الخاتم.

وفي العصر الحديث لم يعد غريباً أن تجد علماء غربيين يهوداً ومسيحيين يؤكدون وقوع التحريف في الكتب المقدسة. فالأمر أصبح من المسلمات عند دارسي هذه الكتب ونقادها. بل إن بعضهم يحدد صراحة الموضوعات التي طالها التحريف، أو الغايات من وراء حدوثه. من هؤلاء السياسي والأديب وعالم اللغة اليونانية البريطاني الأستاذ إينوك باول الذي خلص في دراسة طريفة عن تطور الأناجيل إلى القول بأن الأناجيل القانونية قد نقلت مادتها عن نسخ أخرى أقدم منها غير معروفة الآن، وأن الأناجيل القانونية قد أضافت عليها وحذفت منها لثلاثة أغراض هي[1]:

إثبات هوية يسوع على أنه ابن الرب.

تفوق بطرس على من سواه [بوصفه مؤسس كنيسة روما حسب روايتها].

التبشير بالبشارة للأمين.

ثم يقول بحسم إن هذه النسخ الضائعة لم تكن آرامية (لغة عيسى)

(١) تطور الإنجيل: ص ٦٣.

أو عبرية (لغة التوراة) بل رومانية، كتبت في روما. مما يعني أن كاتبها ليس من تلاميذ المسيح عيسى ولا من قومه!. يقول باول: «لو تساءل البعض عن المكان الطبيعي لنشأة المتن الأصلي للإنجيل، فلن يكون هناك كثير من التردد حول الإجابة: في روما طبعاً، فإن المناخ المؤيد لروما، ناهيك عن كونها القبلة التي يتجه إليها العالم الأممي المهتدي إلى الخلاص على يد يسوع، يمكن أن يفيا بالإجابة بشكل كامل. ولذلك، فمن الممكن أن يكون «الإنجيل حسب بطرس» هو المصدر الذي استنبطت منه نصوص الأناجيل الأخرى، مع احتمال أن يكون ذلك قد حصل في أرجاء أخرى من عالم البحر المتوسط»[1]. ويعلق على هذه العملية بالقول: «وهكذا فقد أدت البدائل بالنتيجة إلى طمس، أو حتى إبطال، ما كان ينبغي أن يكون العقيدة المحورية للمتن الأصلي للإنجيل»[2]. وهذا كلام يتفق مع ما ذهب إليه بيرتون ماك من أن إنجيل الأقوال - المستل من الأناجيل القانونية - يقدم تلاميذ المسيح في صورة مختلفة عن تلك الصورة التي رسمتها الكنيسة والأناجيل القانونية. بحيث يمكن القول إن تلاميذ المسيح لم يكونوا مسيحيين!.

أما هيم ماكبي، أستاذ تاريخ الأديان بمعهد ليوبايك بلندن، فقد رسم لنا سيناريو ما حدث بعد وفاة المسيح بصورة منطقية وجذابة وعبقرية للغاية في الكتاب الذي ترجم ملخصاً إلى العربية بعنوان «بولس وتحريف المسيحية». فهو يقدم الأدلة والمستندات التاريخية على أن ذلك الشخص الغريب المريب الذي يدعى بولس هو الذي

(١) المرجع السابق: ص ٧٤.
(٢) المرجع السابق: ص ٦٣.

ألف المسيحية المعروفة اليوم. ولفقها من وثنيات عصره التي كان قد درسها في طرسوس مسقط رأسه. بعيداً عن مجتمع إسرائيل الذي عاش فيه عيسى. وبولس معترف بأنه لم يلتق بعيسى في حياته، بل زعم أن يسوع قد هبط عليه من السماء أثناء ذهابه إلى دمشق لمطاردة أتباعه!. وبعد أن عاتبه على اضطهادهم، وأقر بولس بخطيته كلفه يسوع بحمل البشارة إلى الأمم!. وهكذا ذهب يؤلف مذهباً دينياً حول المسيح عيسى لم يكن مقبولاً عند أتباع عيسى الحقيقيين في القدس. كما يؤكد سفر أعمال الرسل، ورسائل بولس نفسها!. ولهذا دخل في خلاف حاد مع أتباع عيسى هؤلاء، وعلى رأسهم أخو المسيح من أمه المسمى يعقوب العادل. الذي كان له فيما يبدو مكانة خاصة بين أتباع عيسى في القدس. ثم يلفت ماكبي انتباهنا إلى أن ما يسمى بالأناجيل القانونية لم تكتب إلا بعد رسائل بولس. وأن هذه الأناجيل قد تأثرت بعقيدة بولس الجديدة فقدمت صورة مغلوطة وناقصة للمسيح عيسى وتلاميذه. يقول ماكبي: «وهنا لا بد من الإشارة إلى مسألة تاريخية مهمة، وهي أن رسائل بولس في الواقع ليست إلا النصوص الأولى للعهد الجديد ما دام أنها كتبت بين سنة ٥٠ و٦٠ للميلاد، بينما لم تكتب أناجيل العهد الجديد التي وصلت إلينا إلا بين ٧٠ و ١١٠ للميلاد. أي أن مؤلفي هذه الأناجيل تأثروا برسائل بولس التي كتبت قبلهم وتشربوا بأفكاره وتأويلاته لأعمال عيسى]...[ولا شك في أن مفاهيم بولس ونظرته قد طغت على الأناجيل طغياناً دل على انتصار نظرته على كل ما فعله المسيح على الأرض»[1]. ثم يقول:

(١) بولس وتحريف المسيحية: هيم ماكبي، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ص ١٥.

«ولقد كانت هنالك تفسيرات مختلفة عن تفسيرات بولس، وكانت متماشية مع المسيحية الأولى، غير أن هذه التفسيرات والآراء أزيلت واتهمت بالكفر عندما ثبتت الكنيسة البولسية لائحة الكتابات التي صارت تعرف بعد ذلك بالعهد الجديد»[1].

ويذهب ماكبي لتتبع سلسلة التناقضات في البيانات التي قدمها بولس عن نفسه في رسائله، وقدمها له تلميذه لوقا في سفر أعمال الرسل. ليثبت أن بولس الحقيقي التاريخي شخص مختلف عن بولس الذي في العهد الجديد. وأن بولس هذا قد تعمد تزييف البيانات التي قدمها عن نفسه. والأهم من ذلك أن أتباع عيسى في القدس كانوا يحملون عقيدة مختلفة عن عقيدة بولس الطرسوسي!. وهكذا يخبرنا تاريخ الكنيسة بوجود عدد من الفرق المسيحية - في عصور المسيحية الأولى - عارضت عقيدة بولس. من بينها فرقة الأبيونيين الذين كانوا ينفون ألوهية عيسى وصلبه ويؤمنون به نبياً من الأنبياء. وفرقة الآريوسيين الذين ربما كانوا هم المعنيين بإشارة النبي محمد في رسالته إلى هرقل حين ذكر «الأريسيين»[2] كما ذكر بعض الدارسين المعاصرين.

(١) المرجع السابق: ص ١٥.

(٢) جاء في صحيح البخاري أن النبي بعث كتابا لهرقل جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». (أنظر: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله في كتاب: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ص ٨).

ومع ذلك فإن بولس ليس مسئولاً عن جميع مقولات الكنيسة في عقيدتها عن المسيح، فهناك من القرائن ما يدل على أن الكنيسة نفسها قد طورت مقولات بولس حول المسيح إلى درجة التأليه. فقد لاحظ بعض الدارسين أن بولس - في رسائله - لم يقل إن المسيح هو الله. بل كان يعده «ربا» وسيداً بعد الله الأب. ولم يقل قط إن الله والمسيح واحد. أو أن المسيح مساو له في الجوهر. ولم يذكر الثالوث المسيحي مجتمعاً في موضع واحد. بل يظهر من رسائله دائماً أن الآب السماوي كان أرفع وأعلم وأقدر من الابن المفتقر دائماً إلى أبيه السماوي. وإن كان قد أعطى نصيباً من العبودية للمسيح الابن. لكن من الواضح أنه جعل المسيح كائناً فوق الإنسان ودون الإله، وأجلسه على يمين الرب في السماء. ثم جاء آباء الكنيسة بعد ذلك ليرفعوه درجة أخرى إلى رتبة الإله. إلا أن الأناجيل القانونية لسوء حظهم ما زالت متأثرة بتعاليم بولس وتصر على كونه دون منزلة الإله الأب في العلم والقدرة والكمال.

جاء على لسانه في نفي الكمال عن نفسه في سفر يوحنا العبارة الآتية: «قلت لكم أنا ذاهب وسأرجع إليكم، فإن كنتم تحبوني فرحتم بأني ذاهب إلى الآب، لأن الآب أعظم مني» (يو ١٤ : ٢٨). غير أن هذا الكلام الصريح في نفي عيسى الألوهية عن نفسه لن يقنع شراح الأناجيل بالطبع، وسيقولون إن هذه العبارة «لا تدل على أن الآب أعظم من الابن، لأنهما واحد في الجوهر والطبيعة واللاهوت»[1]، لأن الأناجيل تزخر بأقوال المسيح عيسى الدالة على أنه والآب شيء واحد!. مثل قوله في يوحنا: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). وقوله:

(١) موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

« قولـه: «مـن رآني فقـد رأى الآب» (يـو ١٤:٩). غـير أن العبـارت التـي يستشـهد بهـا الـشراح المسـيحيون لإثبـات أن المسـيح والله جوهـر واحـد ليسـت بوضـوح وصراحـة وحسـم عبـارة «الآب أعظم منـي» السـابقة. إذ مـن السـهل تأويـل العبـارت الدالـة عـلى الواحديـة عـلى معنـى مـن المعاني المجازيـة. كـما يفعلـون هـم عندمـا يؤلـون عبـارة «ابـن الله» التـي تـرد وصفـا لغـير المسـيح عيسـى في الكتـاب المقـدس!. بـل إن يوحنـا يحسـم القضيـة بعبـارة واحـدة عـلى لسـان المسـيح يقـول فيهـا: «والحيـاة الأبديـة هـي أن يعرفـوك أنـت الإلـه الحـق وحـدك، ويعرفـوا يسـوع المسـيح الـذي أرسـلته» (يـو ١٧ : ٣). فالإلـه الحـق حسـب تعبـير عيسـى واحـد، والبقية آلهـة زائفـة، فهـل بعـد هـذا الوضـوح مـن وضـوح؟!.

كذلـك ينفـي المسـيح عـن نفسـه العلـم الـكلي الـذي يتصـف بـه الله الحـق حـين نفـى علمـه بموعـد يـوم القيامـة حيـث جـاء عـلى لسـانه في متـى: «أمـا ذلـك اليـوم وتلـك السـاعة فـلا يعرفهـا أحـد، لا ملائكـة السـماوات، ولا الابـن، إلا الآب وحـده» (مـت ٢٤ : ٣٦). ويصعـب أن تجـد تفسـيراً مسـيحياً مقبـولاً لهـذه العبـارة!. كـما نفـى عيسـى عـن نفسـه القـدرة الذاتيـة، مصرحـاً بـأن أحكامـه - ومعجزاتـه بالأحـرى - ليسـت مـن عنـده، بـل مـن عنـد الله الـذي أرسـله. يقـول حسـب إنجيـل يوحنـا: «أنـا لا أقـدر عـلى أن أعمـل شـيئاً مـن عنـدي. فكـما أسـمع مـن الآب أحكـم، وحكمـي عـادل». (يـو ٥ : ٣٠). وهكـذا نطقـت الأناجيـل المحرفـة بقـدر كبـير مـن الحقائـق التـي أكدهـا القـرآن مـن ناحيـة، وأكدهـا دارسـو الكتـاب المقـدس المتحـررون مـن التعصـب لديـن الكنيسـة!.

إن هـذا الكـم الكبـير مـن الشـواهد المتعارضـة - ولـو ظاهريـا - مـع العقيـدة الكنسـية في كتابهـا المقـدس، لا يمكـن أن يكـون بـدون معنـى!. فالعقـل قـد يتفهـم وجـود عـدد محـدود مـن العبـارات التـي قـد يتعارض ظاهرهـا مـع العقيـدة الأساسـية، ويمكـن إعـادة تأويلـه بـما يتسـق معهـا. أمـا أن يكـون حجـم النصـوص المشاكسـة للعقيـدة كبـيراً بهـذا القـدر فـإن العقـل لا بـد أن يسـتنتج وجـود سرّ مـا حـاول المحرفـون والـشراح إخفـاءه، كـما يحـاول خاطـف إخفـاء طفـل في كيـس، وهـو عـلى قيـد الحيـاة يركـض ويصـدر الأصـوات!.

ويخطـر بالبـال أن الله سـبحانه وتعـالى مـا اختـار لعيسـى ذلـك الميـلاد الخـارق للعـادة وتلـك المعجـزات العجيبـة إلا ليعطـل عـلى محـرفي الكتـب المقدسـة أهدافهـم. لقـد كان مـن المتوقـع أن يتظاهـر اليهـود بقبـول نبوتـه، وقـد علمـوا بأنـه آخـر أنبيـاء بنـي إسرائيـل ظهـوراً ولا أمـل لهـم في شـخصية نبويـة أخـرى يمكنهـم أن يلبسـوها عبـاءة المسـيح الموعـود، لـولا أن ميـلاده الخـارق للعـادة قـد عطـل عليهـم أهـم شرط تحريفـي هـو أن يكـون مـن نسـل داود. لقـد جـاء بنفخـة مـن جبريـل لا مـن نسـل داود!.

والقـرآن يؤكـد في آيـة عجيبـة ولافتـة أن بنـي إسرائيـل جميعـاً، الذيـن عاشـوا في حيـاة المسـيح عيسـى، قـد أدركـوا حقيقـة نبوتـه وصدقـوا بهـا في قـرارة أنفسـهم وإن كفـروا بهـا ظاهـرا. حيـث قـال متحدثـا عنـه: «وَإِنْ مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَـنَّ بِـهِ قَبْـلَ مَوْتِـهِ وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يَكُـونُ عَلَيْهِـمْ شَـهِيدًا» (النسـاء ١٥٩). وقـد أشـكلت هـذه الآيـة عـلى المفسرين المسـلمين. إذ كيـف يجـازف القـرآن بالقـول إن جميـع أهـل الكتـاب

سيؤمنون بعيسى قبل موته، مع أنه لن يموت إلا في المجيء الثاني له؟!، فهل نقول إن جميع اليهود منذ ألفي عام وإلى ما شاء الله لا يموتون إلا وقد آمنوا به؟! هذا مما لا يقبله العقل بالطبع. وقد فات هؤلاء المفسرين أكثر من أمر في هذه المسألة:

أولاً: أنهم وقعوا ضحايا الخدعة البولسية التي تزعم أن للمسيح عيسى مجيئاً ثانياً إلى الدنيا في آخر الزمان. فقد تسربت هذه المقولة الماكرة إلى التراث الإسلامي عبر القنوات الشيعية ونسبت إلى النبي محمد نفسه. وشكلت مع مثيلاتها عوامل تشويش للرؤية الإسلامية الصحيحة. ومن ثم فإن الآية تتحدث عن أهل الكتاب الذين رأوا عيسى وسمعوه في حياته السابقة فقط.

ثانياً: أن أهل الكتاب في زمن عيسى قد شاهدوا على يديه من المعجزات الدالة على نبوته، ومن الحجج البليغة التي أدلى بها أمامهم، ما يقطع الشك باليقين. فلا شك أنهم قد أدركوا صدق نبوته وكلامه، لكنهم أدركوا معها حقيقة أخرى مهولة هي أنهم قد خرجوا بهذه الحقيقة من تصفيات دوري النبوة والأفضلية على الناس، وخسروا كتبهم المقدسة التي سيضطرون للاعتراف بأنها محرفة إذا صدقوه، وهذا ما لا قبل لهم به، لمن يعرف السيكولوجيا الإسرائيلية!.

هكذا نشأت عقيدة المسيح المنتظر المخلص وتطورت في التراثين اليهودي والمسيحي. فكيف يا ترى تسللت إلى التراث الإسلامي بشقيه السني والشيعي؟. ولماذا ندعي أنها تسللت من التراث الإسرائيلي ولم تكن نبتة أصيلة في التربة الإسلامية؟. ولماذا نقول

بأنها تسربت إلى المجال الشيعي أولاً، ومنه إلى المجال السني؟. هذه الأسئلة هي موضوع الفصل التالي.

شرح تمثال رؤيا نبوخذ نصر

الفصل الثالث

المنتظر في التراث الإسلامي

يتفق كل من السنة والشيعة على انتظار مجيء ثلاث شخصيات ملحمية في نهاية الزمان هي: المهدي، والدجال[1]، والمسيح عيسى. ثم يختلفون بعد ذلك في التفاصيل. وأكثر اختلافهم حول شخصية المهدي المنتظر. وعلى الرغم من اعتقادنا بأن مجمل الأحاديث المنسوبة إلى النبي محمد غير ذي قيمة من الناحية الدينية، لعدم وجود دليل قطعي الدلالة من القرآن الكريم على كونها امتداداً لرسالته التي كلف بإبلاغها للناس. وغير قطعية الثبوت من الناحية التاريخية، لعجز الإجراءات العلمية في التوثيق عن ضمان صحتها، حسب اعتراف علماء الحديث أنفسهم[2]. على الرغم من ذلك إلا أنها تعد وثائق تاريخية معتبرة لدراسة تطور الفكر الديني، وللدراسات الدينية المقارنة. وسنلحظ في السطور القادمة كيف أن روايات المهدي المنتظر - مثلاً - قد حملت آثار التحريف وبصمات المحرفين. ومهمة السطور القادمة هي إثبات حقيقتين في هذا الباب: الأولى أن شخصية المهدي المنتظر في الإسلام ما هي إلا النسخة البديلة (دبلير) من شخصية المسيح المنتظر التي عرفها أهل

(١) لن نعرض لمقولة المسيح الدجال في هذا الدراسة، غير أنه ليس من العسير على القارئ إدراك أنها إحدى مشتقات تحريف فكرة المسيح الموعود.

(٢) علماء الحديث المسلمون يعترفون بأن عبارة «حديث صحيح» التي يوثقون بها بعض الروايات لا تعني أن الحديث يقيني النسبة إلى قائله. وإنما يقصدون أن الشروط الخمسة التي وضعها البخاري ومسلم قد تحققت فيه. إلا أن هذه الشروط نفسها تعمل بطريقة اجتهادية لا يمكنها ضمان نسبة الكلام إلى قائلة.

الكتاب. والأخرى أن هذا التحريف قد تسرب إلى التراث الإسلامي من خلال التراث الإسرائيلي، عبر قنوات المذاهب الشيعية!. وقبل أن نشرع في البحث والتحليل والمقارنة، يحسن بنا أن نلقي ضوءا على عقيدة المهدي المنتظر في المذهبين الإسلاميين الكبيرين: السني والشيعي.

المهدي عند أهل السنة

هو إحدى علامات الساعة في كتب أهل السنة. وهو شخص طبيعي (غير خارق) ينتهي نسبه إلى الصحابي علي بن أبي طالب، يولد في آخر الزمان، ويعيش حياة طبيعية. ولا يعرف أنه المهدي المنتظر إلا حين يصطفيه الله لهذه المهمة في سن معينة من عمره. وليس له أي ميزة خاصة على الناس غير ذلك. يقال إنه سيظهر للمرة الأولى في صحن الكعبة، ويبايع أميرا للمؤمنين بين الركن والمقام. ويقاتل المسيح الدجال، ثم يستقر له الأمر فيملك الأرض لمدة سبع سنين، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. وتتجاوب مع حضوره الطبيعة نفسها كعلامة على رضا الله عنه، فتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويفيض المال.

وتقدم الروايات السنية تفاصيل أخرى محدودة عن اسمه وصفته ومكان خروجه وملابسات هذا الخروج. فعن اسمه روى أحمد والترمذي وأبو داود أن النبي عليه السلام قال: «لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطيء

اسمه اسمي» وفي رواية لأبي داود: «يواطيء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»[1]. وفي صفته روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول: «المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلاً، كما ملئت ظلما وجوراً، يملك سبع سنين»(٢). وعن ملابسات خروجه روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويُعطي المال صحاحاً، وتخرج الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً. يعني حججا»[3].

وفي رواية أخرى عن ثوبان قال: قال رسول الله: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لم أحفظه فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»[4]. ومن ملابسات خروجه أيضاً نزول المسيح عيسى بن مريم، حيث روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[5]. والإمام الذي نكرته هذه الرواية صرحت به رواية أخرى وقالت إنه المهدي المنتظر. الجدير بالذكر أن عقيدة المهدي لدى أهل السنة ليست من أصول الدين كما هو حالها عند الشيعة. وقد اختلفوا

(١) قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر والألباني.
(٢) رواه أبو داود والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.
(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: هذا سند صحيح رجاله ثقات.
(٤) رواه ابن ماجه والحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: هذا إسناد قوي صحيح.
(٥) رواه البخاري ومسلم.

تاريخيا في تحديد شخصيته على ثلاثة أقوال. الأول يرى أنه لا مهدي سوى عيسى بن مريم، والثاني يرى أنه المهدى الذى تولى الخلافة فى الدولة العباسية فى القرن الثانى الهجرى!. والثالث - وهو الأشهر - أنه رجل من آل بيت على بن أبي طالب!.

هذا أبرز ما ورد في كتب الحديث السنية عن المهدي المنتظر. وتزعم طائفة من فقهائهم أن روايات المهدي قد بلغت حد التواتر. ونقلوا عن الشوكاني قوله: «والأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر، التي أمكن الوقوف عليها، منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول»[1]. ولنا وقفة مؤجلة مع دعوى التواتر هذه ومع دليل التواتر برمته إلى موضعها من هذه الدراسة. لكن قبل أن نختم هذه الفقرة أود التنبيه إلى أن التراث السني قد احتفظ لنا برواية ليس لها قيمة كبيرة في سياقها السني، لأن عامة محققيهم قد ضعفوها، لكنها ذات مغزى في سياق هذه الدراسة. أعني ذلك الحديث الذي يقول «لا مهدي إلا عيسى بن مريم»!. لا شك عندي أنها عبارة مكذوبة على النبي، لأن فكرة المهدي برمتها قد اخترعت في وقت لاحق لوفاته وانقضاء جيل الصحابه. إلا أن لها دلالة تفيد بأن قائلها كان مدركا للإشكال الذي نناقشه في هذه الدراسة. أو أنه كان مدركاً لطبيعة التزييف الذي استنسخ خبر

(١) عقد الدرر في أخبار المنتظر: يوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي، تحقيق مهيب بن صالح بن عبد الرحمن البوريني، مكتبة المنار، الزرقاء ‖ الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، ص ١٤.

المهدي من خبر المسيح الموعود في التراث الكتابي!. ويبدو أنه قد استحسن أن يجعل رأيه هذا حديثاً نبوياً كما يفعل الآخرون!.

المهدي عند الشيعة

المهديّ المنتظر عند الشِّيعَة الإثني عشرية هو الإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري. آخر أئمتهم المعصومين. زعموا أنه وُلد في سامراء العراق عام ٢٥٥هـ للهجرة، ثم اختفى في العام ٢٦٠ للهجرة. ويعتقدون أنه لا يزال حيًّا في الغيبة الكبرى حتى الآن. وأنه كان يدير شئون أتباعه في غيبته الصغرى عن طريق سفرائه الأربعة. قبل أن تنقطع أخباره بوفاتهم!. يلقبه الشِّيعَة بالمهديّ وصاحب الزمان والحجة ابن الحسن. وينتظرون مجيئه المعجز في أي لحظة!. والمهدي بالنسبة للشيعة الاثني عشرية هو المبدأ الأساسي الذي يميزهم عن غيرهم. يقول المؤرخ العراقي المعروف جواد علي: « يتمثل المبدأ الأساسي الذي يميز الشيعة عن بقية المسلمين في فكرة الإمامة. أي القيادة السياسية الدينية. فالإمامة وحاملها نفسه قد نصبهما الله وحدّهما عن طريق نبيه. وسلطة الإمام تشمل الأرض كلها فهو يحكمها بلا حدود. لأن الله وكل إليه أمرها، وكل ما يوجد فيها وفوقها، سواء أكان معدنا، أم غابة، أم حيواناً، براً أم بحرا، فالأشياء كلها ملك للإمام، وله الخمس مما يكسبه الناس من أعمالهم»[1].

(١) المهدي المنتظر عند الشيعة الأثني عشرية: د. جواد علي، ترجمه عن الألمانية: د. أبو العيد دودو، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، الطبعة الأولى، ص ١٣.

وعلى الرغم من أن عقيدة المهدي تعد ركنا أساسيا في المذهب الشيعي الاثني عشري، وبرغم كثرة الروايات والكتب الشيعية التي تحدثت عنه، إلا أنها لم تحدد زمنا معيناً لظهوره وقيام دولته. ولم تذكر علامات واضحة عن ملابسات هذا الظهور. يقول جواد علي: «فأما متى تنشأ هذه الدولة المأمولة، فلا يتم الحديث عنها بوضوح أبدا، فزمن الاستجابة لا يعلمه إلا الله. على أن هناك علامات قد أعلنت للناس، يستطيعون أن يعرفوا منها اقتراب المهدي. وهذه العلامات كما نقلتها إلينا الكتب التي تتحدث عن المهدي، مرتبطة دائما بالشيعة وأعدائهم. ومن العلامات أيضا الانحلال الخلقي الرحيب والقسوة العامة والظلم. في الكوفة سيظهر، فيما يقال، داعية ينادي من حمل إليه شيعياً فله مكافأة ١٠٠٠ درهم على كل رأس»[1].

إلا أن المستشرق الألماني هاينس هالم ينقل عن الشيخ المفيد نصا يعود إلى أواخر القرن العاشر الميلادي يتحدث عن العلامات الملحمية التي تسبق ظهور الإمام الثاني عشر، ننقله هنا بنصه:

«خروج السفياني، وقتل الحسني، واختلاف بني العباس في الملك الدنياوي، وكسوف الشمس في النصف من شهر رمضان، وخسوف القمر في آخره على خلاف العادات، وخسف بالبيداء وخسف بالمغرب وخسف بالمشرق، وركود الشمس عند الزوال إلى وسط أوقات العصر وطلوعها من المغرب، وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين، وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، وهدم سور الكوفة، وإقبال رايات سود من قبل

(١) المرجع السابق: ص ٢٩٥.

خراسان، وخروج اليماني، وظهور المغربي بمصر وتملكه للشامات، ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة، وطلوع نجم بالمشرق يضيء كما يضيء القمر ثم ينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه، وحمرة تظهر في السماء وتنشر في آفاقها، ونار تظهر بالمشرق طولاً وتبقى في الجو ثلاثة أيام أو سبعة أيام، وخلع العرب أعنتها وتملكها البلاد وخروجها عن سلطان العجم، وقتل أهل مصر أميرهم، وخراب الشام، واختلاف ثلاث رايات فيه، ودخول رايات قيس والعرب إلى مصر، ورايات كندة إلى خراسان، وورود خيل من قبل المغرب حتى تربط بفناء الحيرة، وإقبال رايات سود من المشرق ونحوها، وبثق في الفرات حتى يدخل الماء أزقة الكوفة، وخروج ستين كذابا كلهم يدعي النبوة، وخروج اثني عشر من آل أبي طالب كلهم يدعي الإمامة لنفسه، وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العباس بين جلولا وخانقين، وعقد الجسر مما يلي الكرخ بمدينة السلام، وارتفاع ريح سوداء بها في أول النهار وزلزلة حتى ينخسف كثير منها، وخوف يشمل أهل العراق، وموت ذريع فيه، ونقص من الأنفس والأموال والثمرات، وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزرع والغلات، وقلة ريع لما يزرعه الناس، واختلاف صنفين من العجم، وسفك دماء، وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليهم، ومسخ لقوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير، وغلبة العبيد على بلاد السادات، ونداء من السماء حتى يسمعه أهل الأرض كل أهل لغة بلغتهم، ووجه وصدر يظهران من السماء للناس في عين الشمس، وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا،

فيتعارفون فيها ويتزاورون. ثم يختم ذلك بأربع وعشرين مطرة تتصل فتحيا بها الأرض من بعد موتها وتعرف بركاتها وتزول بعد ذلك كل عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي، فيعرفون عند ذلك ظهوره بمكة فيتوجهون نحوه لنصرته»[1].

والآن ما الذي يمكن أن نستشفه من الروايات السابقة على ضوء الفرضية التي قدمنا؟. إليك الملاحظات الآتية:

أولاً: في روايات أهل السنة يبدو المهدي وكأنه محمد الثاني - قياساً على موسى الثاني! - لتطابق الاسم والكنية والصفات بين الشخصيتين. فالمهدي في رواية أبي داود هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي. وصفاته الجسدية في رواية أبي سعيد الخدري - وفي روايات أخرى لم نوردها - هي نفس صفات النبي محمد: فهو أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أغرق الثنايا[2]. ثم تأتي رواية لتصرح بأن خلقته تشبه خلقة النبي محمد. فهل هذا التشابه - أو بالأحرى التطابق - في الأوصاف مجرد مصادفة؟ أم أن روح النبوءة الأصلية قد رفرف على جسد الرواية المزيفة؟!. هل كان المهدي مجرد قناع للشخصية الحقيقية (محمد)؟!، هل كان المهدي وصفا آخر من أوصاف النبي محمد قبل أن يتحول إلى شخصية مستقلة؟!. هل كان واضع الفكرة يهودياً مدركاً لخبرة قومه في استنساخ الشخصيات؟!. ليس لدينا أدلة حاسمة في هذا الشأن بالطبع، وليس من المعتاد أن يترك المحرفون وراءهم أدلة حاسمة. وإنما يتعرف الباحث على

(١) الشيعة: هاينس هالم، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة، العراق - بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ٥٥-٥٦.

(٢) الثَّنِيَّة هي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدَّم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت.

الحقيقة من جمع القرائن والملاحظات التي تحتشد بجانب بعضها كما تحتشد القطع الصغيرة في لعبة أحجية الصور المقطعة للحصول على صورة كاملة بعد تركيبها.

ثانياً: يظهر المهدي في هذه الروايات زعيماً سياسياً - يقود معسكر الخير في مواجهة معسكر الشر - لا مصلحاً سياسيا أو مجرد رجل صالح يدعو إلى الخير والصلاح. أي أن فكرة المسيح المخلص (الملك) الذي يقيم دولة الحق على أنقاض دولة الباطل هي المهيمنة على النبوءة ولها دلالته التي سنعرفها بعد قليل.

ثالثاً: في الرواية الشيعية تبدو شخصية المهدي أكثر استقلالية من شخصية النبي محمد، وأكثر وضوحاً من شخصية المهدي عند السنة. فالاسم الثلاثي مختلف، والنسب واضح، والشخصية ذات طابع فوق بشري تفوق في الصفات والملابسات أهمية النبي محمد نفسه. مما يدل على أن الشخصية المهدوية عند الشيعة قد رسمت ملامحها بعناية أكثر، على يد صاغة خبراء، لكونها مقولة أصولية، وليست مجرد حالة اشتباه ضبابية كما هو الحال في الرواية السنية.

رابعاً: في الروايتين السنية والشيعية يظهر المهدي في ظروف ملحمية غامضة، تشبه تلك الظروف التي ينزل فيها المسيح عيسى في العقيدة المسيحية. فهما يظهران عندما يحل الخراب في العالم.

السؤال المحوري في هذه الدراسة هو: هل نبتت عقيدة المهدوية في التربة الإسلامية، أم أنها نبتة إسرائيلية تسللت إلى التراث الإسلامي عبر أدواته التي نعرف بعضها ونجهل البعض الآخر؟.

كنا قد استبقنا الجواب المفصل بفرضية تقول إن عقيدة المنتظر برمتها ليست من الأفكار الإسلامية، وإنما هي عقيدة إسرائيلية تسللت إلينا من أهل الكتاب في ملابسات تاريخية يمكن تتبعها وتقديم الدلائل على صحتها. وبقي أن نسجل حيثيات هذه الدعوى، أو دلائل هذه الفرضية كما نراها. من خلال النقاط الآتية:

أولاً: أول ما ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق هو أن قضية بأهمية قضية المهدي المنتظر أو عودة المسيح عيسى ودراميتها، لا يعقل أن يتجاهلها القرآن الكريم ولا يشير إليها مجرد إشارة، وقد ذكر ما هو أدنى منها قيمة وخطراً. إنها ليست أقل أهمية من أخبار عديدة وردت في القرآن عن الأمم السالفة. ليست أقل أهمية من ذي القرنين ويأجوج ومأجوج والدابة التي تكلم الناس، وزيد الذي قضى منها وطرا!. فكيف يستقيم في العقل أن يتجاهل القرآن خبر المهدي والدجال وعودة عيسى، وهي شخصيات خطيرة، تظهر في ظروف استثنائية وخطيرة للقيام بأعمال استثنائية؟. بل إن المهدي عند الشيعة هو أهم شخصية في الوجود، وظهوره هو أهم حدث في الدنيا، وموضوعه هو عمود المذهب والدين عندهم، فما هي الفلسفة التي تقف وراء تجاهل القرآن لهذه الموضوعات وتسريبها عبر مصدر آخر محاط بالشك كروايات الحديث؟!.

لقد انخرط القرآن في جدل واسع مع التراث الإسرائيلي وعقائد أهل الكتاب في عصره، فأشار إلى مجمل عقائدهم الأساسية، وجملة كبيرة من عقائدهم الثانوية. وكان يتعمد أن يقص على بني إسرائيل

أكثر الذي هم فيه مختلفون: «إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (النمل ٧٦). وهم لم يختلفوا في أمر كما اختلفوا في أمر المسيح المنتظر. فكيف تجاهل أهم خبر وأخطر عقيدة لديهم دون أن يشير إليها؟!. الجواب واضح: القرآن لم يتجاهل موضوع المسيح الموعود لدى بني إسرائيل، لكنه تحدث عن المسيح الحقيقي الذي أشارت إليه نبوءات موسى والأنبياء من بعده. النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة. النبي الخاتم أو «حجر الزاوية» كما سماه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. تحدث القرآن عن بشارة عيسى، وعن العلامة الزمنية الكبرى لظهوره. إذن فمن أين جاءت أخبار الدجال والمهدي والعودة الثانية لعيسى بن مريم؟!. وهل هناك مصدر آخر غير التراث الإسرائيلي؟ وهل هناك من أفكار تسربت إلى المجال الإسلامي كما تسربت الإسرائيليات؟!.

ثانياً: في حين تبدو النبوءة الأصلية في التوراة ذات وظيفة منطقية واضحة في سياقها الإسرائيلي، هي التبشير بخاتم الأنبياء، والإعلان عن إغلاق باب الاتصال بالسماء أمام أدعياء النبوة المحتملين، والإعلان عن انتقال المجتمعات البشرية من رعاية الوحي إلى رعاية العقل. فإن النبوءات المزيفة تبدو عديمة الجدوى تماما. إذ ما قيمة أن يظهر المهدي المنتظر وينزل عيسى من السماء ليقيما العدل في الدنيا سبع سنين أو أكثر من عمر البشرية؟!. ثم هل إقامة العدل المطلق من وظائف الدنيا أم من وظائف الآخرة؟!. وما قيمة أن يقع حدث أسطوري عظيم كنزول المسيح عيسى من السماء ليقوم بمهام غير مطلوبة في الدين أصلا، مثل كسر الصليب وقتل

الخنزير ووضع الجزية. وهل تأمر الشريعة بقتل الخنزير؟![1]. وما جدوى أن يحدث ذلك كله قبيل يوم القيامة ما دام أن أكثر الناس لن يؤمنوا بهذه الآيات العظيمة؟!. ألم تقل الأحاديث الصحيحة إن القيامة ستقوم بعد ذلك بقليل وليس في الدنيا من يقول: الله الله؟![2]. أخيراً، ما جدوى الإعلان عن ختم النبوات بمحمد ما دام أن البشرية ما زالت بحاجة لظهور أنبياء وأشباه أنبياء يسمونهم أولياء؟!. من السهل طبعاً أن يلفق القوم إجابات لهذه الأسئلة تحفظ ماء الوجه، فليس هناك قضية لا تقبل التبرير، مهما كانت باطلة. لكن أنى لها أن تكون جديرة بالاحترام؟!.

ثالثاً: هذا النموذج المركب من النبوة والملك لم يعرف إلا في تاريخ بني إسرائيل. فهو نموذج خاص بهم لم يحدث من قبل ولا من بعد. وهو نموذج غير مثالي من وجهة نظر الإسلام بدليل أنه كان استثناء في تاريخه. إذ لم يجمع بين مقامي النبوة والملك سوى اثنين هما داود وابنه سليمان. وملابسات هذه الحالة نفسها تدل على

(١) تقول الروايات في كتب الصحاح إن مدة مقام عيسى والمهدي سبع سنين. جاء في مسلم (٢٩٤٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ، قَالَ : فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

(٢) جاء في صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مالك أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلىَّ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ : اللهُّ اللهُّ».

أنها لم تكن خياراً مثالياً من وجهة نظر الدين. بدليل استياء النبي صموئيل من طلب قومه وتحذيره لهم من تبعات هذا الطلب، كما يروي سفر صموئيل الأول. فقد حذرهم بالقول: إن للملوك إذا جاءوا حقوقاً قد لا تستطيعون تلبيتها، فلا تغتروا بالأمر!، أنتم اليوم أحرار، لكن بعد أن ينصب عليكم ملك لن تكونوا بكامل حريتكم!. الملك الذي تطلبونه سيأخذ بنيكم ويجندهم في حروبه، ويتخذ منهم فلاحين وحصادين وصناع آلات حربية لبناء سلطانه. ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. سيأخذ أفضل حقولكم وأعنابكم وزيتونكم ويعطيها لرجاله. وسيجبي الضرائب على ماشيتكم وتكونون له عبيدا، وحين يحدث ذلك سـ «تصرخون إلى الرب كي ينقذكم من الملك الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يجيبكم الرب»[1]. وقد حدث بعد ذلك ما حذرهم منه بالفعل. ولأنها فكرة غير مثالية لم يحفل بها الدين بعد ذلك، فلم تتكرر حتى مع النبي الأخير نفسه!. الذي توفي دون أن يترك توجيها واحداً يخص السلطة السياسية من بعده. واستناداً إلى هذه الحقائق نقول إن فكرة الزعيم المنتظر الذي يجمع بين خصائص النبوة والملك ليست إسلامية المنبت، بل يهودية تسربت إلى العقل الإسلامي عبر قناة التشيع، لأن الإمامة عندهم ركن الدين!.

رابعاً: لم تسلم أخبار المهدي المنتظر من تشكيك بعض علماء أهل السنة قديما وحديثا. مما يدل على أنها فكرة غير جوهرية في الإسلام. وأشهر من يحضر اسمه في نقدها العلامة ابن خلدون في المقدمة، والأستاذ محمد رشيد رضا في تفسير المنار، وشيخه الإمام

(١) انظر: الكتاب المقدس، صموئيل الأول، الإصحاح ٨.

محمد عبده. وآية الله البرقعي[1] بعد تحوله عن المذهب الشيعي. يقول رشيد رضا: «وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر، والجمع بين الروايات فيه أعسر، والمنكرون لها أكثر، والشبهة فيها أظهر، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحيهما. وقد كانت أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ومن أدعياء الولاية وأولياء الشيطان، لدعوى المهدوية في الشرق والغرب، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب، وبالبدع والإفساد في الأرض، حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية، ومرق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[2].

أما ابن خلدون فيناقش الموضوع في مقدمته تحت عنوان «في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك». ويتعقب الروايات التي وردت بشأنه «وما للمنكرين فيها من المطاعن، وما لهم في إنكارها من المستند»[3]. ويخلص من

(١) هو آية الله العظمى أبو الفضل بن الرضا الرقعي. تلقى تعليمه في الحوزة العلمية بقم، ونال درجة الاجتهاد في المذهب الإمامي الجعفري، وله مئات المصنفات والبحوث والرسائل. كان في شبابه شيعياً متعصباً ثم ترك مذهبه في سن متأخرة وصنف كتباً في نقد التشيع وأفكاره. وبسبب هذا التحول تلقى الكثير من العنت والبغضاء التي وصلت حد الاعتداء عليه بالرصاص من قبل بعض متعصبي الشيعة في سنوات الثورة الإيرانية الأولى، ثم اقتيد للسجن أكثر من مرة. وقد توفي في العام ١٩٩٣م.

(٢) ١٧- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٩، ص٤١٦.

(٣) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، طبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨، ص ٣٨٨.

ذلك التتبع والاستقصاء إلى القول: «فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[1]. أي أن جميع روايات المهدي - باستثناء قلة قليلة منها - لم تسلم من نقد علماء الحديث المتقدمين. مع أن مجمل هذا النقد قد توجه صوب الأسانيد والرجال ولم يعن بالمتن والمضمون كما هي عادتهم. وكان ابن خلدون قد مهد لموقفه من هذه الروايات بقوله «إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل. فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي، تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها»[2]. وقد أثار هذا الموقف حفيظة بعض شيوخ التراث فحملوا على ابن خلدون واتهموه بعدم التخصص وقلة المعرفة فيما تصدى له، وهي عادتهم مع كل من يهدد لهم وهماً من الأوهام.

ويلخص آية الله البرقعي ما جاء في كتاب ابن خلدون فيقول إن: جميع أحاديث المهدي التي جاءت في جميع كتب أهل السنة لا تتجاوز عددا محدودا من الأحاديث التي تكررت ذاتها في كتب عديدة، «غير أن رواتها من الضعفاء. علاوة على أن كل حديث يذكر للمهدي اسماً وأوصافاً غير ما يذكره الحديث الآخر، وكل منها يسمي المهدي باسم غير ما يسميه به الحديث الآخر!. فأحد الأخبار يذكر بشكل مبهم أن الخلفاء عشرة، في حين يقول الخبر الثاني: إن الخلفاء اثنا عشر خليفة كلهم من قريش بشكل

(١) المرجع السابق: ص ٤٠١.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٨٩.

مبهم!. وخبر ثالث يقول: رجلاً!، وخبر رابع يقول: «أجلى الجبهة أقنى الأنف» (هل يعد هذا إرشاداً وبياناً لهوية شخص؟!) أفلا يعقلون؟، والخبر الخامس يقول: من عترتي، والخبر السادس يقول: رجل من أهل المدينة، والخبر السابع يقول: اسمه الحارث بن حران. والخبر الثامن: رجل من قريش، أخواله من كلب، وأما الخبر التاسع فيقول: إن اسمه محمد واسم أبيه عبد الله، والخبر العاشر يقول: اسمه محمد بن الحسن»[1].

ثم يعلق على ذلك بالقول إن هذا التضارب في البيانات، والإحالة على مجهول، لا يمكن أن يثبت شيئاً، ولا يصح أن يبنى عليه دين[2]. ويعتقد البرقعي - كما نعتقد - أن بعض السذج من أهل السنة قد تلقف أخبار المهدي عن الشيعة وأدخلها في تراثه، ثم عاد الشيعة للاحتجاج بها على أهل السنة من كتبهم[3]!.

ذلك عن مضامين روايات المهدي والمسيح المنتظر، فماذا عن دعوى تواتر هذه الأخبار يا ترى؟.

يبدو إن أول من حكم بتواتر أخبار المهدي هو أبو الحسن محمد بن الحسين الأبري السجزي المتوفى سنة ٣٦٦هـ. أي أن دعوى التواتر هذه لم تؤثر عن أحد قبله في القرون الثلاثة الأولى. ومما له دلالته - أيضاً - أن الفقهاء الكبار الذين نقلوا عنه هذه الدعوى

(١) دراسة علمية لأحاديث المهدي: آية الله العظمى سيد أبو الفضل بن الرضا البرقعي القمي، ترجمة وتحقيق: د. سعد رستم، دار العقيدة للنشر والتوزيع، توزيع شركة مكتبة العبيكان، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠١٤.، ص ١١٧.
(٢) انظر: المرجع السابق.
(٣) انظر: المرجع السابق: ص ٢١٩.

قد سكتوا عن تأكيدها أو نفيها ، فقد نقلها ابن القيم في كتاب «المنار»، وسكت عنها، ونقلها ابن حجر في «تهذيب التهذيب» وفي «فتح الباري» وسكت عنها، ونقلها السيوطي في «العرف الوردي في أخبار المهدي» وسكت عنها، وغيرهم كذلك. وما سكتوا إلا لعلمهم بأن دعوى التواتر في الأخبار عزيزة المنال، حتى أن بعض علماء الحديث قد نفى وقوعها في روايات الحديث جميعاً، كما قال النووي في التقريب حيث قال: «لا يكاد يوجد المتواتر في رواياتهم»[1].

أما الذين زعموا وجود التواتر في روايات الحديث جملة فقد حكموا بذلك بناء على تعريف خاطئ عندهم لحد التواتر، حيث قالوا بتواتر كل حديث تعددت طرق روايته وكثرت أسانيده، حتى لو كان بعض رواته من المحكوم عليهم بالضعف، وحتى لو أن هذه الروايات لم تشتهر في جميع حلقات الرواية. وهذا تعريف مخالف لما عرفه الأوائل من حد التواتر الذي كان يعني لديهم بحسب عبارة الشافعي «نقل الكافة عن الكافة»[2]، أي نقل الخبر عبر جماهير الناس من جيل إلى جيل، كما حصل مع القرآن والسنن العملية المفروضة. ولحساسية هذا الأمر فقد فضل هؤلاء الشيوخ نقل دعوى التواتر عن السجزي دون أن يعقبوا عليها بشيء، تماماً كما يفعل الراغب المتخوف!. واقتضى الأمر أن تمر مئات من السنين

(١) انظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر: أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بـ الكتاني (المتوفى: ١٣٤٥هـ)، تحقيق شرف حجازي، دار الكتب السلفية ‖ مصر، الطبعة الثانية، ص ١٠.

(٢) ترد أحياناً بلفظ «العامة» بدلًا من «الكافة». أنظر في تأصيل القضية كتاب: اليقيني والظني من الأخبار: الشريف حاتم بن عارف العوني، الشبكة العربية للأبحاث، الطبعة الثانية ٢٠١٣، ص ٨٧ وما بعدها.

قبل أن يأتي مغامر آخر مغمور ليحكم بتواتر أخبار المهدي هو محمد البرزنجي المتوفي سنة ١١٠٣هـ في كتابه «الإشاعة لأشراط الساعة». أي أنه لم يجرؤ أحد من الفقهاء الكبار المعتبرين في الألف السنة الأولى على ادعاء تواتر خبر المهدي بنفسه، والدلالة واضحة!.

وكانت أجيال عصور الانحطاط الإسلامي من علماء التراث قد استسهلت ادعاء التواتر في أمور كثيرة. هذا التساهل دفع واحداً من كبار شيوخ العصر الحديث هو الإمام الأكبر محمود شلتوت للقول محذراً: «ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت في الناس، وإن الحق ليتقاضى فيها واجبه من العلماء المسئولين أمام الله وأمام الرسول: تلك الظاهرة هي أنه على الرغم مما قرره العلماء في شأن التواتر تحديداً ووجوداً، وعلى الرغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث مما دون في الكتب بالتواتر، نرى بعض المؤلفين قديماً وحديثاً يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافاً أخرى كالشهرة والاستفاضة والذيوع على ألسنة العلماء، وتلقي الأمة إياها بالقبول والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث، أو في كتب التاريخ والمناقب.. إلخ. وقد يشتط أناس في سلوك هذا السبيل، فنراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على ألسنة النقلة في رواية الحديث، وهم يعلمون أنها روايات ضعيفة لا تصبر على النقد، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث حتى في الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها، ويجتهدون في عدها وإحصائها، وذكر الكتب التي اشتملت عليها لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة، ويستغلوا عاطفتهم الدينية،

ويزعموا لهم أن هذا الحديث أو تلك الأحاديث قد وردت عن نبيكم في هذه الكتب الكثيرة، وعلى لسان هذا الجم الغفير من الرواة بين صحابة وتابعين، فهي متواترة لا شك في تواترها، وهي متصلة بالرسول لا شك في اتصالها، ومن حاول الطعن فيها، أو الحط من درجتها، فقد ضل ضلالا بعيداً، وحاد عن سبيل المؤمنين»[1].

وفي بيان الأسباب التي حملت هؤلاء المسرفين على ادعاء التواتر في الروايات الأحادية ضرب شلتوت أمثلة على ذلك فقال: « وبذلك رووا الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، ثم توسعوا فوصفوا الآحاد بالتواتر، والضعيف بالصحيح، وتناسوا مقاييس التواتر والآحادية، ومقاييس الصحة والضعف، ومن هنا رأينا من يصف «المعجزات الحسية» كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وحنين الجذع بالتواتر، مع أنها غير متواترة، وإنما هي آحادية كما قرره علماء الأصول. وكذلك رأينا من يصف أخبار المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج وما إلى ذلك مما يذكر باسم «أشراط الساعة» بالشهرة أو التواتر»[2].

إن شيخ الأزهر هنا ينفي صراحة حصول التواتر في أخبار المهدي. ويكفينا من هذه الشهادات إسقاط دعوى الإجماع على وقوع التواتر. فبسقوطها تسسقط درجة الخبر من مستوى الأصول إلى مستوى الفروع. وفروع العقائد غير ملزمة عند جمهور أهل السنة، ولا يكفر منكرها.

(١) الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة عشرة ٢٠٠١، ص ٦٢/ ٦٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٦٤

لكن لماذا نقول إن مذاهب الشيعة هي القنوات التي تسربت منها الإسرائيليات إلى المجال الإسلامي؟.

من البدهي أننا لا نبحث عن أدلة تدين المذهب الشيعي من ذلك النوع الذي تطلبه الشرطة في القضايا الجنائية. وإنما نبحث عن القرائن والملاحظات الدالة على صحة الفرضية التي افترضناها. والحقيقة أننا لسنا بصدد البحث عن هذه القرائن لأن وجودها هو الذي ألهمنا القول بالفرضية، وإنما نبحث عن تفاصيلها. وهي أربع قرائن على الإجمال، الأولى: ذلك التشابه الكبير بين بنية المذهب الشيعي ومقولاته، وبنية المذهب الإسرائيلي ومقولاته. والثانية: أصالة الفكرة المهدوية عند الشيعة بوصفها عندهم أصلا من أصول الدين، وعدم اصالتها عند أهل السنة. الثالثة: أن عدداً من الشخصيات المؤسسة للمذهب الشيعي كانت لها علاقة - من نوع ما - بالمسيحية أو اليهودية. الرابعة: هي قدرة هذه الفرضية على تفسير الكثير من مبهمات وتناقضات المذاهب الإسلامية والإسرائيلية ومقولاتها بصورة أكثر نجاحا من غيرها.

القرينة الأولى: أصالة فكرة المهدوية عند الشيعة الإمامية بوصفها أصلا من أصول الدين، وعدم أصالتها عند أهل السنة:

من المعلوم أن عقيدة المهدي المنتظر تعد أصلا من أصول الدين عند الشيعة. ولها في التراث الشيعي نصيب كبير من الروايات والأحكام. في حين أنها مجرد عقيدة ثانوية مختلف عليها في مذهب أهل السنة وبقية المذاهب الإسلامية. ولأن الغني هو الذي يقرض الفقير فمن المتوقع أن الفكرة قد انتقلت من التراث الشيعي إلى

التراث السني وليس العكس. خاصة وأن المذهب السني كان مفتوحاً أمام مستويات من التشيع المقبول أو المعتبر. فانتسب إليه الكثير ممن حملوا بذور التشيع طوال التاريخ. ولعل هذه الشريحة السنية المصابة بجراثيم التشيع قد سربت الكثير من المقولات الشيعية إلى المذهب السني. ولا نستبعد أن يكون الأمر أكثر تنظيماً وتعقيداً من ذلك. فربما تعمد بعض الأذكياء تسريب مثل هذه الأفكار إلى المجال السني، كما كان يفعل حماد الراوية وخلف الأحمر مع الشعر الجاهلي!.

القرينة الثانية: ذلك التشابه الكبير بين بنية المذهب الشيعي ومقولاته، وبنية المذهب الإسرائيلي ومقولاته:

على الرغم من أن الإسرائيليات قد اخترقت الفضاء الإسلامي العام ابتداء من العقد الثالث في القرن الهجري الأول على الأرجح، وتسربت مقولاتها إلى مختلف المذاهب الإسلامية. إلا أن الدارس المدقق يمكنه ملاحظة أن حجم المادة الإسرائيلية في المكون الشيعي كانت أكبر منها في بقية المذاهب وأخطر. فهي من حيث الكم تكاد تشكل ٥٠٪ من عناصر المذهب الشيعي. ومن حيث النوع قد اخترقت أصول الدين نفسه كما سنرى في السطور القادمة. وحقيقة اختراق الإسرائيليات للمذهب الشيعي لم تعد أمراً منكراً حتى عند الشيعة أنفسهم، فقد اعترف بها عدد من علماء الشيعة قديما وحديثاً. ومن أحدثهم ظهوراً رجل بلغ درجة الاجتهاد في المذهب هو الشيخ كمال الحيدري. الذي ألمح في إحدى محاضراته على اليوتيوب إلى أن المذهب الشيعي برمته يكاد يكون مذهباً إسرائيليا.

لكنه يستدرك في محاضرة أخرى ويقول إن هذه الإسرائيليات قد تسربت إلى مذهب الشيعة عن طريق أهل السنة الذين تشيعوا!. وهي محاولة يائسة أراد فيها ضرب عصفورين بحجر واحد: الأول الاعتراف مضطراً بسيطرة الإسرائيليات على مذهبه، والآخر الادعاء بأن مذهبه كان ضحية للمذهب السني الخصم، باعتبار هذا الأخير هو مصدر الروايات الإسرائيلية. مع التنويه على أن هذه الدراسة ليست معنية بتتبع جميع وجوه التشابه ونقاط التقاطع بين المذهبين الشيعي والإسرائيلي أو أكثرها، لأن ذلك يحتاج لدراسة مستقلة واسعة النطاق لا يكفيها مجلدان أو ثلاثة. وإنما نهدف إلى بيان هذه الحقيقة بصورة مجملة من خلال عينات محدودة وكافية للتدليل عليها. وتكون الدلالة أبلغ والحجة أوضح إذا رصدنا نقاط الاتفاق في أصول الفكر بين الملتين، وهي:

أولاً: اتفاقهم في عقيدة الاصطفاء الإلهي لسلالة من الناس، اصطفاء عرقيا تترتب عليه حقوق مخصوصة لهم عند الناس في السلطة والثروة والمكانة الاجتماعية. فتشابهت المقولات والبنى: بنو هاشم في مقابل بني إسرائيل، وآل علي في مقابل آل يهوذا. أولئك أبناء الله وأحباؤه، وهؤلاء أبناء رسوله المصطفين الأخيار. مستندين إلى فهم عنصري لمثل قوله تعالى في آل عمران: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣). ومثلها وعود بمباركة نسل إبراهيم في التوراة. وهو فهم يتناقض مع جوهر الإسلام الذي جعل الإيمان والعمل الصالح معيارين للأفضلية والكرامة عند الله. وعلى أساسهما اجتبى الله المؤمنين برسالة محمد. والاجتباء أكثر خصوصية وشرفا من مفهوم الاصطفاء. لأن هذا

الأخير عملية قدرية لا يشترط فيها رضا الله ومحبته، أو أن للمصطفى مكانة عند الله أرقى من غيره. بدليل أن الله اصطفى طالوت ملكا لبني إسرائيل في وجود نبيين كبيرين هما صموئيل وداود الشاب.

ثانياً: اتفاقهم في فكرة الوصي، الذي يخلف النبي، ثم تخلفه ذريته في أعمال الكهانة الدينية وفكرة الإمامة السياسية. فهارون وصي موسى، وعلي وصي محمد، والإمامة الدينية والسياسية في سلالة هارون عند اليهود، وفي سلالة علي عند الشيعة!. التزاما ربما بتوجيه العهد القديم القائل: الأئمة من بني داود. وهي العبارة التي ترجمت إلى التراث الإسلامي بعبارة «الأئمة من قريش»!. وقد وضع الشيعة أنفسهم في الوصاية حديثا منسوبا للنبي يدل على أن الفكرة مستوحاة من كتب اليهود. وهو الحديث الذي ذكره الشيعي ابن المطهر في فضائل علي، وعلق عليه ابن تيمية في منهاج السنة بالقول إنه حديث مكذوب باتفاق أهل المعرفة بالحديث. ونص الحديث: «عن أنس بن مالك، قال: قلنا لسلمان: سل النبي صلى الله عليه وسلم من وصيه، فقال له سلمان: يا رسول الله من وصيك؟ فقال يا سلمان من كان وصي موسى؟ فقال: يوشع بن نون. قال: فإن وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب»[1]. والطريف في هذا الحديث المكذوب مخالفته لحديث «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟». فالوصي في هذا الأخير هو هارون وليس يوشع بن نون!.

(١) منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية: لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: د.. محمد رشاد سالم، لم تذكر دار النشر أو محل الطبع، الطبعة الأولى ١٩٨٦، الجزء الخامس، ص ٢٢.

ثالثاً: اتفاقهم في الإيمان بفكرة المخلص المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان بأوصاف تفوق أوصاف الأنبياء والمرسلين. فشخصية المهدي المنتظر عند الشيعة هي معادل شخصية المسيح الموعود عند المسيحيين واليهود. حتى أن المفكر الشيعي محمد باقر الصدر يقول إن فكرة المهدي «أقدم من الإسلام وأوسع منه»[1]!. فهو الشخص الذي تعطلت قوانين الكون لأجله. مشيراً إلى عمره الذي صار أطول من عمر نوح، في غيبة لا تختلف كثيراً عن غيبة عيسى في السماء!. والصدر بهذه العبارة يرغب في الاستحواذ على بشارات الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى في المسيح الموعود لصالح الوهم الشيعي الذي أطلق عليه اسم المهدي!.

رابعاً: اتفاقهم في جعل الإمامة السياسية ركنا من أركان الدين. حتى ليخيل إليك أن لا قضية في الدين سوى قضية الإمامة والمنتظر. فالإيمان لدى الطائفتين قانون في السياسة أكثر منه قانون في الأخلاق. واتفاقهم أيضاً في القول بتعيين الأئمة (الملوك) من قبل الله. وجعل الإمامة في سلالة أحد الأئمة: وما حديث «الأئمة من قريش»، إلا صدى صوت لعبارة وردت في الإصحاح ٤٩ من سفر التكوين على لسان النبي يعقوب يتنبأ فيها لذرية ابنه يهوذا بحيازة الملك. تقول العبارة: «لا يزول صولجان الملك من يهوذا ولا مشترع من صلبه حتى يأتي شيلوه (ومعناه: من له الأمر) فتطيعه الشعوب». وهي عبارة مكذوبة على يعقوب دون شك، ودلائل وضعها كثيرة منها: أولاً: لأن ما صدر عن يعقوب في جلسة

(١) بحث حول المهدي: محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت لبنان، طبعة ١٩٧٧، ص ٩.

الحديث تلك مع أبنائه لا يصدر عن نبي قطعا. إذ لا يمكن أن يحمل نبي على بعض أبنائه كل ذلك الحقد الذي حمله يعقوب على بكره رأوبين، الذي اتهمه بتدنيس فراشه بالزنا مع جاريته بلهة. وحديث يعقوب عن نسل شمعون ولاوي يكاد يكون لعنة نبوية لا تصدر عن نبي حليم. ثانيا: وهو الأهم، لا يمكن أن يكون يعقوب قد تنبأ بحصول بعض أبنائه على الملك، لأن هذا لو صح لكان النبي صموئيل أول من يتقبل ذلك عندما طلب منه قومه أن يدعوا ربه ليبعث لهم ملكاً مثل جالوت الفلسطيني، فبعث لهم طالوت ملكاً. فقد أبدى صموئيل ممانعة وعدم رغبة في الاستجابة لرغبة قومه، ولم يذكر أحد منهم هذه النبوءة في سياق الموضوع. ثالثا: وهو الأخطر أن طالوت الذي اختير ملكاً أول لبني إسرائيل لم يكن من سبط يهوذا بل من سبط بنيامين. ما يعني أن نبوءة يعقوب لم تكن صحيحية!. وكأن الله بهذا الاختيار قد أراد فضح التحريف، كما فضح أكذوبة المسيح ابن داود عندما خلق عيسى من غير أب بشري!. ولا شك أن كهنة مملكة يهوذا قد دسوا هذا التحريف الذي يخدمهم في وقت لاحق.

خامساً: اتفاق الشيعة واليهود في القول بفريضة مالية تؤخذ من بعض أموال المؤمنين وثرواتهم، هي الخمس عند الشيعة لبني هاشم والعشور عند اليهود لبني لاوي. أوجبها اليهود بنص العدد ٢١ من الإصحاح ١٨ من سفر العدد، يقول: «وأما بنو لاوي فجعلت لهم كل عشر في بني إسرائيل ميراثاً عن خدمتهم التي يخدمونها في خيمة الاجتماع». وأوجبها الكهنة المسلمون بتأويل فاسد لقوله الله تعالى في سورة الأنفال: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١). فقد رأى الشيعة ومن في حكمهم من أهل السنة أن الخمس المذكور يعطي لقرابة النبي وعشيرته الهاشمية من بعده!. والعجيب المريب أن الشيعة يولون هذا الحق المزعوم اهتماما أكبر من اهتمامهم بالزكاة التي نص عليها القرآن صراحة في عشرات الآيات القرآنية مقرونة بالصلاة!.

سادساً: اتفاقهم في الإيمان بشخصية «الفادي» الذي بذل نفسه رخيصة في مواجهة الباطل. إذ تقف شخصية الحسين بن علي الكربلائية في المخيال الشيعي أمام شخصية المسيح عيسى ابن مريم على الصليب في المخيال المسيحي. وقد انتقلت بعض الطقوس الاحتفائية بذكرى الصلب عند بعض الطوائف المسيحية إلى الشيعة في العهد الصفوي، واستمرت فيهم إلى اليوم. إذ يحرص الشيعة في عدد من الدول، كالعراق ولبنان وإيران، على تقديم عرض تمثيلي لواقعة مقتل الحسين بن علي في يوم العاشر من محرم ضمن عدد من الشعائر والطقوس التي تهدف إلى إحياء هذه الذكرى. وهو الطقس الذي كانت بعض الطوائف المسيحية على إقامته. وكتب عنه الروائي اليوناني الكبير كزنتزاكس روايته المشهورة «المسيح يصلب من جديد».

وهناك تفاصيل أخرى متطابقة بين التراثين الشيعي والإسرائيلي في الأحكام والطقوس الدينية لا يشكل معظمها أصولاً عقدية. لكنها تكشف عن مدى تأثير الفكر الإسرائيلي في الفكر الشيعي

والتفت إلى بعضها أحمد امين في فجر الإسلام فقال: «فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة. وقال الشيعة: إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً كما قال اليهود: لن تمسنا النار إلا أياما معدودات». والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه. وقالوا: إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام»[1].

وكذلك قولهم إن الشمس قد ردت لعلي في إحدى المناسبات كما ردت ليوشع بن نون وصي موسى. واشتراكهم في تحريم بعض اللحوم كلحم الأرنب وبعض أنواع السمك. وطقس التطبير الذي أخذه الشيعة عن بعض الطوائف المسيحية، وهي بدورها أخذته عن اليهود الذين عبدوا البعل في كنعان. وقد كان التطبير أحد طقوس عبادة البعل[2]. كما يمكنك أن تلحظ حضور العنصر الإسرائيلي في الذهنية الشيعية من كتاب الكافي عن كتاب الجفر المنسوب إلى جعفر الصادق، حيث روى: «سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن عندي الجفر الأبيض، قال: قلت: فأي شيء فيه؟ قال: زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم»[3]. وكتاب الجفر هذا يشابه كتب القبالة اليهود، من حيث اهتمامه بأسرار المستقبل واستعمال الحروف والأرقام في تشفير البيانات، وكأنه كان أحد كتب اليهود العراقيين.

كما يمكنك أن تلحظ هذا التأثير في علامات سيميائية مثل كلمة «سيد» التي يطلقها الشيعة على المنتسبين للقبيلة الهاشمية هو ايضاً

(١) فجر الإسلام: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي، ص ٢٩٧.
(٢) انظر: سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٨، العدد ٢٨.
(٣) انظر: شرح أصول الكافي: مولى محمد صالح المازندراني، ج ٥، ص ٣٣٩. (موقع المكتبة الشيعية).

أحد تأثيرات الثقافة المسيحية. إذ من المعروف أن الكتاب المقدس قد استعمل هذه اللفظة في مخاطبة الرب أحيانا، إلا أن أشهر استعمالاتها فيه هو استعمالها للدلالة على المسيح الموعود في سفر المزامير: «قال الرب لسيدي إجلس عن يميني».(١ : ١١٠). ولكي يوحي كتبة الأناجيل بأن عيسى هو المقصود بها حرصوا على أن تكون على ألسنة مخاطبيه دائما[١]. ويكاد التأثير الإسرائيلي على المذهب الشيعي ينطق في عبارت مثل تلك التي وصفت بها روايات الشيعة مهديها بالقول إن «لونه لون عربي وجسمه جسم إسرائيلي»![٢]. لأن المنظور في العبارة الأخيرة يتضمن استعلاء لا يصدر عن عربي!.

القرينة الثالثة: ذلك الحضور الكثيف للمادة الإسرائيلية (اليهودية والمسيحية) في التراث الشيعي:

أعني بالمادة الإسرائيلية مختلف الظواهر الخاصة ببني إسرائيل والديانتين اليهودية والمسيحية. كأسماء الأعلام، والنصوص الدينية، والمقولات المذهبية، والأحكام الفقهية. وهي من الحضور والانتشار في المذاهب الشيعية إلى حد يصعب معه حصرها وتقصيها. لذلك سنكتفي بإيراد نماذج كافية الدلالة، بالإضافة إلى ما سلف منها في السطور الماضية:

١. **حديث المنزلة:** روت كتب السنة والشيعة حديثا منسوبا إلى النبي يخاطب فيه ابن عمه علي بن أبي طالب بالقول: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟!». واللفظ هنا للبخاري في صحيحه أما رواية مسلم فقد وردت فيها زيادة تقول: «إلا أنه لا

(١) انظر على سبيل المثال: متى، ١٥ : ٢٢ و ١٥ : ٢٥ و ١٧ : ١٥ و ١٨ : ٢٦.
(٢) انظر: دراسة علمية لأحاديث المهدي: ص ٢٢٠.

نبي بعدي». وهو أحد أشهر الأحاديث التي يحتج بها الشيعة على مذهبهم في إمامة علي بن أبي طالب وخلافته للرسول بعد موته. وعلى الرغم من أن ابن تيمية قد قدم له تحليلاً منطقياً يفسد فيه حجة الشيعة، في كتاب «منهاج السنة»، إلا أن ما يعنينا فيه هو حضور المنظور الإسرائيلي، الدال على أن قائله يهودي لا مسلم!. إن القائل هنا يستحضر الموروث اليهودي الخاص الذي يزعم أن نبي الله موسى قد مسح هارون بالزيت المقدس ونصبه كاهناً لبني إسرائيل هو وذريته إلى الأبد كما تقول التوراة المحرفة[1]. وتقليد المسح والكهانة - بمختلف صورها - ليس من تقاليد الإسلام الذي يمثله القرآن قطعاً. كما أن معظم التيار الإسلامي غير الشيعي لا يعرفه.

وإذا كان هناك من احتمال لصحة هذا الحديث، فإن الملابسات التاريخية التي ورد فيها هي التي تفسره، وفقاً للمنظور القرآني في قصة موسى وهارون لا وفقاً للمنظور التوراتي. والسياق التاريخي للحديث كما روته كتب الحديث الأخرى يقول إن النبي قد أراد بهذا الكلام مواساة علي بن أبي طالب الذي عبر عن شعوره بعدم الرضا لقرار النبي تركه في المدينة ليرعى حاجات النساء والأطفال والعجزة في غياب النبي وصحابته الذاهبين إلى تبوك لملاقاة الروم.

٢. **خطبة الغدير**[2]: لعل خطبة الغدير المنسوبة إلى النبي في كتب الشيعية هي أفضل نموذج يمكن أن يمدنا بالدلائل على الأصابع اليهودية التي نسجت العمامة الشيعية. فقد احتشدت في هذه الخطبة العديد من العلامات الإسرائيلية. بدأت بحديث المنزلة المشار إليه

(١) الكتاب المقدس: سفر الخروج، إصحاح ٤٠ عدد ١٢ ـ ١٥.
(٢) الخطبة بطولها مرفقة بنهاية الكتاب بعنوان: ملحق رقم ١.

قبل قليل. والبقية جاءت على النحو الآتي:

وردت فيها عبارة « هذا يوم شيث، يوم إدريس، هذا يوم يوشع، هذا يوم شمعون». وبإمكانك أن ترى الزنانير اليهودية تتدلى بوضوح من هذه العبارة!. إذ أن حشد هذه الأسماء العبرية ليس له معنى سوى إقحام المنظور اليهودي الخاص في الحدث. خصوصاً وأن بعض المذكورين لم يكن نبياً من الدرجة الأولى عند بني إسرائيل، مثل هوشع الذي لم تكن له سابقة تمت للموضوع بصلة. ولا هو من الأنبياء المذكورين في القرآن. وأبرز ما جاء عنه في العهد القديم هو أنه تزوج امرأة زانية أنجبت له ولدين وهربت مع عشيقها ثم أمره الله أن يستردها!. فما يوم هوشع هذا الذي تذكره الخطبة؟!. ومثله شمعون الذي لا تعرف الأدبيات الإسلامية عنه شيئاً. وعرف في الكتاب المقدس بوصفه أحد أبناء يعقوب المتآمرين على يوسف، وأن يعقوب قد لعنة على خلفية مشكلة أخرى، فأصبح نسله غير مبارك!. كما أن العرب لا تنطق بعض هذه الأسماء حسب مخارجها العبرية، بل تعربها بما يتناسب مع جهازها الصوتي. فالعرب يلفظون اسم شمعون بالسين (سمعون). وكل هذه قرائن على أن مؤلف الخطبة يهودي أو من خلفية يهودية غير محترفة.

مما ورد في الخطبة أيضا عبارة تقول: «فحج بهم، وبلغ من حج مع رسول الله من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألفا الذين أخذوا بيعة هارون». لقد أقحم موسى وبيعة هارون في هذا النص إقحاماً لسبب غير منطقي، إلا استحضار المنظور الإسرائيلي

الـذي هنـدس المذهـب برمتـه. ويبـدو أن اليهـودي يشـير إلى الإصحـاح ٤٠ مـن سـفر الخـروج الـذي تحـدث عـن تنصيـب موسـى لهـارون وذريتـه كهنـة لبنـي إسرائيـل إلى الأبـد!.

مـن القرائـن الإسرائيليـة في خطبـة الغديـر المشـار إليهـا ورود العـدد ١٢ الـذي يرمـز إلى أسـباط إسرائيـل. حيـث جـاءت البشـارة بإثنـي عـشر إمامـاً مـن عترتـه إلى آخـر الدنيـا.

ورد اسـم المهـدي في الخطبـة موصوفـاً بأنـه خاتـم الأئمـة. وكأن المهـدي هـو الشـخصية التـي ابتكرهـا العقـل اليهـودي قياسـاً عـلى شـخصية موسـى الثـاني. فهـذا شـبيه موسـى وذاك شـبيه محمـد!.

ورد مصطلـح «الـوصي» أيضـا في الخطبـة - ومـا كان لـه أن يغيـب - ليعلـن عـن مصـدره الحقيقـي، وهـو الـتراث اليهـودي.

٣. خـبر أم الإمـام الثـاني عـشر[1]: لقـد اضطـر مخترعو مذهب التشـيع إلى إبـداع العديـد مـن الحكايـات والروايـات التـي تسـد ثغـرات المذهـب وتبررهـا. وكانـت مقولـة الإمـام الغائـب هـي إحـدى تلـك الثغـرات وأكثرهـا اتسـاعاً. لأنهـا جـاءت مصادمـة لمـا عرفـه عامـة النـاس في زمـن الإمـام الحـادي عـشر، مـن أنـه لم يعقـب بولـد مـن نسـله، وأن العلويـين مـن عشـيرته قـد قسـموا تركتـه عـلى هـذا الأسـاس، ولم يكـن بإمـكان أحـد أن ينكـر هـذه الحقائـق في حينهـا أمـام العامـة. فلجـأ الكذابـون إلى اخـتراع قصـة الإمـام الـذي ولـد في الـسرّ مـن جاريـة روميـة نصرانيـة تزوجهـا الإمـام الحـادي عـشر. وألفـوا لهـذا الـزواج قصـة كأنهـا قطعـة مـن ألـف ليلـة وليلـة. بـل إن هـذه القصـة كـما وردت في كتـب الشـيعة

(١) الرواية كاملة في نهاية الكتاب تحت عنوان: ملحق ٢

الأوائل يمكن أن تكون مستنداً لنقاد الأدب يدلهم على أحد مصادر ألف ليلة وليلة. وليس هذا مجال تعقب علامات الوضع والكذب الظاهرة في الرواية[1]، فالذي يعنينا منها هنا هو ذلك الحضور الكثيف للرؤية الإسرائيلية والعلامات الإسرائيلية (المسيحية) فيها. لتقدم دليلاً إضافياً على حجم التأثير الذي مارسته الإسرائيليات في صناعة المذهب الشيعي. وعلى أن هذا المذهب من الغنى بالإسرائيليات إلى حد أن يكون مورداً لها إلى المذاهب الإسلامية الأخرى لا مستوردا. وإليك أهم تلك العلامات الواردة في الرواية:

تبدأ الرواية باسم الجارية ونسبها. فإذا هي - ويا للمصادفة! - تنتسب من جهة أبيها إلى قيصر ملك الروم النصراني!، وتنتسب من جهة أمها إلى شمعون المعروف في المسيحية باسم بطرس. وبطرس هذا هو مؤسس الكنيسة الرومانية حسب اعتقاد المسيحيين. أما اسمها فهو مليكة بنت يشوعا بن قيصر الروم. ومن الواضح أن مؤلف القصة لم يكن صاحب ثقافة جيدة في أسماء الرومان، ولا في ملوكهم ولا في عاداتهم، فليس من أسماء الروم يشوعا ومليكة، ولا نعرف ملكا روميا بهذا الاسم في تلك الفترة!.

وردت على لسان الجارية عبارة تقول فيها للنخاس: «لو برزت في زي سليمان وعلى مثل سرير ملكه ما بدت لي فيك رغبة فأشفق على مالك». مما يدل على حضور الوعي الكتابي لدى الجارية. وهذا منطقي مادامت نصرانية كما قال المؤلف!.

(١) قدم آية الله البرقعي دراسة نقدية موسعة ودقيقة لفكرة المهدي وأخبارها في كتب الحديث الشيعية، ترجمت إلى العربية بعنوان «دراسة علمية لأحاديث المهدي».

جاء على لسانها جملة: «أنا مليكة بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم، وأمي من ولد الحواريين تنسب إلى وصي المسيح شمعون، أنبئك العجب العجيب إن جدي قيصر أراد أن يزوجني من ابن أخيه وأنا من بنات ثلاث عشرة سنة فجمع في قصره من نسل الحواريين ومن القسيسين والرهبان ثلاثمائة رجل». وفي هذه الجملة العديد من علامات الوعي الإسرائيلي، كعبارة «وصي المسيح شمعون». وشمعون يحضر في هذه الرواية كما حضر من قبل في رواية خطبة الغدير!. ويبدو منها أن الواضع لم يكن ملماً أيضاً بعادات الرومان في الزواج. فلم يعرف أنهم كانوا يجمعون كل هذا العدد الكبير من الرهبان والقسس في زواج أحد. ثم إنه لا مبرر لذلك في هذه القصة إلا الإيحاء بأن الجارية قد أعددت في عالم الغيب إعداداً خاصاً لتكون زوجة المنتظر!.

وتستمر العلامات الإسرائيلية في الاحتشاد تباعاً بذكر الإنجيل والصلبان، وزيارة مريم ابنة عمران لها في المنام.

واللافت أن واضع الرواية قد أيد بها من حيث لا يدري عقائد المسيحيين التي يبطلها الإسلام. فالقساوسة والرهبان يحضرون بصلبانهم وعقائدهم في رواية تبجيلية غير مقبولة في المنظور الإسلامي.

القرينة الرابعة: أن عدداً من الشخصيات المؤسسة للمذهب الشيعي كانت لها علاقة - من نوع ما - بالمسيحية أو اليهودية:

إن حضور الوعي الإسرائيلي - والمسيحي على وجه الخصوص - في الحياة والفكر الشيعيين هي حقيقة تاريخية تثبتها مراجع الشيعة

أنفسهم، وليس مجرد افتراض. حقيقة تبعث على الدهشة بالفعل إذا ما عرفت أن أبرز الشخصيات المفكرة والمؤثرة في الفكر الشيعي عند تأسيس هذا المذهب وفي بداية عصر التدوين (١٥٠ هـ) كانت في أغلبها ذات أصول مسيحية. وها هي ذي كتب الرجال الشيعية والسنية تحدثنا عن أبرز ست شخصيات في تاريخ التشيع من خارج البيت العلوي هي المؤسس الحقيقي للمذهب عند التحقيق وهم:

١. **زرارة بن أعين (١٥٠ هـ)**: قال فيه ابن النديم: «إنه أكبر رجال الشيعة فقها وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع، أبوه أعين كان عبداً رومياً لرجل من بني شيبان تعلم القرآن فأعتقه. وجده سنبس كان راهباً في بلاد الروم»[١]. وكان زرارة من أصحاب الإمام الخامس محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، الذي ينتسب إليه المذهب الفقهي الاثنا عشري. ومما له دلالة أن عصر هذين الإمامين هو عصر تأسيس المذهب الإمامي في صورته الكلامية. إذ وردت معظم روايات المذهب عنهما. ونسب المذهب الفقهي إلى أحدهما (جعفر)، وهذا أمر يبعث على الريبة. إذا كيف ينسب معظم المذهب إلى إمامين معصومين (عندهم) لا إلى جميع الأئمة. وكأن أئمتهم المعصومين لم يكونوا على مستوى واحدا من العلم والفقه!. وقد سجلت كتب الفرق آراء لزرارة هذا تدل على أنها نبتت في تربة التجسيم المسيحي. منها قوله إن جميع صفات الله من جنس صفاتنا[٢]. وأن حياته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره كحياة الخَلق

(١) ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة العاشرة، ج ٣ - ص ٢٦٥.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (٤٢٩ هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧، ص ٢١٨.

وعلمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وأنها كلها حادثة مثل صفات الأجسام. وهذا كلام لا يقوله إلا من روض عقله على عقيدة اللاهوت المختلط بالناسوت كما هو الحال في المسيحية.

٢. هشام بن الحكم (١٧٩هـ): قال عنه أحمد أمين[١]: «فأما هشام بن الحكم، فيظهر أنه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، كان مولى لبني شيبان، وكان من تلاميذ جعفر الصادق». ومما له دلالة أن هشاما هذا كان يقول بالتجسيم مثل صاحبه زرارة. فقد نقل ابن تيمية كلام أحد المجسمة مثل قوله «إن لله جسماً له طول وعرض وعمق، ويجوز عليه المصافحة، وأن الصلحاء يعاينونه في الدنيا]...[وقال: معبودي جسم ولحم ودم وله جوارح»[٢]. ثم علق عليه بالقول: «هذا بعينه قول هشام بن الحكم الرافضي كما قدمنا، نقله الناقلون للمقالات عنه مثل أبي عيسى الوراق وزرقان وابن النوبختي والأشعري وابن حزم والشهرستاني وطائفة، وقالوا: أول من قال إنه جسم هشام بن الحكم»[٣]. والتجسيم بالمواصفات المذكورة عقيدة مسيحية متأثرة بالوثنيات المعروفة قبل القرن الأول للميلاد. ولا يستبعد أن يكون هشام بن الحكم قد أخفى ديانته المسيحية تحت ثوب الإسلام ليسهل عليه تلويث عقيدة الإسلام كما فعل بولس في دين المسيح عيسى. وسيرته في كتب الرجال توحي بأنه كان من هذ االنوع المتنمر بالعقيدة الرسمية السائدة للمسلمين.

(١) ضحى الإسلام: ص ٢٦٨.

(٢) المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، مختصر منهاج السنة: تأليف تقي الدين ابن تيمية، اختصره أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، حققه وعلق على حواشيه محب الدين الخطيب، وكالة الطباعة والترجمة -الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، ص ١٠٠.

(٣) المرجع السابق: ص ١٠١ ـ ١٠٢.

يعرفه محب الدين الخطيب في هامش منهاج الاعتدال بالقول: «هشام بن الحكم مولى كندة، نشأ في أحضان أبي شاكر الديصاني الزنديق، وكان من غلمانه، ومن بيئة أبي شاكر رضع أفاويق الإلحاد والزندقة والتجسيم، حتى إذا فرق الدهر بينه وبين أستاذه الأول بحث عن زميل آخر منحرف عن جادة السنة الإسلامية فجمعه الدهر بأحد الجهمية، على تناقض مذهب هشام في التجسيم ومذهب جهم في نفي الصفات، إلا أن الجامع بينهما انحراف كليهما عن الجادة والغلو في البدعة»[1].

٣. شيطان الطاق (ح ١٨٠هـ): يقول عنه أحمد أمين[2]: «وأما شيطان الطاق فاسمه محمد بن النعمان بن أبي طريفة البجلي من أصحاب جعفر كذلك». ولقبه عند الشيعة مؤمن الطاق ويعدونه من كبار رواتهم ومتكلميهم. وله شنشنة في صفات الله تشبه شنشنة صاحبيه زرارة وهشام بن الحكم. تدل على أن وراء أفكارهم الظاهرة أفكاراً تجسيدية مسيحانية باطنة تظهر قروحها في جسد التشيع. جاء في مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: «وقال شيطان الطاق وكثير من الروافض: إن الله عالم في نفسه ليس بجاهل ولكنه إنما يعلم الأشياء إذا قدرها وأرادها فأما من قبل أن يقدرها ويريدها فمحال أن يعلمها لا لأنه ليس بعالم ولكن الشيء لا يكون شيئاً حتى يقدره وينشئه بالتقدير والتقدير عندهم الإرادة»[3].

(١) المرجع السابق: ص ٢٥.
(٢) ضحى الإسلام: ج ٣، ص ٢٦٩/ ٢٧٠.
(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (٣٢٤هـ)، تحقيق نعيم زرزور، الناشر المكتبة العصرية الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ج ٢، ص ٣٦٨.

إن مثل هذا الكلام يذكر بصفات الأقنوم الثاني في المسيحية. فهو أدنى من الآب كلي العلم، وأعلى من الروح القدس.

٤. أبو منصور العجلي (ح ١٢٠هـ): قال عنه المستشرق هانس هالم[١]: «كان أبو منصور بدوي الأصل، وكان قسم من قبيلته «عبد القيس» العربية الشمالية الشرقية قد اعتنق المسيحية قبل ظهور الإسلام»، «وكان يلقب كما يذكر المؤرخون السنة بـ «العجلي» وكان لبني عجل وهم بطن من بطون بكر بن وائل ماض مسيحي أيضاً، وكان يقال فيهم إنهم اتخذوا الصليب بعلاً». ثم يورد هالم ملاحظة[٢] ملفتة للمؤرخ الإيطالي موسكاتي يقول فيها: «إن عدد العجليين بين الزنادقة الشيعة القدامى كان مرتفعاً بصورة ملفتة للنظر»، وكانت فرقة المنصورية المنتسبة إليه تقول «إن أول خلق خلقه الله عيسى، ثم علي بن أبي طالب، ..» إلى آخر ذلك من الهرطقات ذات الطابع الغنوصي المسيحاني. ويبدو أن التربة الشيعية قد تشبعت بالأفكار المسيحية في تلك الفترة.

٥. المغيرة بن سعيد (ح ١٢٠هـ): تطابقت المصادر على القول بأنه كان ساحراً ومنجماً، ويعد لدى الكشي ضمن الزنادقة السبعة. ظهر بعد وفاة محمد الباقر مدعياً أنه هو الإمام إلى أن يخرج المهدي. يقول هانس هالم[٣]: «لا يعرف من أين جاء المغيرة ومن هو، إذ يعرف المؤلفون الإماميون اسمه فقط. ويشار إليه ابن قتيبة كمولى لقبيلة بجيلة [...] وينسب لدى البغدادي والشهرستاني بالنسبة «العجلي»...

(١) الغنوصية في الإسلام: هاينس هالم، ترجمة رائد الباش، مراجعة د. سالمة صالح، منشورات الجمل، بدون بيانات طبع، ص٦٤.
(٢) المرجع السابق: ص ٦٤.
(٣) المرجع السابق: ص ٦٥.

وقد ادعى النبوة، وتكلم عن معرفة «الاسم الأعظم الأكبر»، وتحدث عن المهدي. يقول هالم: «إن فكرة الإسم الأعظم يهودية في أصلها (هشيم هجادول، هشيم هيمفوراش)[1]. ويتحدث المؤرخون الشيعية عن صلته بامرأة يهودية تعلم عنها السحر والتنجيم.

٦. **جابر بن يزيد الجعفي (١٢٨/ ١٣٢ هـ)**: هو مولى بني جعف، وهم بطن من بطون قبيلة مذحج، وخليفة المغيرة بن سعيد على رئاسة فرقة المغيرية. يقول عنه هالم: «هو واحد من أهم الشخصيات، ليس فقط بالنسبة للغلو الكوفي، ولكن أيضاً للتشيع في بداياته مطلقاً. إلا أنه موضوع خلاف: ففي حين يبجله الغلاة المتأخرون معتبرينه واحداً من أعظم معلميهم، يطالب الإماميون به لأنفسهم، إذ يعتبرونه أهم راو لأحاديث الإمام الخامس محمد الباقر». ومن أهل السنة من يوثقه ويعتبره صدوقاً، فقد قال عنه سفيان الثوري «جابر الجعفي صدوق في الحديث إلا أنه يتشيع»[2].

هذه ست شخصيات أثرت تأثيراً واسعاً في الفكر الشيعي بقسميه الغنوصي (الباطني) والإمامي (الجعفري)، كلها من الموالي، أربعة منها لها علاقة وطيدة بالمسيحية واليهودية. وليس هذا مجال استقصاء مظاهر تأثير الفكر الإسرائيلي في الفكر الإسلامي بالطبع، فهي كثيرة يصعب حصرها في عمل كهذا[3]. ومما يجدر ملاحظته في أمر الشخصيات الست الماضية أنهم جميعاً ظهروا في الفترة ما بين ٨٠ - ١٥٠ هـ، وهي فترة ما قبل التدوين مباشرة وما حولها. أي

(١) المرجع السابق: ص ٦٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٦٩.
(٣) أنظر مثلًا: كتاب: التأثير المسيحي في تفسير القرآن: د. مصطفى بو هندي، وكتاب «كعب الأحبار: إسرائيل ولفنسون.

تلك الفترة المستورة المظلمة في تأسيس المذاهب الشيعية، فلا غرابة إن وجدنا المذهب الجعفري يعطي حضوراً واسعاً لإمامي هذه الفترة محمد الباقر وولده جعفر الصادق، أكثر من الأئمة الذين سبقوهم[1]. أما الملاحظة الثانية فهي أن أشياء مريبة كانت تحدث في تلك الفترة مثل أن يكون جابر الجعفي مقبول الرواية عند أكثر من مذهب، على الرغم من أنه كان خليفة لزنديق كبير في فرقة من الزنادقة، وعلى الرغم من أن الروايات التي نسبها إلى جعفر الصادق تشي بكذبه وتدل على مكره ودهائه. وتقول الرويات إنه كان يتصنع الجنون لكي يتفادى السلطة العباسية التي تضطهد أمثاله!.

القرينة الخامسة: أن التشيع قد نشأ في العراق لا في المدينة أو مكة. وأن أكثر أتباعه كانوا من الحميريين اليمنيين.

من اللافت والطريف أن مذهب التشيع قد حاكى المذهب المسيحي حتى في ملابسات نشأته التاريخية. إذ من المعروف أن المسيحية - التي انشقت عن اليهودية واعتبرت لفترة من الزمن مذهباً يهودياً منحرفاً - قد نشأت خارج حدود منطقة فلسطين التي عاش فيها النبي عيسى ومات. أي خارج حدود منطقة الدعوة الأولى والتأسيس. بل خارج المجال الحضاري لصاحب الرسالة. وكذلك كانت نشأت المذهب الشيعي - الذي بدأ على شكل انحراف سياسي بسيط في جيل الصحابة ما لبث أن تحول إلى انحرافات دينية متشعبة انتهت أحياناً بملل غير إسلامية - قد نشأ خارج حدود المركز الإسلامي الأول. أي خارج المدينة المنورة أو مكة. والعراق هي كلمة

(١) باستثناء الإمام الأول في السلسلة (علي) الذي أعطي في فترة لاحقة حضوراً في الرواية المكذوبة والخطب المجموعة في كتاب «نهج البلاغة».

السرّ الأولى في فهم المذهب الشيعي وفك أسراره. لقد كان العراق قبل الإسلام مباشرة حاضرة مكتظة بالملل المختلفة. ومنها اليهودية بالطبع. ولا يحتاج المرء إلى ذكاء لمعرفة أن وجود هذه الملل والنحل كان لا بد أن يؤثر ويتأثر بالفكر الوافد إليه ويصبغ كل منهما الآخر بصبغته. هذا إذا ترك الأمر للظروف التلقائية. أما إذا وجدت دواعي الصراع أو التحريف العمد فإن التأثير سيبلغ حداً يحاول فيه أحد الطرفين ابتلاع الآخر. وهذا ما حدث بين اليهودية والإسلام في العراق في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

زد على ذلك عاملا آخر لا يقل تأثيراً عن الأول هو أن أكثرية المتعاطفين مع تيار العلويين كانوا من الحميريين اليمنيين. وهؤلاء كانوا يهوداً في الأصل تشبعوا بالثقافة اليهودية إلى درجة أن بعضهم كان يرى الإسلام بعيون يهودية كما قال ولفنسون عن كعب الأحبار. ومن يعرف الشخصية اليهودية يدرك إلى أي مدى يصعب عليها التخلص من ثقافتها ودينها. فليس غريبا أن يستصحب البعض يهوديته وهو ذاهب للإسلام!. وقد فطن اليهودي إسرائيل ولفنسون إلى هذه الخاصية في بني قومه الذين التحقوا بالإسلام فذكر بعضهم مثل ابن سلام ووهب بن منبه وعبد الله بن سبأ ثم عقب بالقول: «وقد كانوا جميعاً من أصل يهودي يعلن بعضهم يهوديته القديمة أو يسكت عن شعوره تجاهها، بينما هم لم يستطيعوا أن ينسلخوا تماماً من تراثهم الديني القديم، أو يتجردوا من طابعهم القومي الأصيل، أما كعب الأحبار فقد كان يهودياً من المهد إلى اللحد، فقد تشبع بالعقلية اليهودية، حتى برزت فيه هذه النحلة بروزاً لم ير مثله عند غيره من مسلمة اليهود. فقد كان بعد

إسلامه كأنه لم يترك دين أجداده. إنه كان ينظر إلى الإسلام بالعين اليهودية»[1]. وسواء كان ذلك بوعي من كعب الأحبار وأمثاله أو بدون وعي منهم فقد بذروا بذرهم الذي نما وأثمر في ما بعد. يدرك ذلك من يطالع في الدرسات المعاصرة والقديمة عن تأثير الإسرائيليات وحضورها في التراث الإسلامي. ويكفي لإدراك الدور الذي قام به اليمنيون في خدمة التشيع والعلويين معرفة أن مؤسسي مدينة قم المقدسة عند الشيعة كانوا يمنيين أشعريين. من الذين «كانوا قد نزلوا الكوفة فيمن نزلها بعد فتح العراق، قادمين من اليمن. ثم إنهم شاركوا بالأحداث التي ضج بها العراق بعد يوم كربلاء. ومن ذلك أنهم وقفوا إلى جانب المختار، بعد أن رفع شعار الاقتصاص ممن شارك في دماء الشهداء. ثم إنهم كانوا مع الثائرين على الحجاج منذ بدأت المعارك»[2].

القرينة السادسة: المقدرة التفسيرية العالية لهذه المقولة أمام الكثير من مبهمات المذاهب الإسلامية والإسرائيلية وتناقضاتها.

تثير عقيدة المسيح المنتظر لدى الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، الكثير من الأسئلة الحائرة والتناقضات التي لا حل لها إلا بهذه المقولة التفسيرية. ويصح هذا أيضا على التناقضات والمشكلات في التراث الإسلامي المنقول إليه. وهناك العديد من الأمثال والأحاجي التي وردت على لسان أنبياء بني إسرائيل في العهدين القديم والجديد يصعب فهمها بوضوح دون هذه المقولة.

(١) كعب الأحبار، مسلمة اليهود في الإسلام: ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) التاريخ السري للإمامة: جعفر المهاجري، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٥، ص ٤٤/ ٤٦.

فعلى مستوى التراث اليهودي تجيب هذه المقولة على عدد من الأسئلة الحائرة مثل: لماذا لم يظهر مسيح اليهود المنتظر منذ حوالي ٣٢٧٠ سنة؟! أي منذ أطلقها موسى في صحراء سيناء. أليست مدة طويلة أكثر مما يجب؟. ثم أليس من الواضح أن علامات المسيح المنتظر قد توفرت في النبي محمد؟. هل هناك شخص آخر ممن ادعى النبوة غير محمد يشبه موسى؟!. ألم يجرب محمد حرمان الأمومة كما جربها موسى؟ ألم يمارس رعي الأغنام كما مارس موسى؟! ألم يتعرض للاضطهاد في وطنه كما تعرض موسى؟ ألم يهاجر بقومه من وطن الاضطهاد كما هاجر موسى؟!. ألم ينشئ محمد مجتمعا جديداً كما فعل موسى؟!. من من أدعياء النبوة في التاريخ شابه موسى في هذه النقاط غير محمد؟!. أليس هذا مصدقا لعبارة موسى في التثنية: «أقيم له من بني أخوتهم نبيا مثلك»؟.

وعلى مستوى التراث المسيحي، تحل هذه المقولة جملة من الألغاز والتناقضات في كتب العهد الجديد مثل: تسمية الأناجيل نفسها. إذ لا معنى لكلمة إنجيل (بشارة) إذا كان المسيح عيسى قد أرسل ليبشر بنفسه، أو باقتراب عودته التي مضى عليها أكثر من ٢٠٠٠ عام حتى الآن!. إن القضية الأساسية التي شغلت بني إسرائيل في زمنه - كما يظهر من سيرته في الأناجيل القانونية - لم تكن شيئا سوى قضية المسيح الموعود. فهل كان يبشر بشيء آخر غير المسيح القادم؟!. وكيف يكون هو نفسه المسيح ابن داود كما يزعم المسيحيون وهو ينفي أن يكون المسيح من أبناء داود في المناظرة الشهيرة مع الفريسيين؟!.

بل إن هذه المقولة قد تكشف عن سرّ آخر من أسرار المسيح عيسى التي لا تنتهي. ذلك هو سرّ مجيئه المختلف، وسرّ بعثته في تلك اللحظة من الزمن!. إذ لا شك أن الكثير ممن عرفوا قصة المسيح عيسى قد تساءلوا: لماذا اختار الله أن يخلقه بنفخة من الروح القدس لا عبر علاقة طبيعية بين زوجين مثل جميع الأنبياء والبشر؟! ولماذا اختار له اسم المسيح عيسى بنفسه؟ ولماذا رفعه الله إليه بطريقة غامضة غير مفهومة؟ ولماذا ظهر في تلك اللحظة من الزمن؟ أليست مدة طويلة تلك التي تفصله عن المسيح الموعود الذي بعث ليبشر به؟.

لقد تم كل ذلك - في تصوري - لتحقيق هدف واحد هو إبطال تحريفات بني إسرائيل بخصوص نبوءة المسيح من ناحية، وإنجاح مهمة عيسى التبشيرية من ناحية أخرى. بلغة الكتاب المقدس: لقد كان الرب ينصب لفريسته فخاً. فاليهود ينتظرون مسيحاً إسرائيليا من بني داود حسب النبوءة المحرفة. حسن، سنرسل لهم رسولاً من دون أب بشري يبشر بالحقيقة، ولن يكون في وسعهم أن ينكروا نبوته - من ناحية - لأن معجزاته الخارقة تشهد له، ولا في وسعهم أن يزعموا بأنه المسيح الموعود - من ناحية أخرى - لأن ميلاده المعجز من دون أب بشري تتنافى مع الشرط الذي وضعوه للمسيح الموعود!. أما مجيئه في تلك اللحظة من التاريخ فقد كان مناسباً تماماً إذا ما علمنا أن بني إسرائيل كانوا في تلك الفترة ينتظرون على أحر من الجمر ظهور المخلص الذي ينقذهم من اضطهاد الرومان. ألم يخبرهم دانيال بأن مملكة الرب ستظهر في فترة وجود الامبراطورية الرابعة؟. ها هي ذي الامبراطورية الرابعة تحتل فلسطين بكاملها.

وهـا هـو ذا شـعب الله المختـار ينتظـر مسـيحه المخلـص ليقاتـل وراءه ويحطـم امبراطوريـة الرومـان!.

في ظـل هـذه الملابسـات كان لا بـد أن يظهـر النبـي قبـل الأخـير ليبـشر بالنبـي الأخـير. ويسـدل السـتار عـلى قصـة الأنبيـاء. ويصعـد العقـل إلى مـسرح الأحـداث لاسـتكمال المهمـة في ضـوء كلمـة الله الأخـيرة. وسـيكون مناسـباً أن يحـاط المسـيح المبـشر بآيـات وملابسـات اسـتثنائية تجعـل مـن الصعـب تكذيبـه في قـوم اعتـادوا عـلى تكذيـب الأنبيـاء وتحريـف كلامهـم. أمـا النبـي الأخـير فـلا يحتـاج إلى كل هـذه الكرامـات والآيـات لأنـه لـن يخاطـب جيلـه وحـده كـما يفعـل النبـي، بـل يخاطـب الأجيـال التاليـة عليهـا جميعـاً إلى يـوم القيامـة. ومثـل هـذه المهمـة لا تحتـاج إلى معجـزات زمنيـة بقـدر مـا تحتـاج إلى آيـة واحـدة عابـرة للزمـان، وقـد كانـت القـرآن الكريـم!.

أكثـر مـن ذلـك يمكننـا اعتبـار هـذه المقولـة التفسـيرية وسـيلة معتـبرة في فحـص بعـض روايـات الحديـث المنسـوب إلى النبـي، وتلك التفسـيرات القرآنيـة المنسـوبة لبعـض الصحابـة والتابعـين. وفي دائـرة أخـص سـتضع تـراث عبـد الله بـن عبـاس وخادمـه عكرمـه في دائـرة العنايـة المركـزة. لأن هذيـن العلمـين كانـا وعـاء مـن أوعيـة كعـب الأحبـار وغـيره من مسـلمة اليهـود الذيـن ضخـوا كميـات لا بـأس بهـا مـن الآراء والتفسـيرات اليهوديـة في المجـال الإسـلامي في تلـك الفـترة. وكتـب التفسـير تحتفـظ لنا بطائفـة نموذجيـة منهـا. مثـل ذلـك التفسـير الـذي قدمـه كعـب الأحبـار لقولـه تعـالى عـن حادثـة الإسراء: وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرَىٰ عِنـدَ سِـدْرَةِ الْمُنتَهَـىٰ (النجـم ١٣-١٤). إذ قـال كعـب إن رسـول الله قـد رأى ربـه. ولما

بلغ ذلك عائشة زوج النبي كذبته فاعتذر![1]. واللافت في هذه الحكاية هو تعقيب الباحث اليهودي المعاصر إسرائيل ولفنسون، حيث قال: «وليس من شك في أن نظرية كعب في مسألة رؤية النبي لربه هي نفسها المذكورة في التوراة عن موسى الذي رأى ربه»[2]. لا ندري إن كان ولفنسون يشير بهذه العبارة إلى رغبة كعب الأحبار في عقد مشابهة بين محمد وموسى تحت تأثير عقيدة المسيح الموعود أم لا، لكنها واضحة. ويبدو أن إسرائيل ولفنسون قد كتمها في نفسه تحت تأثير يهوديته! على قاعدة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ٧٦).

حديث المعراج

لعل أدل ما نختم به هذه الفقرة هو تجريب هذه المقولة التفسيرية في نقد حديث منسوب للنبي في أحد أوثق المصادر عند المسلمين. أعني تلك الرواية التي وردت في صحيح مسلم عن حادثة المعراج المزعومة. حيث زعمت الروايات أن النبي محمداً بعد الإسراء به إلى القدس قد عرج به إلى السماء السابعة وما بعدها حيث التقى ببعض الأنبياء قبل أن يلتقي ربه!. وقد تعرضت روايات المعراج للنقد والتشكيك من قبل. ولمح فيها بعض النقاد أصابع يهودية لا تخفى. ولا يتذكر الكاتب الآن ما طرق سمعه قبل سنين من تلك النقود وفي أي مرجع وردت،

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تفسير سورة النجم.
(٢) كعب الأحبار، مسلمة اليهود في الإسلام: ص ٣٤.

لكنه سيقف وقفته النقدية مع الرواية، فما ورد فيها من نقاط تشابه مع نقد السابقين فهو من آثارهم وما كان جديدا فهو من أفكار الكاتب.
جاء في الحديث المرفوع بصحيح مسلم:

«حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل : من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء صلوات الله عليهما، فرحبا، ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال : محمد. قال: وقد

بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب، ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: { ورفعناه مكانا عليا }. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون صلى الله عليه وسلم، فرحب، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه. قال : قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى صلى الله عليه وسلم، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فقال: ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل، وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي. فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى. فقلت: حط عني خمسا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه

السلام، حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

إذا كنت صاحب حدس جيد فبإمكانك ملاحظة الأصابع اليهودية التي نسجت هذه الرواية من خلال العلامات الآتية:

١. لفظة «البراق» التي وردت في العبارة الأولى «أتيت بالبراق» هي مقلوب لفظة عبرية معروفة في التراث اليهودي تنطق «كروب». جاء في سفر المزامير أن الرب قد ركب على كروب وطار وحلق على أجنحة الرياح![1]. وجاء في قاموس الكتاب المقدس من دائرة المعارف الكتابية المسيحية في شرح الكلمة: «ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى، أقامهم الله على أبواب جنة عدن عندما طرد أدم وحواء منها (تك ٣: ٢٤) ويقال عنهم أنهم ذوو جناحين». والظاهر أن كلمة «برق» العربية قد أخذت من معنى هذه الكلمة، لتشابه بينهما في السرعة وقوة الضوء. كما يبدو أن اليهود أنفسهم قد أخذوا فكرة الحصان المجنح من ثقافة الأمم المجاورة لهم في فلسطين. فالحصان المجنح معروف في الميثولوجيا الإغريقية ويسمى عندهم بيجاسوس. وقد ظهرت الأحصنة المجنحة في رسوم الحضارات العراقية القديمة

(١) الكتاب المقدس: مزامير ١٨: ١٠-١١.

والحضارة المصرية القديمة. ودخلت هذه الصور إلى التراث اليهودي من وقت مبكر، بدليل أن التوراة تتحدث عن كروبيم مرسوم على تابوت موسى نفسه، وعلى جدران هيكل سليمان. وقد ورد ذكر الكروبيم في مواضع عدة من أسفار العهد القديم.

وستجد الحصان المجنح في كتب الحديث والتفسير الإسلامية مرتبطا بالنبي سليمان، كعلامة أخرى على كون الفكرة يهودية!، فقد جاء في سنن أبي داود حديث وصف بالصحيح يقول: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك – أو خيبر – وفي سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة؛ لعب، فقال: «ما هذا يا عائشة؟». قالت : بناتي. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع، فقال : «ما هذا الذي أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟». قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟». قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه».

إن أول علامات الوضع في هذه الرواية هو سن عائشة في غزوة خيبر أو تبوك. فالرواية توحي بأنها كانت في سن الطفولة واللعب. ربما استناداً إلى التقديرات المغلوطة التي روجها الرواة عن سن عائشة وقت زواجها بالنبي. فقد روت بعض الصحاح أن النبي تزوجها في سن السادسة ودخل بها بعد الهجرة وهي في سن التاسعة. ثم تبين أنها تقديرات مغلوطة، وأن النبي قد دخل بها بعد الهجرة وهي في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. وغزوة خيبر وقعت في السنة السابعة للهجرة أما تبوك ففي السنة التاسعة. أي أن سن عائشة في زمن غزوة

خيبر لن يقل عن ٢٤ سنة. وهذا عند العرب لم يعد سن طفولة ودلال!. وهذا التحليل إن صح يؤكد أن الرواية موضوعة من قبل شخص متأثر بالثقافة اليهودية. بدليل عبارة «أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟». إذ من المعروف أن الخيول المجنحة قد وردت في كتب التفسير في سياق الحديث عن النبي سليمان عند تفسير قوله تعالى: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (ص ٣١). وأكثر التفسيرات المتعلقة بقصص أنبياء بني إسرائيل قد نقلت عن مسلمة اليهود. فقد كان من عادة صغار الصحابة وجيل التابعين أن يسألوهم عن تفاصيل قصص أنبياء بني إسرائيل. ولا شك أن هذه الرواية قد خرجت من خبائهم.

٢. ترتيب مواقع الأنبياء الواردة أسماؤهم في الرواية يأتي مطابقاً للاعتقاد اليهودي حول مقاماتهم. ففي السماء الثانية يسكن عيسى بن مريم ويحيى بن خالته، العدوان اللدودان لليهود في زمنهما!. وفي السماء السادسة وضع موسى أعظم الأنبياء في عقيدة اليهود!. لا يعلو عليه إلا الأب المؤسس (إبراهيم)!. ولا مجال للقول بأن الترتيب هنا قد خضع لمعيار الزمن، بحسب ظهور النبي. بدليل أن يوسف قد وضع في السماء الثالثة قبل هارون الذي وضع في الخامسة، مع أنه بمعيار الزمن أسبق من موسى وهارون ظهوراً. وآدم نفسه قد وضع في السماء الأولى، مع أنه الأسبق مطلقاً، ومع أن حضوره في المشهد برمته غير مبرر!.

٣. غياب النبيين العظيمين داود وسليمان من المشهد، يتوافق أيضاً مع مكانتهما عند اليهود!. فقد كانا في نظر كتاب التوراة ملكين كبيرين لا نبيين من الأنبياء. وكان هذا قد لفت انتباه د. محمد خليفة أحمد في دراسته عن ظاهرة النبوة في بني إسرئيل فقال: «ويزداد الأمر

غموضاً وإبهاماً عندما تنزع صفة النبوة من شخصيات هامة في التاريخ الديني الإسرائيلي مثل داود وسليمان، الذين عدهما الإسلام من الأنبياء الملوك»[1]. بل إن كتبة العهد القديم قد ذهبوا أبعد من ذلك في تشويه صورة هذين النبيين حيث نسبوا إليهما ما لا يليق من الأعمال والتصرفات المشينة. كسلوك النبي داود تجاه أوريا الحثي، أحد قادة جيشه، ودفعه للموت من أجل الاستحواذ على زوجته الفاتنة، التي ستصبح زوجة لداود وأما لسليمان!. فلا غرابة إذن أن يغيب هذان النبيان في حفل الاستقبال السماوي هذا!.

٤. أما أكثر العلامات بروزاً في المشهد فهو هذا الدور الاستثنائي الذي أعطته الرواية لموسى، بحيث يبدو صاحب مقام عظيم يتضاءل بجانبه مقام النبي محمد نفسه!. فهو النبي الخبير الذي استعمله الله للتخفيف على أمة محمد من ثقل الخمسين صلاة. وكأنما أراد واضع الرواية أن يجعل لموسى يداً على المسلمين لا تنسى!. مع أن الحكاية تتضمن في جوفها دليل كذبها كما لاحظ نقاد آخرون. إذ بحسب هذه الرواية فإن الصلاة قد فرضت على المسلمين في حادثة الإسراء التي وقعت في مكة قبل الهجرة. وهذا مخالف لما اتفق عليه الفقهاء من أن الصلاة ما فرضت على المسلمين بهذه الهيئات إلا بعد الهجرة. وقد تكلف بعض شيوخ الدين في تبرير هذا التناقض فقال أحدهم: «أما مسألة المرائي التي أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمور لم تكن شرعت في الإسلام لأن تشريعها سيتأخر، فالعلم عند الله سبحانه وتعالى في المسائل ليس مترتبا بأن يعلم شيئاً يقع أولاً، وبعد ذلك شيء يقع ثانية، وإنما كل الكون بما كان ويكون معلوم لله سبحانه وتعالى دفعة

(١) ظاهرة النبوة الإسرائيلية: ص ٧.

واحدة. وكأن الحق سبحانه وتعالى أمده بنهايات هذه الأشياء حتى إذا ما استقبلت تكليفاً، أقبل الناس عليها بشغف وبلهفة وبشوق»[1].

٥. أخيراً فإن القارئ المتمرس يمكنه أن يلحظ بسهولة البصمة اليهودية في هذه الرواية، من خلال تلك الخلفية التجسيدية للرب في الرواية. فالرب هنا يبدو قريباً قرباً حسياً خلف سدرة المنتهى. تلك الشجرة التي يمكن للناظر أن يجد لها صوراً شبيهة من عالم الصحراء العربية نفسها!. في مشهد يذكر بصورة الرب في الكتب والمخيال اليهودي. الرب الذي يتجسد ويحاور ويناور ويصارع مخلوقاته أحياناً. إن هذه الدرجة من التجسيد الحسي غير مألوفة في الخطاب الإسلامي الأصيل الذي يمثله القرآن. كما أن ثيمة الزيارات السماوية المتبادلة بين الرب والأنبياء ثيمة يهودية معروفة. فقد اعتاد بنو إسرائيل أن يرسلوا أنبياءهم غير المرغوب فيهم إلى السماء في عربات سماوية تجرها خيول مجنحة!. فهذا سفر الملوك الثاني يخبرنا أن النبي إيليا (إلياس) في نهاية أيامه بعد أن ضاق من كفرهم وعنادهم قد ذهب إلى نهر الأردن ومشى على الماء ثم «جاءت مركبة وفرسان نارية وحملت إيليا إلى السماء وترك ردائه لأليشع (٢ مل ٢ : ١-١٨). وعادة ما يرسم الفنانون إلى جوار قصته حصاناً مجنحاً.

إننا أمام منظور يهودي خالص في الرواية الماضية، لا تخطئه عين الدارس المحترف. ومن السهل إضافة عشرات الشواهد الأخرى الدالة على قوة حضور المنظور اليهودي في تفسير الإسلام وتحريفه خلال النصف الثاني من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني للهجرة.

(١) الإسراء والمعراج: محمد متولي الشعراوي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٨٩-٩٠.

الخاتمة

لقد كانت هذه الدراسة طوال الوقت تخاطب تلك الفئة من القراء التي سلمت ابتداء بوجود حقيقة دينية. وأن للحقيقة الدينية خططها وأسرارها الخاصة. أما تلك الفئة المتشككة أو الرافضة فلها خطاب آخر يبدأ من نقاط قبلية. لكن هذا لا يمنع أن نعرض أمامها وجهة نظرنا في جدوى هذه الدراسة ومثيلاتها. إذ يمكننا القول بأن النبوءات المتسلسلة في الكتب الدينية بأوصاف الأنبياء اللاحقين تعد قرينة عقلية على صحة الدين، إذا بلغت حداً معقولاً من الكثافة والتأويل. إذ من المستبعد أن تكون هذه القرائن الكثيفة مجرد مصادفات محضة. صحيح أن الأمر ليس بتلك الدرجة من الوضوح بالنسبة لتلك الفئة من الناس التي تفضل البراهين الحاسمة في موضوع الدين تحديداً!. لكنه قد يكون قرينة مرجحة يطمئن إليها القلب بالنسبة لتلك الفئة التي تعتمد على الحدس أكثر من العقل الصريح في استكشاف الحقائق. وما هو الحدس سوى تلك الخبرة التي كونتها النفس من التجارب العميقة وأصبحت بمثابة العقل الثاني للإنسان!.

إنه لأمر لافت بالفعل أن تقبل كل تلك النصوص في الكتب المقدسة – وغيرها كثير مما لم نتناوله في هذه الدراسة – التفسير بمقولة واحدة تبين مبهماتها وتفسر تناقضاتها وتنسج من خيوطها صورة مكتملة. ولافت أيضاً هذا العجز من قبل الكهنة والكتبة الإسرائيليين عن محو كافة الإشارات والقرائن التي تدل على شخصية منتظرة لا يرغبون في استقبالها!. لقد كان بإمكانهم تأليف حكاية أخرى غير هذه إذا كان الأمر أمر تأليف وخيال محض، فما بالهم لم يفعلوا؟!.

إننا نعتقد بأن الرغبة الصادقة في معرفة الحقيقة والبحث عنها في أكوام الزيف وأشباه الحقائق التي خلقها أعداء الحقيقة للتشويش عليها، يدخل في دائرة الامتحان الإلهي لإرادة الإنسان المكلف بالدين. ومقاومة الصوارف النفسية التي توحي للمرء بأن لاحقيقة سوى تلك التي تتعرى أمام ناظريه من الوهلة الأولى. صحيح أن الحقيقة بسيطة في ذاتها، وأن البساطة إحدى سماتها الجوهرية، إلا أن المشكلة ليست في الحقيقة ذاتها بل في التراب الذي أهيل عليها عبر الزمن، أو في الخطوط التي أضيفت عليها لتعطيها شكلاً غير شكلها الأصلي. تماماً كما يفعل معلمو الرسم أحياناً حين يحولون الأرقام البسيطة إلى صور حيوانية بإضافة بعض الخطوط عليها. لقد حاول الأحبار والكتبة ومؤسسو المذاهب الدينية المنحرفة دائماً إضافة خطوط ذكية إلى صورة الحقيقة الأصلية البسيطة لتبدو على غير هيئتها.

ومن المتوقع بالطبع أن تواجه هذه الدراسة ومثيلاتها بتهمة التلفيق المتكلف الذي ينسج من الخيال قمصاناً وعباءات. وهي تهمة محببة لأولئك الذين لا يجدون في أنفسهم الصبر الكافي والخبرة الفنية للبحث والتأمل والمقارنة. ولا يعنيهم أن يقدموا إجابات جادة لأسئلة محيرة مثل سؤال: كيف نفسر هذا الكم من التوافقات بين معطيات الظاهرة الدينية ونصوصها المختلفة من ناحية، وبين بقية الظواهر من ناحية أخرى، مثل ذلك التوافق الذي جعل الديانات الإبراهيمة الثلاث تتفق جميعاً على فكرة ختم النبوة في لحظة زمنية توافقية، فتعلن اليهودية أنها تنتظر النبي الخاتم، وأن آخر أنبيائها قد بعث قبل عيسى!. ثم تعلن المسيحية كذلك أن عيسى بن مريم هو النبي الخاتم. ثم يأتي محمد بعد ذلك ليقول إن سوء

فهم قد حصل في الموضوع نتيجة التحريف والتزييف المتعمد، وأنه هو النبي الخاتم!. إن مجرد الاتفاق على فكرة ختم النبوة بين هذه الأمم لأمر محير بالفعل، لا يمكن تفسيره وفقاً للرؤية التي تزعم أن الأديان عبارة عن مؤلفات بشرية إبداعية، فالمبدعون لا يتوقفون عن الإبداع بدون مبرر وجيه!.

أو ذلك التوافق العجيب بين ظهور الصحف الأولى - كما سماها القرآن - مع ظهور إبراهيم النبي، وبين حقيقة أن إبراهيم قد وجد في عصر اكتشاف الكتابة؟!. وذلك التوافق الطريف بين إشارة القرآن إلى «الحديد» في سياق حديثه عن النبي داود، مع قول المؤرخين إن حقبة العصر الحديدي في الشرق الأوسط قد بدأت قبل حوالي ألف سنة من ميلاد المسيح. وهي نفس الفترة التي ظهر فيها النبي داود؟!. وذلك التوافق بين ظهور موسى في نهاية الحقبة البرونزية وبين سقوط النظام العالمي الذي تشكل قبلها على مدى ثلاثة آلاف سنة!. وكأن صراعه مع فرعون كان خلاصة رمزية لصراع المستضعفين مع الامبراطوريات المتجبرة الآيلة للسقوط أو الغرق!. أخيراً ألا تستحق التوافقات الجزئية التي بلغت كثرة لا فتة للانتباه في هذه الدراسة - حتى شكلت صورة شبه واضحة - ألا تستحق التفات العقل العلمي إليها؟!. ألا تستحق وصف النظرية التاريخية؟! وما النظرية سوى مقولة تسد ثغرة علمية كما قال ستيفن هوكنج؟!.

ملحق رقم (١)

خطبة الغدير[١]

«فقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوق تلك الأحجار ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه فقال:

الحمد لله الذي علا في توحده، ودنا في تفرده، وجل في سلطانه، وعظم في أركانه، وأحاط بكل شئ علما وهو في مكانه، وقهر جميع الخلق بقدرته وبرهانه مجيدا لم يزل محمودا لا يزال، بارئ المسموكات وداحي المدحوات وجبار الأرضين والسماوات، قدوس سبوح رب الملائكة والروح، متفضل على جميع من برأه متطول على جميع من أنشأه، يلحظ كل عين والعيون لا تراه، كريم حليم ذو أناة، قد وسع كل شئ رحمته ومن عليهم بنعمته، لا يعجل بانتقامه ولا يبادر إليهم بما استحقوا من عذابه، قد فهم السرائر وعلم الضمائر، ولم تخف عليه المكنونات، ولا اشتبهت عليه الخفيات، له الإحاطة بكل شئ والغلبة على كل شئ والقوة في كل شئ والقدرة على كل شئ وليس مثله شئ، وهو منشئ الشئ حين لا شئ، دائم قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، جل عن أن تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، لا يلحق أحد وصفه من معاينة، ولا

(١) نقلا عن كتاب: الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الناشر انتشار الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٣٨٠ه، ج ١، ص ٧٤ - ٨٤.

يجد أحد كيف هو من سر وعلانية إلا بما دل عز وجل على نفسه. وأشهد أنه الله الذي ملأ الدهر قدسه، والذي يغشى الأبد نوره، والذي ينفذ أمره بلا مشاورة مشير ولا معه شريك في تقدير ولا تفاوت في تدبير، صور ما أبدع على غير مثال وخلق ما خلق بلا معونة من أحد ولا تكلف ولا احتيال، أنشأها فكانت وبرأها فبانت، فهو الله الذي لا إله إلا هو المتقن الصنعة الحسن الصنيعة العدل الذي لا يجور والإكرم الذي ترجع إليه الأمور.

وأشهد أنه الذي تواضع كل شئ لقدرته وخضع كل شئ لهيبته ملك الأملاك ومفلك الأفلاك ومسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل يطلبه حثيثا، قاسم كل جبار عنيد ومهلك كل شيطان مريد، لم يكن معه ضد ولا ند، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، إله واحد ورب ماجد يشاء فيمضي ويريد فيقضي ويعلم فيحصي ويميت ويحيي ويفقر ويغني ويضحك ويبكي ويمنع ويعطي، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل لا إله إلا هو العزيز الغفار، مجيب الدعاء ومجزل العطاء، محصي الأنفاس ورب الجنة والناس، لا يشكل عليه شئ ولا يضجره صراخ المستصرخين ولا يبرمه إلحاح الملحين، العاصم للصالحين والموفق للمفلحين ومولى العالمين، الذي استحق من كل من خلق أن يشكره ويحمده. أحمده على السراء والضراء والشدة والرخاء، وأؤمن به وبملائكته وكتبه ورسله، أسمع أمره وأطيع وأبادر إلى كل ما يرضاه واستسلم لقضائه رغبة في طاعته وخوفا من عقوبته، لأنه الله الذي لا يؤمن مكره ولا يخاف جوره،

وأقر له على نفسي بالعبودية وأشهد له بالربوبية وأؤدي ما أوحي إلى حذرا من أن لا أفعل فتحل بي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته لا إله إلا هو، لأنه قد أعلمني أني إن لم أبلغ ما أنزل إلي فما بلغت رسالته وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحي إلي: بسم الله الرحمن الرحيم « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك « في علي [يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام] « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس».

معاشر الناس ما قصرت في تبليغ ما أنزل الله تعالى إلي، وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: إن جبرئيل عليه السلام هبط إلي مرارا ثلاثا يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد فأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي، الذي محله مني محل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وهو وليكم من بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى على بذلك آية من كتابه « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون « وعلي بن أبي طالب عليه السلام أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عز وجل في كل حال. وسألت جبرئيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس لعلمي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وإدغال الآثمين وختل المستهزئين بالإسلام الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، وكثرة إذا هم لي في غير مرة حتى سموني إذنا. وزعموا أني كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه،

حتى أنزل الله عز وجل في ذلك قرآنا « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن « على الذين يزعمون أنه أذن « خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين « الآية. ولو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت وأن أومي إليهم بأعيانهم لأومأت وأن أدل عليهم لدللت، ولكني والله في أمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله مني إلا أن أبلغ ما أنزل إلي، ثم تلى صلى الله عليه وآله « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك « في علي « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس «فاعلموا معاشر الناس أن الله قد نصبه لكم وليا وإماما مفترضا طاعته على المهاجرين والأنصار وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر وعلى الأعجمي والعربي والحر والمملوك والصغير والكبير وعلى الأبيض والأسود وعلى كل موحد ماض حكمه جائز قوله نافذ أمره، ملعون من خالفه مرحوم من تبعه مؤمن من صدقه، فقد غفر الله له ولمن سمع منه وأطاع له.

معاشر الناس إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد فاسمعوا وأطيعوا وانقادوا لأمر ربكم، فإن الله عز وجل هو مولاكم وإلهكم ثم من دونه محمد صلى الله عليه وآله وليكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليكم وإمامكم بأمر ربكم، ثم الإمامة في ذريتي من ولده إلى يوم تلقون الله ورسوله، لا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله، عرفني الحلال والحرام وأنا أفضيت بما علمني ربي من كتابه وحلاله وحرامه إليه. معاشر الناس ما من علم إلا وقد أحصاه الله في، وكل علم علمت فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من علم إلا علمته عليا، وهو الإمام المبين. معاشر الناس لا تضلوا عنه ولا تنفروا منه ولا تستكبروا [ولا تستنكفوا]

مـن ولايتـه، فهـو الـذي يهـدي إلى الحـق ويعمـل بـه ويزهـق الباطـل وينهـى عنـه ولا تأخـذه في الله لومـة لائـم. ثـم إنـه أول مـن آمـن بـالله ورسـوله، وهـو الـذي فـدى رسـوله بنفسـه وهـو الـذي كان مـع رسـول الله ولا أحـد يعبـد الله مـع رسـوله مـن الرجـال غـيره.

معـاشر النـاس فضلـوه فقـد فضلـه الله، واقبلوه فقـد نصبـه الله. معاشر النـاس إنـه إمـام مـن الله ولـن يتـوب الله عـلى أحـد أنكـر ولايتـه، ولـن يغفـر الله لـه، حتـما عـلى الله أن يفعـل ذلـك بمـن خالـف أمـره فيـه وأن يعذبـه عذاباشـديدا نكـرا أبـد الآبـاد ودهـر الدهـور، فاحـذروا أن تخالفـوه فتصلـوا نـارا وقودهـا النـاس والحجـارة أعـدت للكافريـن. أيهـا النـاس بي والله بـشر الأولـون مـن النبيـين والمرسـلين، وأنـا خاتـم الأنبيـاء والمرسـلين والحجـة عـلى جميـع المخلوقـين مـن أهـل السـماوات والأرضـين، فمـن شـك في ذلـك فهـو كافـر كفـر الجاهليـة الأولى، ومـن شـك في شـئ مـن قـولي هـذا فقـد شـك في الـكل منـه، والشـاك في ذلـك فلـه النـار.

معـاشر النـاس حبـاني الله بهـذه الفضيلـة منـا منـه عـلي وإحسـانا منـه إلي، ولا إلـه إلا هـو، لـه الحمـد منـي أبـد الآبديـن ودهـر الداهريـن عـلى كل حـال. معـاشر النـاس فضلـوا عليـا فإنـه أفضـل النـاس بعـدي مـن ذكـر وأنثـى، بنـا أنـزل الله الـرزق وبقـي الخلـق، ملعـون ملعـون مغضـوب مغضـوب مـن رد عـلى قـولي هـذا ولم يوافقـه، ألا إن جبرئيـل خـبرني عـن الله تعـالى بذلـك ويقـول: « مـن عـادى عليـا ولم يتولـه فعليـه لعنتـي وغضبـي « فلتنظـر نفـس مـا قدمـت لغـد، واتقـوا الله أن تخالفـوه فتـزل قـدم بعـد ثبوتهـا إن الله خبـير بـما تعملـون. معـاشر النـاس إنـه جنـب الله الـذي ذكـر في كتابـه فقـال تعـالى: « إن تقـول نفـس يـا حسرتـا

على ما فرطت في جنب الله «. معاشر الناس تدبروا القرآن وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبين لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلى - وشائل بعضده - ومعلمكم إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها على. معاشر الناس إن عليا والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا على الحوض، هم أمناء الله في خلقه وحكماؤه في أرضه، ألا وقد أديت، ألا وقد بلغت ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وإن الله عز وجل قال وأنا قلت عن الله عز وجل، ألا إنه ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا ولا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره.

ثم ضرب بيده إلى عضده فرفعه، وكان منذ أول ما صعد رسول الله صلى الله عليه وآله شال عليا حتى صارت رجله مع ركبة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: معاشر الناس هذا علي أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على أمتي وعلى تفسير كتاب الله عز وجل والداعي إليه والعامل بما يرضاه والمحارب لأعدائه والموالي على طاعته والناهي عن معصيته خليفة رسول الله وأمير المؤمنين والإمام الهادي وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بأمر الله، أقول ما يبدل القول لدي بأمر ربي، أقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من أنكره واغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت علي أن الإمامة بعدي لعلي وليك عند تبياني ذلك ونصبي أيام بما أكملت لعبادك من دينهم وأتممت عليهم بنعمتك ورضيت

لهم الإسلام دينا، فقلت: « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين « اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيدا أني قد بلغت.

معاشر الناس إنما أكمل الله عز وجل دينكم بإمامته، فمن لم يأتم به وبمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة والعرض على الله عز وجل فأولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار فيها خالدون، لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون. معاشر الناس هذا علي أنصركم لي وأحقكم بي وأقربكم إلي وأعزكم علي، والله عز وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضى إلا فيه، وما خاطب الله الذين آمنوا إلا بدأ به، ولا نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه، ولا شهد بالجنة في هل أتى على الإنسان إلا له، ولا أنزلها في سواه، ولا مدح بها غيره. معاشر الناس هو ناصر دين الله والمجادل عن رسول الله، وهو التقي النقي الهادي المهدي، نبيكم خير نبي ووصيكم خير وصي وبنوه خير الأوصياء. معاشر الناس ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب علي. معاشر الناس إن إبليس أخرج آدم من الجنة بالحسد، فلا تحسدوه فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، فإن آدم أهبط إلى الأرض بخطيئة واحدة وهو صفوة الله عز وجل وكيف بكم وأنتم أنتم ومنكم أعداء الله، ألا إنه لا يبغض عليا إلا شقي ولا يتوالى عليا إلا تقي ولا يؤمن به إلا مؤمن مخلص، وفي علي والله نزلت سورة العصر « بسم الله الرحمن الرحيم. والعصر إن الإنسان لفي خسر « إلى آخرها. معاشر الناس قد استشهدت الله وبلغتكم رسالتي، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. معاشر الناس اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. معاشر الناس

آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها. معاشر الناس النور من الله عز وجل في مسلوك ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي الذي يأخذ بحق الله وبكل حق هو لنا، لأن الله عز وجل قد جعلنا حجة على المقصرين والمعاندين والمخالفين والخائنين والآثمين والظالمين من جميع العالمين. معاشر الناس أنذركم أني رسول الله قد خلت من قبلي الرسل أفإن مت أو قتلت انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين، ألا وإن عليا هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه. معاشر الناس لا تمنوا على الله إسلامكم فيسخط عليكم ويصيبكم بعذاب من عنده إنه لبالمرصاد. معاشر الناس إنه سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. معاشر الناس إن الله وأنا بريئان منهم. معاشر الناس إنهم وأنصارهم وأتباعهم وأشياعهم في الدرك الأسفل من النار ولبئس مثوى المتكبرين، ألا إنهم أصحاب الصحيفة فلينظر أحدكم في صحيفته. قال: فذهب على الناس إلا شرذمة منهم أمر الصحيفة. معاشر الناس إني أدعها إمامة ووراثة في عقبى إلى يوم القيامة، وقد بلغت ما أمرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب وعلى كل أحد ممن شهد أو لم يشهد ولد أو لم يولد، فليبلغ الحاضر الغائب والوالد الولد إلى يوم القيامة، وسيجعلونها ملكا واغتصابا، ألا لعن الله الغاصبين والمغتصبين، وعندها سنفرغ لكم أيها الثقلان فيرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران. معاشر الناس إن الله عز وجل لم يكن يذركم على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على

الغيب. معاشر الناس إنه ما من قرية إلا والله مهلكها بتكذيبها، وكذلك يهلك القرى وهي ظالمة كما ذكر الله تعالى، وهذا علي إمامكم ووليكم وهو مواعيد الله والله يصدق ما وعده.

معاشر الناس قد ضل قبلكم أكثر الأولين، والله لقد أهلك الأولين وهو مهلك الآخرين، قال الله تعالى: « ألم نهلك الأولين. ثم نتبعهم الآخرين، كذلك نفعل بالمجرمين. ويل يومئذ للمكذبين «. معاشر الناس إن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت عليا ونهيته، فعلم الأمر والنهي من ربه عز وجل، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوه تهتدوا، وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا إلى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله. معاشر الناس أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون، ثم قرأ « الحمد لله رب العالمين « إلى آخرها وقال: في نزلت وفيهم نزلت ولهم عمت وإياهم خصت، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ألا إن حزب الله هم الغالبون، ألا إن أعداء علي هم أهل الشقاق والنفاق والحادون وهم العادون وإخوان الشياطين الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ألا إن أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه فقال عز وجل « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله « إلى آخر الآية، ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال: « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون « ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال الذين يدخلون الجنة آمنين تتلقاهم الملائكة بالتسليم إن طبتم فادخلوها خالدين ، ألا إن أولياءهم الذين قال لهم الله عز

وجل: يدخلون الجنة بغير حساب، ألا إن أعداءهم يصلون سعيرا، ألا إن أعداءهم الذين يسمعون لجهنم شهيقا وهي تفور ولها زفير، ألا إن أعداءهم الذين قال الله فيهم: « كلما دخلت أمةلعنت أختها « الآية، ألا إن أعداءهم الذين قال الله عز وجل: « كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جائنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا في ضلال مبين» ألا إن أولياءهم الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير. معاشر الناس شتان ما بين السعير والجنة، عدونا من ذمه الله ولعنه وولينا من مدحه الله وأحبه. معاشر الناس ألا وإني منذر وعلي هاد.

معاشر الناس إني نبي وعلي وصي، ألا إن خاتم الأئمة منا القائم المهدي ألا إنه الظاهر على الدين، ألا إنه المنتقم من الظالمين، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها ألا إنه قاتل كل قبيلة من أهل الشرك، ألا إنه مدرك بكل ثأر لأولياء الله، ألا إنه الناصر لدين الله، ألا إنه الغراف في بحر عميق، ألا إنه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل بجهله، ألا إنه خيرة الله ومختاره، ألا إنه وارث كل علم والمحيط به، ألا إنه المخبر عن ربه عز وجل والمنبه بأمر إيمانه، ألا إنه الرشيد السديد، ألا إنه المفوض إليه، ألا إنه قد بشر من سلف بين يديه، ألا إنه الباقي حجة ولا حجة بعده ولاحق إلا معه ولا نور إلا عنده، ألا إنه لا غالب له ولا منصور عليه، ألا وإنه ولي الله في أرضه وحكمه في خلقه وأمينه في سره وعلانيته. معاشر الناس قد بينت لكم وأفهمتكم، وهذا علي يفهمكم بعدي، ألا وإني عند انقضاء خطبتي أدعوكم إلى مصافقتي على بيعته والإقرار به ثم مصافقته بعدي، ألا وإني قد بايعت الله وعلي قد بايعني وأنا آخذكم

بالبيعة له عنالله عز وجل « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه « الآية.

معاشر الناس إن الحج والصفا والمروة والعمرة من شعائر الله « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما « الآية. معاشر الناس حجوا البيت، فما ورده أهل بيت لا استغنوا، ولا تخلفوا عنه إلا افتقروا. معاشر الناس ما وقف بالموقف مؤمن إلا غفر الله له ما سلف من ذنبه إلى وقته ذلك فإذا انقضت حجته استؤنف عمله. معاشر الناس الحجاج معانون ونفقاتهم مخلفة، والله لا يضيع أجر المحسنين. معاشر الناس حجوا البيت بكمال الدين والتفقه، ولا تنصرفوا عن المشاهد إلا بتوبة وإقلاع. معاشر الناس أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما أمركم الله عز وجل، لئن طال عليكم الأمد فقصرتم أو نسيتم فعلي وليكم ومبين لكم الذي نصبه الله عز وجل بعدي، ومن خلفه الله مني وأنا منه يخبركم بما تسألون عنه ويبين لكم ما لا تعلمون، ألا إن الحلال والحرام أكثر من أن أحصيهما وأعرفهما، فآمر بالحلال وأنهى عن الحرام في مقام واحد، فأمرت أن آخذ البيعة منكم والصفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عز وجل في علي أمير المؤمنين والأئمة من بعده الذين هم مني ومنه، أئمة قائمة منهم المهدي إلى يوم القيامة الذي يقضي بالحق. معاشر الناس وكل حلال دللتكم عليه أو حرام نهيتكم عنه فإني لم أرجع عن ذلك ولم أبدل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه وتواصوا به ولا تبدلوه ولاتغيروه، ألا وإني أجدد القول: ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ألا وإن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تنتهوا إلى قولي وتبلغوه

من لم يحضر وتأمروه بقبوله وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من الله عز وجل ومني، ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلا مع إمام معصوم. معاشر الناس القرآن يعرفكم أن الأئمة من بعده ولده، وعرفتكم أنه مني وأنا منه، حيث يقول الله في كتابه « وجعلها كلمة باقية في عقبه» وقلت « لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما».

معاشر الناس التقوى التقوى، احذروا الساعة كما قال الله عز وجل « إن زلزلة الساعة شئ عظيم» اذكروا الممات والحساب والموازين والمحاسبة بين يدي رب العالمين والثواب والعقاب، فمن جاء بالحسنة أثيب عليها ومن جاء بالسيئة فليس له في الجنان نصيب. معاشر الناس أنكم أكثر من أن تصافقوني بكف واحدة، وقد أمرني الله عز وجل أن آخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقدت لعلي من إمرة المؤمنين ومن جاء بعده من الأئمة مني ومنه على ما أعلمتكم أن ذريتي من صلبه، فقولوا بأجمعكم « إنا سامعون مطيعون راضون منقادون لما بلغت عن ربنا وربك في أمر علي وأمر ولده من صلبه من الأئمة، نبايعك على ذلك بقلوبنا وأنفسنا وألسنتنا وأيدينا على ذلك نحيى ونموت ونبعث ولا نغير ولا نبدل ولا نشك ولا نرتاب ولا نرجع عن عهد ولا ننقض الميثاق نطيع الله ونطيعك وعليا أمير المؤمنين وولده الأئمة الذين ذكرتهم من ذريتك من صلبه بعد الحسن والحسين الذين قد عرفتكم مكانهما مني ومحلهما عندي ومنزلتهما من ربي عز وجل « فقد أديت ذلك إليكم وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأنهما الإمامان بعد أبيهما علي وأنا أبوهما قبله، وقولوا « أطعنا الله بذلك وإياك وعليا والحسن والحسين والأئمة الذين ذكرت عهدا وميثاقا مأخوذا لأمير المؤمنين

مـن قلوبنـا وأنفسـنا وألسـنتنا ومصافقـة أيدينـا مـن أدركهمابيـده وأقـر بهـما بلسـانه ولا نبتغـي بذلـك بـدلا ولا نـرى مـن أنفسـنا عنـه حـولا أبـدا، أشـهدنا الله وكفـى بـالله شـهيدا وأنـت علينـا بـه شـهيد، وكل مـن أطـاع ممـن ظهـر واسـتتر وملائكـة الله وجنـوده وعبيـده والله أكـبر مـن كل شـهيد « معـاشر النـاس مـا تقولـون فـإن الله يعلـم كل صـوت وخافيـة كل نفـس، فمـن اهتـدى فلنفسـه ومـن ضـل فإنـما يضـل عليهـا، ومـن بايـع فإنـما يبايـع الله يـد الله فـوق أيديهـم. معـاشر النـاس فاتقـوا الله وبايعـوا عليـا أمـير المؤمنـين والحسـن والحسـين والأئمـة كلمـة طيبـة باقيـة، يهلـك الله مـن غـدر ويرحـم الله مـن وفى، ومـن « نكـث فإنـما ينكـث عـلى نفسـه» الآيـة.

معـاشر النـاس قولـوا الـذي قلـت لكـم وسـلموا عـلى عـلي بإمـرة المؤمنـين، وقولـوا سـمعنا وأطعنـا غفرانـك ربنـا وإليـك المصـير، وقولـوا « الحمـد لله الـذي هدانـا لهـذا ومـا كنـا لنهتـدي لـولا أن هدانـا الله « الآيـة. معـاشر النـاس إن فضائـل عـلي بـن أبي طالـب عليـه السـلام عنـد الله عـز وجـل، وقـد أنزلهـا في القـرآن أكثـر مـن أن أحصيهـا في مقـام واحـد، فمـن أنبأكـم بهـا وعرفهـا فصدقـوه. معـاشر النـاس مـن يطـع الله ورسـوله وعليـا والأئمـة الذيـن ذكرتهـم فقـد فـاز فـوزا عظيـما. معـاشر النـاس السـابقون السـابقون إلى مبايعتـه وموالاتـه والتسـليم عليـه بإمـرة المؤمنـين، أولئـك هـم الفائـزون في جنـات النعيـم. معـاشر النـاس قولـوا مـا يـرضى الله بـه عنكـم مـن القـول، « فـإن تكفـروا أنتـم ومـن في الأرض جميعـا فلـن يـضر الله شـيئا «، اللهـم اغفـر للمؤمنـين واغضـب عـلى الكافريـن والحمـد لله رب العالمـين.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا وتداكوا على رسول الله وعلى علي عليه السلام فصافقوا بأيديهم، فكان أول من صافق رسول الله صلى الله عليه وآله الأول والثاني والثالث والرابع والخامس وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس على طبقاتهم وقدر منازلهم، إلى أن صليت المغرب والعتمة في وقت واحد، ووصلوا البيعة والمصافقة ثلاثا ورسول الله يقول كلما بايع قوم: الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين. وصارت المصافقة سنة ورسما، وربما يستعملها من ليس له حق فيها».

ملحق الرقم (٢)

خبر أم الإمام الثاني عشر[١]!

(باب، ما روى في نرجس أم القائم عليها السلام واسمها. واسمها مليكة[٢] بنت يشوعا بن قيصر الملك).

حدثنا محمد بن علي بن حاتم النوفلي قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء البغدادي قال: حدثنا أحمد بن طاهر القمي قال: حدثنا أبو الحسين محمد بن بحر الشيباني قال: وردت كربلا سنة ست وثمانين ومائتين، قال: وزرت قبر غريب رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انكفأت إلى مدينة السلام متوجها إلى مقابر قريش في وقت قد تضرمت الهواجر وتوقدت السمائم، فلما وصلت منها إلى مشهد الكاظم عليه السلام واستنشقت نسيم تربته المغمورة من الرحمة، المحفوفة بحدائق الغفران أكببت عليها بعبرات متقاطرة، وزفرات متتابعة وقد حجب الدمع طرفي عن النظر فلما

(١) نقلا عن كتاب: كمال الدين وتمام النعمة: رئيس المحدثين الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة ١٤٢٩هـ، ج ١-٢، ص ٤٤٥ ـ ٤٥٢.

(٢) اختلف المحدثون الشيعة في اسمها على ثمانية أسماء هي: نرجس، سوسن، صقيل، صيقل، حديثة، حكيمة، مليكة، ريحانة، خمط. (انظر: المهدي من المهد إلى الظهور: السيد محمد كاظم الموسوي القزويني، مؤسسة الوفاء، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ١١٨).

رقـأت العـبرة وانقطـع النحيـب فتحـت بـصري فـإذا أنـا بشـيخ قـد انحنـى صلبـه، وتقـوس منكبـاه، وثفنـت جبهتـه وراحتـاه، وهـو يقـول لآخـر معـه عنـد القـبر: يـا ابـن أخـي لقـد نـال عمـك شرفـا بـما حملـه السـيدان مـن غوامـض الغيـوب وشرائـف العلـوم التـي لم يحمـل مثلهـا إلا سـلمان، وقـد أشرف عمـك عـلى اسـتكمال المـدة و انقضـاء العمـر، وليـس يجـد في أهـل الولايـة رجـلا يفـضي إليـه بـسره، قلـت: يـا نفـس لا يـزال العنـاء والمشـقة ينـالان منـك باتعـابي الخـف والحافـر في طلـب العلـم، وقـد قـرع سـمعي مـن هـذا الشـيخ لفـظ يـدل عـلى علـم جسـيم وأثـر عظيـم، فقلـت: أيهـا الشـيخ ومـن السـيدان؟

قـال: النجـمان المغيبـان في الثـرى بـسر مـن رأى، فقلـت: إني أقسـم بالمـوالاة وشرف محـل هذيـن السـيدين مـن الإمامـة والوراثـة إني خاطـب علمهـما، وطالـب آثارهـما، وبـاذل مـن نفـسي الايـمان المؤكـدة عـلى حفظ أسرارهـما، قـال: إن كنـت صادقـا فيـما تقـول فأحـضر مـا صحبـك مـن الآثـار عـن نقلـة أخبارهـم، فلـما فتـش الكتـب وتصفـح الروايـات منهـا قـال:

صدقـت أنـا بـشر بـن سـليمان النخـاس مـن ولـد أبي أيـوب الأنصـاري أحـد مـوالي أبي الحسـن وأبي محمـد عليهـما السـلام وجارهـما بـسر مـن رأى، قلـت: فأكـرم أخـاك ببعـض مـا شـاهدت مـن آثارهـما قـال: كان مولانـا أبـو الحسـن عـلي بـن محمـد العسـكري عليهـما السـلام فقهنـي في أمـر الرقيـق فكنـت لا أبتـاع ولا أبيـع إلا بإذنـه، فاجتنبـت بذلـك مـوارد الشـبهات حتـى كملـت معرفتـي فيـه فأحسـنت الفـرق بـين الحـلال والحـرام.

فبينما أنا ذات ليلة في منزلي بسر من رآى وقد مضى هوي من الليل إذ قرع الباب قارع فعدوت مسرعا فإذا أنا بكافور الخادم رسول مولانا أبي الحسن علي بن محمد عليهما السلام يدعوني إليه فلبست ثيابي ودخلت عليه فرأيته يحدث ابنه أبا محمد وأخته حكيمة من وراء الستر، فلما جلست قال: يا بشر إنك من ولد الأنصار وهذه الولاية لم تزل فيكم يرثها خلف عن سلف، فأنتم ثقاتنا أهل البيت وإني مزكيك ومشرفك بفضيلة تسبق بها شأو الشيعة في الموالاة بها: بسر أطلعك عليه وأنفذك في ابتياع أمة فكتب كتابا ملصقا بخط رومي ولغة رومية، وطبع عليه بخاتمه، وأخرج شستقة صفراء فيها مائتان وعشرون دينارا فقال: خذها وتوجه بها إلى بغداد، واحضر معبر الفرات ضحوة كذا، فإذا وصلت إلى جانبك زواريق السبايا وبرزن الجواري منها فستحدق بهم طوائف المبتاعين من وكلاء قواد بني العباس وشراذم من فتيان العراق، فإذا رأيت ذلك فأشرف من البعد على المسمى عمر بن يزيد النخاس عامة نهارك إلى أن يبرز للمبتاعين جارية صفتها كذا وكذا، لابسة حريرتين صفيقتين، تمتنع من السفور ولمس المعترض، والانقياد لمن يحاول لمسها ويشغل نظره، بتأمل مكاشفها من وراء الستر الرقيق فيضربها النخاس فتصرخ صرخة رومية، فاعلم أنها تقول: وا هتك ستراه، فيقول بعض المبتاعين علي بثلاثمائة دينار فقد زادني العفاف فيها رغبة، فتقول بالعربية: لو برزت في زي سليمان وعلى مثل سرير ملكه ما بدت لي فيك رغبة فأشفق على مالك، فيقول النخاس: فما الحيلة ولا بد من بيعك، فتقول الجارية: وما العجلة ولا بد من اختيار مبتاع يسكن قلبي [إليه و] إلي أمانته وديانته،

فعند ذلك قم إلى عمر بن يزيد النخاس وقل له: إن معي كتابا ملصقا لبعض الاشراف كتبه بلغة رومية وخط رومي، ووصف فيه كرمه ووفاه ونبله وسخاءه فناولها لتتأمل منه أخلاق صاحبه فإن مالت إليه ورضيته، فأنا وكيله في ابتياعها منك.

قال بشر بن سليمان النخاس: فامتثلت جميع ما حده لي مولاي أبو الحسن عليه السلام فيأمر الجارية، فلما نظرت في الكتاب بكت بكاء شديدا، وقالت لعمر بن يزيد النخاس:

بعني من صاحب هذا الكتاب، وحلفت بالمحرجة المغلظة إنه متى امتنع من بيعها منه قتلت نفسها، فما زلت أشاحه في ثمنها حتى استقر الامر فيه على مقدار ما كان أصحبنيه مولاي عليه السلام من الدنانير في الشستقة الصفراء، فاستوفاه مني وتسلمت منه الجارية ضاحكة مستبشرة، وانصرفت بها إلى حجرتي التي كنت آوي إليها ببغداد فما أخذها القرار حتى أخرجت كتاب مولاها عليه السلام من جيبها وهي تلثمه وتضعه على خدها وتطبقه على جفنها وتمسحه على بدنها، فقلت: تعجبا منها أتلثمين كتابا ولا تعرفين صاحبه؟ قالت: أيها العاجز الضعيف المعرفة بمحل أولاد الأنبياء أعرني سمعك وفرغ لي قلبك أنا مليكة بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم، وأمي من ولدا الحواريين تنسب إلى وصي المسيح شمعون، أنبئك العجب العجيب إن جدي قيصر أراد أن يزوجني من ابن أخيه وأنا من بنات ثلاث عشرة سنة فجمع في قصره من نسل الحواريين ومن القسيسين والرهبان ثلاثمائة رجل ومن ذوي الاخطار سبعمائة رجل وجمع من أمراء الأجناد وقواد

العساكر ونقباء الجيوش وملوك العشائر أربعة آلاف، وأبرز من بهو ملكه عرشا مسوغا من أصناف الجواهر إلى صحن القصر فرفعه فوق أربعين مرقاة فلما صعد ابن أخيه وأحدقت به الصلبان وقامت الأساقفة عكفا ونشرت أسفار الإنجيل تسافلت الصلبان من الأعالي فلصقت بالأرض، وتقوضت الأعمدة

فانهارت إلى القرار، وخر الصاعد من العرش مغشيا عليه، فتغيرت ألوان الأساقفة، وارتعدت فرائصهم، فقال كبيرهم لجدي: أيها الملك أعفنا من ملاقاة هذه النحوس الدالة على زوال هذا الدين المسيحي والمذهب الملكاني، فتطير جدي من ذلك تطيرا شديدا، وقال للأساقفة: أقيموا هذه الأعمدة، وارفعوا الصلبان، واحضروا أخا هذا المدبر العاثر المنكوس جده لا زوج منه هذه الصبية فيدفع نحوسه عنكم بسعوده، فلما فعلوا ذلك حدث على الثاني ما حدث على الأول، وتفرق الناس وقام جدي قيصر مغتما ودخل قصره وأرخيت الستور فأريت في تلك الليلة كان المسيح و الشمعون وعدة من الحواريين قد اجتمعوا في قصر جدي ونصبوا فيه منبرا يباري السماء علوا وارتفاعا في الموضع الذي كان جدي نصب فيه عرشه، فدخل عليهم محمدا صلى الله عليه وآله مع فتية وعدة من بنيه فيقوم إليه المسيح فيعتنقه فيقول: يا روح الله إني جئتك خاطبا من وصيك شمعون فتاته مليكة لابني هذا، وأومأ بيده إلى أبي محمد صاحب هذا الكتاب، فنظر المسيح إلى شمعون فقال له: قد أتاك الشرف فصل رحمك برحم رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قد فعلت، فصعد ذلك المنبر وخطب محمد صلى الله عليه وآله وزوجني وشهد المسيح عليه السلام وشهد بنوا محمد

صلى الله عليه وآله والحواريون، فلما استيقظت من نومي أشفقت أن أقص هذه الرؤيا على أبي وجدي مخافة القتل، فكنت أسرها في نفسي ولا أبديها لهم، وضرب صدري بمحبة أبي محمد حتى امتنعت من الطعام والشراب وضعفت نفسي ودق شخصي ومرضت مرضا شديدا فما بقي من مدائن الروم طبيب إلا أحضره جدي وسأله عن دوائي فلما برح به اليأس قال: يا قرة عيني فهل تخطر ببالك شهوة فأزودكها في هذه الدنيا؟ فقلت: يا جدي أرى أبواب الفرج علي مغلقة فلو كشفت العذاب

عمن في سجنك من أسارى المسلمين وفككت عنهم الأغلال وتصدقت عليهم ومننتهم بالخلاص لرجوت أن يهب المسيح وأمه لي عافية وشفاء، فلما فعل ذلك جدي تجلدت في إظهار الصحة في بدني وتناولت يسيرا من الطعام فسر بذلك جدي وأقبل على إكرام الأسارى إعزازهم، فرأيت أيضا بعد أربع ليال كأن سيدة النساء قد زارتني ومعها مريم بنت عمران وألف وصيفة من وصائف الجنان فتقول لي مريم: هذه سيدة النساء أم زوجك أبي محمد عليه السلام، فأتعلق بها وأبكي وأشكو إليها امتناع أبي محمد من زيارتي، فقالت لي سيدة النساء عليها السلام: إن ابني أبا محمد لا يزورك وأنت مشركة بالله وعلى مذهب النصارى وهذه أختي مريم تبرأ إلى تعالى من دينك فإن ملت إلى رضا الله عز وجل ورضا المسيح ومريم عنك وزيارة أبي محمد أياك فتقولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن - أبي - محمدا رسول الله، فلما تكلمت بهذه الكلمة ضمتني سيدة النساء إلى صدرها فطيبت لي نفسي، وقالت: الان توقعي زيارة أبي محمد إياك فإني منفذه إليك، فانتبهت وأنا أقول:

واشوقاه إلى لقاء أبي محمد، فلما كانت الليلة القابلة جاءني أبو محمد عليه السلام في منامي فرأيته كأني أقول له: جفوتني يا حبيبي بعد أن شغلت قلبي بجوامع حبك؟ قال: ما كان تأخيري عنك إلا لشركك وإذ قد أسلمت فإني زائرك في كل ليلة إلى أن يجمع الله شملنا في العيان، فما قطع عني زيارته بعد ذلك إلى هذه الغاية.

قال بشر: فقلت لها: وكيف وقعت في الأسر فقالت: أخبرني أبو محمد ليلة من الليالي أن جدك سيسرب جيوشا إلى قتال المسلمين يوم كذا، ثم يتبعهم فعليك باللحاق بهم متنكرة في زي الخدم مع عدة من الوصائف من طريق كذا، ففعلت فوقعت علينا طلائع المسلمين حتى كان من أمري ما رأيت وما شاهدت وما شعر أحد بأني ابنة ملك الروم إلى هذه الغاية سواك، وذلك باطلاعي إياك عليه، ولقد سألني الشيخ الذي وقعت إليه في سهم الغنيمة عن اسمي فأنكرته وقلت: نرجس، فقال:

اسم الجواري، فقلت: العجب إنك رومية ولسانك عربي؟ قالت: بلغ من ولوع جدي وحمله إياي على تعلم الآداب أن أو عز إلى امرأة ترجمان له في الاختلاف إلي، فكانت تقصدني صباحا ومساء وتفيدني العربية حتى استمر عليها لساني واستقام.

قال بشر: فلما انكفأت بها إلى سر من رأى دخلت على مولانا أبي الحسن العسكري عليه السلام فقال لها: كيف أراك الله عز الاسلام وذل النصرانية، وشرف أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله؟ قالت: كيف أصف لك يا ابن رسول الله ما أنت أعلم به مني؟ قال:

فإني أريد أن أكرمك فأيما أحب إليك عشرة آلاف درهم؟ أم

بشرى لك فيها شرف الأبد؟ قالت: بل البشرى، قال عليه السلام: فأبشري بولد يملك الدنيا شرقا وغربا ويملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، قالت: ممن؟ قال عليه السلام: ممن خطبك رسول الله صلى الله عليه وآله له من ليلة كذا من شهر كذا من سنة كذا بالرومية، قالت: من المسيح ووصيه؟ قال: فممن زوجك المسيح ووصيه، قالت: من ابنك أبي محمد؟ قال:

فهل تعرفينه؟ قالت: وهل خلوت ليلة من زيارته إياي منذ الليلة التي أسلمت فيها على يد سيدة النساء أمه.

فقال أبو الحسن عليه السلام: يا كافور ادع لي أختي حكيمة، فلما دخلت عليه قال عليه السلام لها: هاهيه فاعتنقتها طويلا وسرت بها كثيرا، فقال لها مولانا: يا بنت رسول الله أخرجيها إلى منزلك وعلميها الفرائض والسنن فإنها زوجة أبي محمد وأم القائم عليه السلام.

فهرس المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الكتاب المقدس الترجمة العربية المشتركة.

٣. الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان.

٤. الكتاب المقدس، نسخة الفندايك.

٥. إبراهيم أبو الأنبياء: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٦. الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الناشر انتشار الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٣٨٠ه.

٧. الإسراء والمعراج: محمد متولي الشعراوي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٣م.

٨. الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة عشرة ٢٠٠١م.

٩. إظهار الحق: تأليف رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، ت ١٨٩١م، دراسة وتحقيق وتعليق د. محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٩٨٩.

١٠. الإناسة المجتمعية، ديانة البدائيين في نظريات الأناسين: إ. إيفنز، ريتشارد، ترجمة: حسن قبيسي، دار الحدثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١١. الإنجيل المفقود، كتاب «ك» والأصول المسيحية: بيرتون ل. ماك، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٢. بحث حول المهدي: محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت لبنان، طبعة ١٩٧٧م.

١٣. بولس وتحريف المسيحية: هيم ماكبي، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

١٤. تاريخ نقد العهد القديم: زالمان شازار، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠م.

١٥. التاريخ السري للإمامة: جعفر المهاجري، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٥م.

١٦. تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد: د. نصر الله أبو طالب، دار الذخائر للنشر والتوزيع، توزيع مؤسسة الريان ناشرون، الطبعة الرابعة ٢٠١٠م.

١٧. التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

١٨. تطور الإنجيل: أينوك باول: ترجمة ودراسة أحمد ايبش، دار قتيبة، بدون تاريخ طبع.

١٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا

علي خليفة القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٠. التوراة السامرية: ترجمة الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق الصوري، مصر، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٢١. جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري.

٢٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٣. دائرة المعارف الكتابية: مجلس التحرير: دكتور القس منيس عبد النور، دكتور القس فايز فارس، القس أندريه ذكي، دكتور القس أنور ذكي، المحرر المسئول وليم وهبه باوي، دار الثقافة - القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٤. دراسة علمية لأحاديث المهدي: آية الله العظمى سيد أبو الفضل بن الرضا البرقعي القمي، ترجمة وتحقيق: د. سعد رستم، دار العقيدة للنشر والتوزيع، توزيع شركة مكتبة العبيكان، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠١٤م.

٢٥. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٦. زوال إسرائيل عام ٢٠٢٢م: د. بسام نهاد جرار.

٢٧. سيرة ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (٢١٣هـ)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة

٢٨. شرح أصول الكافي: مولي محمد صالح المازندراني، ج ٥، ص ٣٣٩. (موقع المكتبة الشيعية).

٢٩. الشيعة: هاينس هالم، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة، العراق - بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٣٠. ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة العاشرة

٣١. ظاهرة النبوة الإسرائيلية، طبيعتها، تاريخها، الموقف الإسلامي منها: د. محمد خليفة حسن أحمد، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٩١م.

٣٢. عقد الدرر في أخبار المنتظر: يوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي، تحقيق مهيب بن صالح بن عبد الرحمن البوريني، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.

٣٣. الغنوصية في الإسلام: هاينس هالم، ترجمة رائد الباش، مراجعة د. سالمة صالح، منشورات الجمل، بدون بيانات طبع.

٣٤. فجر الإسلام: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي.

٣٥. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (٤٢٩هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية.

٣٦. كعب الأحبار، مسلمة اليهود في الإسلام: إسرائيل ولفنسون، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الثانية ٢٠١٦م.

٣٧. كمال الدين وتمام النعمة: رئيس المحدثين الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١ه)، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة ١٤٢٩ه.

٣٨. رسالة في اللاهوت والسياسة: اسبنيوزا، ترجمة د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٣٩. ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟: أحمد ديدات، ـ إبراهيم خليل أحمد، تقديم عوض الله جاد حجازي، دار المنار، بدون بيانات الطبع.

٤٠. محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى: بروفسور عبد الأحد داود، ترجمة محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٤١. المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم: د. محمد علي البار، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٤٢. المسيحية والتوراة، بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط: شفيق مقار، رياض الريس للكتب والنشر، لندن - قبرص، الطبعة الأولى أغسطس.

٤٣. المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: د. محمد علي البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٤. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (٣٢٤هـ)، تحقيق نعيم زرزور، الناشر المكتبة العصرية الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤٥. موقع الأنبا تكلا هيمانوت (إلكتروني).

٤٦. المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، مختصر منهاج السنة: تأليف تقي الدين ابن تيمية، اختصره أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، حققه وعلق على حواشيه محب الدين الخطيب، وكالة الطباعة والترجمة -الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

٤٧. منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية: لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، لم تذكر دار النشر أو محل الطبع، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٤٨. المهدي المنتظر عند الشيعة الأثني عشرية: د. جواد علي، ترجمه عن الألمانية: د. أبو العيد دودو، منشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا، الطبعة الأولى.

٤٩. المهدي والمهدوية: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

٥٠. نظم المتناثر من الحديث المتواتر: أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بـ الكتاني (١٣٤٥هـ)، تحقيق شرف حجازي، دار الكتب السلفية - مصر، الطبعة الثانية.

٥١. يسوع التاريخي، محاضرات ومقالات نسق لها وقدم لها: الأب أيوب شهوان، سلسلة دراسات بيبلية، الرابطة الكتابية، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٥م

٥٢. يد الله، لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل؟: جريس هالسل، ترجمة محمد السماك دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

٥٣. اليقيني والظني من الأخبار، سجال بين الإمام أبي الحسن الأشعري والمحدثين: الشريف حاتم بن عارف العوني، الشبكة العربية للأبحاث، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ-٢٠١٣م.

فهرس المحتويات

هـذا الكتـاب ٣
اختصـارات الكتـب المقدسـة ٨
تمهيـد ٩
الفصـل الأول ٢٥
مـن هنـا جـاء المسـيح! ٢٧
المسـيح الموعـود في أسـفار اليهـود ٥٠
الفصل الثـاني ٨٥
المسـيح يبشر بالمسـيح! ٨٧
شرح تمثال رؤيا نبوخذ نـصر ١٣٢
الفصل الثالث ١٣٣
المنتظـر في الـتراث الإسـلامي ١٣٥
خاتمة ١٨٧
ملحق رقـم (١) ١٩٣
ملحق رقـم (٢) ٢٠٧
فهـرس المصـادر ٢١٥
فهـرس المحتويـات ٢٢٣